

رابطة الجامعات الإسلامية

سلسلة فكر المواجهة

(٢٠)

المسلمون والآخر

أسس لتبادل الحوار والتعاون السلمي

تأليف

الدكتور/ جعفر عبد السلام
الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

الدكتور/ أحمد السايح
الأستاذ بجامعة الأزهر

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

أ.د/ جعفر عبد السلام

الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد..

إن قضية التأصيل الإسلامى للعلاقة بين البشر، وتفعيل الحوار بين المسلمين والآخر من القضايا التى توليها رابطة الجامعات الإسلامية جُلَّ اهتمامها؛ لفهم وترسيخ الأسس الإسلامية الصحيحة التى يجب أن تسود بين البشر جميعًا، وكذلك لتخفيف حدة التوتر الذى يظهر بين الحين والآخر بفعل الآلة الإعلامية الصهيونية، و دراسة المنابع المغرضة التى تؤجج العلاقة بينهما، وإظهار سماحة الإسلام وقبوله الآخر بتعدديته العقائدية والفكرية والثقافية والاجتماعية، باعتبار ذلك سنّة كونية من سنن الله -تعالى-، هذا بالإضافة إلى التركيز على القواسم المشتركة بين الأديان؛ لتكون منطلقًا لديمومة الحوار واستمراريته، وأيضًا لتحقيق الفهم الصحيح فى مخيلة الآخر حيال مجريات الأحداث فى العالم الإسلامى، بعيدًا عن المبالغة والتهويل فى عرض الموضوعات، ولتصحيح الصورة النمطية عن الإسلام فى الإعلام الغربى وفى المناهج الدراسية الغربية، وإبراز قيم الإسلام السمحة التى تدعو إلى الاعتدال ورفض الجمود والانغلاق والتعصب والتطرف بشتى صوره وأشكاله وأساليبه، وكذلك من أجل إبراز قضايا حقوق الإنسان وحقوق المرأة، وإنسانية الحضارة الإسلامية، وأن الميلاد الحقيقى لحقوق الإنسان بدأ من تاريخ البعثة المحمدية.

وفى هذا الإطار يسرنى أن أقدم للقارئ الكريم العدد العشرين من سلسلة "**فكر المواجهة**"، بعنوان: «**المسلمون والآخر: أسس لتبادل الحوار والتعاون السلمى**»، وقد شاركنا فى تأليفه الأستاذ الدكتور/ **أحمد عبد الرحيم السايح**،

الأستـاذ بجامعـة الأزهر، الذى كـتب الفـصـول: الثـانى، والرابع، والخـامس من هذا الكتاب. وندعو الله -عز وجل- أن يجزل له المثوبة.

والرابطة إذ تـقـدم هذا المُؤَلَّف، لتـأمل أن يسـهم بفـاعليـة فى إعـطاء الحـوار الحضارى ما يستحق من الاهتمام، خاصة وأن الأمة تستند إلى الشريعة الخاتمة الغرّاء التى تنير الطريق وتبدد الظلمات. ومما هو جلى أيضًا أن مساهمات الأمة فى إرساء المعالـم الحضارية وأسس الحـوار الإنسانى تعـتبـر دليل صحـة وعافـية، يسـاعد فى الانطلاقة العقلانية الواعية الفاعلة البانية التى تنتهجها رابطة الجامعات الإسلامية فى إيقاظ وعى المسلمين المعاصرين.

وإن كتـاب «المسلمون والآخر» يؤكد فـى وضوح أن الأمة الإسلامـية، بقيمـها وثوابتها التـى تتمسك بها، تستطـيع أن تساهم بدور فاعل فى ترسيخ مـعالم الحوار، ووضع ضوابط ومعايير التعاون والتبادل الحضارى والثقافى والفكرى.

ومن هنا تنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ويضم الفصـول التالية: **الفصل الأول:** علاقة الدولة الإسـلامية بالدول الأخرى، **والثانى:** تأصيل العلاقـة بين الناس فى الإسلام، **والثالث:** حقوق غير المسلمين فى الدول الإسلامية وحقوق المسلمين فى الدول الأخرى.

أما القسم الثانى: فيتناول الإسلام والحوار، ويضـم: الفصول التالية: **الفصل الرابع:** مدخل إلى الحوار، **والفصل الخامس:** الإسلام والتفاعل الحضارى، **والفصل السادس:** نموذج للحوار.

أما القسم الثالث: فيضم الوثائق المهمة المتعلقة بالموضوع.

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل..

* * *

مقدمـــة

الحمد لله رب العـالمين، أحمده سبحانه وتعـالى حمدا كثيرا طيبـا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد.. فلقد تنامى فى العقود الأخيرة الانفتاح الذى أحال المجتمعات الإنسانية إلى قرية كونية، تمتزج فيها مختلف الأعراف، والشعوب، والثقافات.

ويتـميـز العصـر ـ الذى نحن فيـه ـ بسقـوط الحدود الزمـانية والمكانيـة، وتلاشى المسافـات، أصبحت العـلاقات الإنسانية أكـثر اتصالا وارتبـاطا، الأمر الذى أدى إلى مزيد من التفاعل البشرى، والانفتاح الثقافى، وتبادل المنافع والحوار الحضارى.

كما يتميز العصر بالتطـور الهائل فى "تكنولوجيا" الانتقال والاتصال. هذه النقلة التقـنية العلمـية الهـائلة فى كنف الحضـارة الغربيـة، أفرزت تحـديات كبـيرة فى كـافة المجـالات. فمن الناحـية الاقـتـصادية أدت إلى زيادة التـرابط بين الأسـواق المختلفـة، وشـبكات المعلـومـات. ومن الناحـيـة الاجـتـمـاعـيـة أدت إلى تـزايد الصـلات بين المؤسسات، وتعميق التنسيق بين المصالح المختلفة للأفراد والجماعات.

لذا كان من الضرورى أن تتعاظم الحاجة إلى خطاب إسلامى، يقود المسير ويحدد الطريق، ويرتقـى بالإنسـانيـة، خـاصـة أن الخطاب الإسـلامى عـالمى المنزع لا يحـفل بجنس، ولا يتميز لعرق، يراعى التوازن بين العقل والوحى، وبين المادة والروح، وبين الحقوق والواجبات. وقد حفلت مفـردات القرآن الكريم بنداءات للناس جميعا "يأيها الناس" "يا بنى آدم" وتـكررت فـيه لفـظ" العـالمين" ولفظة "من" التى تفـيـد العـمـوم والشمول لكل من يعقل.

فالإسلام الحنيف يقـوم على ثوابت، وهذه الثوابت بينت أن الاختـلاف بين البشر فى الدين واقع بمشيئة اللـه، قال تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾﴾. [الروم:١٣].

كمـا بينت أن الرابطة الإنسانيـة قائمة بينهم شـاءوا أم أبوا، قال تعـالى فى سورة الحجـرات: ﴿يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣].

ومن هنا كان الإسلام الحنيف يدعو فى خطابه إلى:

- التعارف، ومن التعارف: القدرة على قبول المخالف والآخر، والاستفادة مما لديه من خبرات وصلات تنفع كافة المجتمعات.
- ويدعو كذلك إلى التعايش السلمى. قال تعالى فى سورة الممتحنة: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:٨].
- ويدعو إلى التعاون. وقد يكون معلوما أن كثيرا من القضايا العامة تشكل قاسما مشتركا بين المسلمين وغيرهم.. مما يجعل التعاون ضروريا.

ومما يحسن أن ندركه أن النزعة الإنسانية تتكرر فى كثير من الآيات، والإسلام بقيمه، وتعاليمه، ومبادئه، يعمل على الإعلاء من شأن القيم الإنسانية والأنساق المتفقة فى الحضارات، والثقافات، والمعتقدات.

وما ينبغى أن نشير إليه إن إبراز القيم الإنسانية فى الإسلام ضرورة عصرية، وقد قامت هذه الدراسة على فصول ومباحث. من شأنها ترسيخ المعالم الإسلامية، وحوار الحضارات، والتفاهم بين أهل الأديان.

وهى مساهمة فى إبراز ثوابت الأمة ومنطلقاتها فى وقت تشتد الحاجة فيه إلى مساهمات المسلمين.

إن الإسلام قد احتوى على العديد من المبادىء والقيم التى تشحذ الهمم، وتدعو إلى الاستفادة من منجزات البشر من أى جنس ودين ولون، وقد كرست الدراسات الصادرة من الرابطة قيم التسامح واحترام حقوق الإنسان وحرياته، ونبذ الإرهاب والتطرف.

واليوم يأتى هذا المؤلف ضمن هذه السلسلة الفكرية، التى أساسها فتح كافة الملفات فى العلاقة مع الآخر، وبيان النصوص والأفكار التى تحكم تصور الإسلام للعلاقة مع الآخر بشكل عام، وكيف يمكن أن تفعّل هذه العلاقة بما يعود على الإنسانية جمعاء بالخير.

المؤلفان

القسم الأول

تأصيل العلاقة بين البشر في المنظور الإسلامي



الفصل الأول
علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى

المبحث الأول: الأسس التى وضعها الإسلام لتنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين.

المبحث الثانى: تقييم التقسيم التقليدى للديار إلى دار إسلام ودار حرب.

تمهيد

من المهم فى هـذه الأوقـات المضطربة، التى يتـهم فيـهـا الإسـلام والمسلمـون بالإرهاب وكراهية الآخر، أن نجلو مـاران على الحقائق من أباطيل، وأن نوضح وجه الإسلام الناصع فى هذا الشأن، وأن نظهر كذلك ما يُحاك ضد الإسلام من مؤامرات فى إطار اتهامه بالإرهاب واتهام المسلمين بالتطرف وكراهية الآخر.

لقد بدأ الهجوم على الإسلام من هذه الزاوية، التطرف، كراهية الآخر، الانتشار بحد السـيف، فى وقت مبكر منذ أن خـرج الإسلام من شبـه الجزيرة ليـعرف ربوع العالم وينتشر فـى كل مكان من العالم القديم، خلال خمسـين عامًا فقط، وللأسف كـانت حملة أوروبا لتطويق الإسـلام وإيقـاف نموه وزحفـه مواكـبة لحـملة قام بهـا المستشرقون للتنقيب فى الإسلام بقصد الإساءة إليه.

وقد كـانت الخطيئة الكبـرى للفكر الاستشـراقى هى الزعم بأن الرسول ﷺ هو الذى كتب القرآن بيديه مما يعنى أن القرآن الكريم لـيس وحيًا، وأن محمدًا ﷺ ليس رسولاً وإنما هو دعى على ما يصـفه كثير من المسـتشرقين أمثـال جورج بوش الجد، الذى كان من رجال الـكنيسة وكتب كتـابًا نشر فى القرن التاسع عـشر فى الولايات المتحدة الأمريكيـة بعنوان: «محمد مؤسس إمبراطورية المسلمين»، صـب جام غضبه على الرسول، واعتبـره غضبًا من الله أرسله لكى يؤدب المسيحيـين بسبب انحرافهم عن الدين المسيحى، واعـتبر الله ناصره بسبب ما انتـهت إليه غزوتا بدر والخندق من انتصـار لم يكن متوقـعًا، ولولا أن الله معـه لقتل ولانتهى الإسـلام تمامًا فى أى من الواقعتين. ومـهما كان من تناقض بين فكر هذا الرجل إلا إنه عبـر عن بدايات سيئة للموقف من الإسـلام والمسلمين من قبل الـغرب بشكل عام، بل إن التنظيـر الجديد للعداء للإسلام الذى يقوم به الآن برنارد لويس، وهنتجـتون، وفوكوياما، يستند إلى

هذه الأفكار، ويزعم أنه من الضرورى أن يحارب الغرب المسلمين وأن يجفف منابع الفكر المتطرف الذى يؤمنون به.

هكذا فكر الغرب، ولازال يفكر فى جانب كبير من رجاله عن الإسلام والمسلمين، وهو تفكير زائف ومغرض ويخالف ما يسترشد به المسلمون فى حياتهم والمصدر الرئيسى لفكرهم وهو القرآن والسنة، وما سار عليه النبى ﷺ والخلفاء من بعده فى حياتهم وفى علاقاتهم بالآخر فى وقت السلم وفى وقت الحرب على حد السواء.

إننا فى حاجة إلى بيان مرتكزات العلاقة مع الآخر كما يوضحها القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم محمد ﷺ والخلفاء والتاريخ العام للمسلمين.

كذلك نحن فى حاجة إلى مناقشة بعض الآراء الفقهية التى عبرت عن فكر واقعى عندما كان الآخر يشهر السيف فى وجه الإسلام والمسلمين، ويحاول أن يطوق الرسالة ويستأصل جذورها، إنه الفقه الذى يتحدث عن دار الإسلام ودار الحرب، وأقول إنه فقه الواقع لسبب رئيسى، أنه لا يعتمد على نصوص، وإنما كان يصف الواقع فى فترة معينة كما سنبين إن شاء الله.

لقد تجاوز الواقع هذه المرحلة، ومن ثم فإننا بإزاء مجتمع آخر يقوم على السلام كقيمة رئيسية للاجتماع البشرى اليوم، بعد أن عانت الإنسانية من ويلات الحروب وما جرته عليها من شرور، وإذا كان فكر آخر بدأ يظهر ويعتبر المسلمين أعداء للحضارة وللإنسانية ويشحذ هممم بعض قادة الدول لمحاربة المسلمين، فإن باب الرد والحوار مع هذا الفكر مفتوح على مصرعيه، ويمكن الرد عليه وإن تجاوز التنظير إلى استخدام القوة كما يحدث أحيانًا، فإنه من حق المسلمين الرد وفقًا لأحكام القانون الدولى؛ وكذلك أحكام الفقه الإسلامى، وهذا ماسنوضحه كذلك فى هذه الورقة.

ولتوضيح ما أثرناه حتى الآن فى هذه المقدمة، فإننا سنقسم حديثنا إلى المبحثين التاليين:

المبحث الأول: نتناول فيه الأسس التى وضعها الإسلام لتنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين.

والمبحث الثانى: نتناول فيه تحليل التقسيم التقليدى للديار إلى دار إسلام ودار حرب، وما هى القيمة الشرعية لهذا التقسيم فى الوقت الحاضر.

المبحث الأول

الأسس التى وضعها الإسلام لتنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين

بداية الإسلام كانت وحيًا من السماء على محمد ﷺ وهو يفكر فى ملكوت الله فى غار حراء فى القرن السابع الميلادى، كان النبى ﷺ يعيش فى مكة وبدأ يوحى إليه وهو فى الأربعين من عمره، وبدأ الدعوة مع فريق من المقربين إليه عرفوه فصدقوه. كان منهم زوجته، وصديقه أبو بكر، وابن عمه على بن أبى طالب. وكانت جلسات تدارس الدين الجديد سرية وفى دار الأرقم ابن أبى الأرقم فى ضواحى مكة، وأمر النبى ﷺ بالجهر بالدعوة وأن يبلغها للناس، ونفذ الرسول ﷺ أمر ربه وتعرض هو ومن أسلم معه لصنوف من الإيذاء والتعذيب يعجز عنها الوصف، واضطر إلى أن يرسل فريقًا من الذين آمنوا معه إلى الحبشة حيث إن فيها ملكًا "لا يظلم عنده أحد"، كما وصفه الرسول ﷺ، كما اضطر -بعد ثلاثة عشر عامًا من الدعوة- وبناء على أمر إلهى أن يهاجر إلى المدينة، حيث كانت دعوة الإسلام قد لقيت استجابة هناك على يد رسوله إليها مصعب بن عمير.

وهكذا تبلورت العلاقة مع الآخر منذ بداية الدعوة وفقًا لموقف الآخر منها، فلم يكتف زعماء قريش برفض الدعوة، وإنما قاوموها بشدة وتآمروا فى النهاية على الرسول ﷺ لكى يقضوا عليه بتصفيته جسديًا وهى مؤامرة معروفة تتحدث عنها كتب السيرة والتاريخ. والآخر الثانى فى بلد مجاور النجاشى ملك الحبشة الذى لا يظلم عنده أحد، لذا اتخذ الرسول ﷺ معه موقفًا وديًا حتى بعد أن انتشرت الدعوة وأرسل إليه رسالة لكى يسلم، واستجاب له وأسلم فعلاً. استطاع الرسول ﷺ منذ بداية الدعوة أن يقيم علاقة دولية متميزة مع دولة صديقة، لذا أرسل إليها المسلمين المضطهدين والمعذبين فى مكة، وكان ما حدث أول لجوء دبلوماسى بالمعنى المعروف الآن.

لقد تأكد موقف حماية اللاجئين من قبل النجاشى عندما أرسلت قريش وفدًا بقيادة عمرو بن العاص ليتسلم هؤلاء اللاجئين بدعوى خروجهم عن دين قومهم، فقد استدعى أحد اللاجئين وهو جعفر بن أبى طالب وسأله فيما يقول رسول قومهم فأجابه بكلام يعد إحدى وثائق الإسلام المهمة.(١)

وفى عملية تعد من أهم العمليات التى تمت فى تاريخ البشر، انتقل الرسول ﷺ إلى المدينة، واستقبل فيها استقبالاً طيبًا وقام بنشر دينه وتكوين دولته، ووضع الأسس لإقامة نظام داخلى للمدينة ونظام دولى لها وفقًا لظروف العصر.

لم تكن المدينة مجرد مأوى للرسول يعيش فيها بعيدًا عن الاضطهاد، وإنما بقبول أهلها أصبحت مدينة للدولة والدعوة.

وقدم الرسول ﷺ فى اجتماع عقد بمنزل دمنة بنت الحارث وهى يهودية "العقد الاجتماعى الأول: دستور المدينة" والذى يحدد فيه كل العلاقات داخل المدينة وخارجها، وعلى ذلك فإن شعب المدينة يتكون من المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم ولحق بهم من أهل المدينة أو أهل الصحيفة كما نصت عليه هذه الوثيقة، وهؤلاء منهم الوثنيون ومنهم اليهود أهل الكتاب. وطالما ارتضى الجميع هذه الوثيقة فهى دستور ينظم روابطهم وعقد يقيم تحالفهم وتعاهدهم على بناء هذه الدولة الجديدة.(٢)

---

(١) قال جعفر: "يا أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به.." راجع السيرة النبوية لابن هشام، طبعة دار المعرفة لبنان، القسم الأول صفحة ٣٣٦ وما بعدها.

(٢) راجع مؤلفنا "نظام الحكم فى الدولة الإسلامية"، نشر رابطة الجامعات الإسلامية عام ٢٠٠١ ص١٢ وما بعدها. ويركز البند الأول من هذه الصحيفة على أن المسلمين وغيرهم ممن قبلوا أحكام الصحيفة أمة واحدة من دون الناس وتركز الصحيفة على الجانب الاتفاقى بينهما، وتضع التعهدات على أساس هذا الجانب، لذا اعتبرناهم عقدًا اجتماعيًا حقيقيًا لأن أطرافه كانوا موجودين معًا وفى مكان واحد.[ويهمنا ما ورد فى هذه الصحيفة من أحكام تتصل بالعلاقات الخارجية لهذه الدولة الوليدة. هناك عدو لهذه الدولة هو قريش؛ لأنه هو الذى أعلن=

لذا لا نجد أثرًا لفكرة الحرب فى هذه المرحلة والتى ظهرت فى كتابات الفقهاء فيما بعد.

أما اليهود فقد اعتبروا من شعب الدولة الجديدة ،واعتبرت العلاقة معهم علاقة داخلية تنظمها هذه الوثيقة، وقد أعطتهم كافة الحقوق والحريات، وساوت بينهم وبين أهل الصحيفة من المهاجرين والأنصار، وأعطتهم بوضوح حرية العقيدة ،للمسلمين دينهم ولليهود دينهم، والكل يتعاون فى بناء الدولة، ولليهود أن يقيموا أحلافًا ومواثيق مع غير الأعداء أى مع مختلف القبائل فى الجزيرة العربية وكذلك للمسلمين. وقد استمر اللاجئون المسلمون فى الحبشة ومن ثم عرفت الدولة الإسلامية فى سنواتها الأولى علاقات تحالف مع الحبشة وعلاقات عداء مع قريش وعلاقات محايدة مع سائر الدول والقبائل التى لم تبادرها بعداء فى هذه السنوات الأولى من عمر الدولة.

أعقب ذلك ما يعرف تاريخيًا بالغزوات، وهى معارك خاضتها الدولة الجديدة مع الأعداء أى قريش أساسًا، كما قام الرسول ﷺ بغزوات لتأمين المدينة عندما كانت تصل إليه بوادر للانقضاض عليها مثل غزوة مؤتة التى أظهرت عداء مبكرًا من جانب الروم للدولة الجديدة.

وخلال هذه الغزوات تأكدت العديد من المبادىء والقيم التى استخلصها فقهاء المسلمين من سيرة النبى ﷺ فى الفتوح، فضلاً عن مبادىء أرستها الدولة الجديدة فى التعامل مع غير المسلمين بشكل عام. ويهمنا أن نوجزها فى هذه الورقة، وبداية أقول إن الوحى قد أنزل آيات بينات، توضح أبعاد هذه المبادىء وتعلم المسلمين كيف يتعاملون مع غيرهم، وهو ما نبينه الآن.

= العداء وتآمر ضد النبى ﷺ ليقتله، وحاول بشتى الطرق أن يقضى على الدعوة وعلى الدولة بكل ما يملك، لذلك هو العدو المحارب الذى لم يكن هناك بد من مبادلته عداء بعداء، لذا منع النبى ﷺ التعامل معهم فى نصوص الصحيفة كما منع إجارتهم أو الخروج إليهم إلا بإذن النبى ﷺ، بل سمع بتعقب قوافلهم التى تتجه للتجارة فى الشام ربما يتمكن من رد بعض ما سلبوه من دور وأموال من المسلمين، ومن يتعاهد معهم على حرب المسلمين أو إلحاق الأذى بهم فهو مثلهم ماعدا ذلك فلا عداء معه، ولا يجوز أن يبتدر بحرب، الحرب هنا مقررة للرد على أى إيذاء يلحق بالمسلمين من عدوهم أو من يتحالف معهم].

أولاً: احترام الكرامة الإنسانية

وهو مبدأ رئيسى يجب الاهتمام به لكى يمكن التعامل مع البشر، ويستند إلى أن البشر ينحدرون من شخص واحد هو آدم -عليه السلام-؛ لذا يجب أن يحترم بعضهم بعضًا، لأن كلهم لآدم وآدم من تراب، ومن ثم فهم يشتركون فى أساس الخلق وهذا الاشتراك ينبغى أن يترك أثره على تعاملاتهم مع بعضهم البعض فى السلم والحرب وعلى السواء. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٧٠]. فالتكريم للإنسان بصفته إنسانًا، لذا عندما تنشب حروب بين هؤلاء الذين ينتمون لأصل واحد فيجب احترام هذا الأصل. إن العداء يكون عادة طارئًا وبحكم أن الأعداء مواطنون فقط، أى اعتبارات المصالح والسياسة هى التى توجد هذا العداء، لذا يفرض الميراث الإنسانى المشترك هذا اعتبارات عديدة، فالأصل هو السلم والتعامل الحسن مع بنى آدم، والحرب والعداء أمر طارئ يجب أن ينتهى بعد وقت قصير، والقتال والعداء لا ينبغى أن يتجاوز حدود معينة يجب أن تفرض اعتبارات الإنسانية نفسها عليه. يجب أن يكون فى الحدود التى تعجز الخصم عن القتال ولا تتجاوز ذلك، أى إخراجه من المعركة بأقل الخسائر، فإن جاز القتل فإن التمثيل بالجثة غير جائز، ولا ينبغى الإجهاز على جريح بل يعامل كإنسان، ولا ينبغى استخدام سلاح جائر بسبب الآلام التى لا مبرر لها، كما لا ينبغى تعذيب العدو بإحراقه فلا يحرق بالنار إلا رب النار كما هو مروى عن النبى ﷺ وهكذا.

وفى وقت السلم تحكمنا الآية الكريمة ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:٨].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة:٢]

ثانيا: التعاون على ما يحقق مصالح الإنسانية

والبر هو لون من الفضل والإحسان أعلى من العدل الذى هو أقل ما يجب أن يؤدى لهم؛ لأنهم كفوا عدوانهم على الحق الإلهى وعلى أمته.

أما القسط فهو إقرار للعدل كسمة عظمى يجب أن تسود علاقات المسلمين بغيرهم

وأرى أن التعاون مبدأ مهم فى العلاقات الدولية، ويجب أن يقرره المسلمون أو على ا لأقل أن يقبلوه إذا دعوا إليه. إنه يذكرنا بحلف الفضول الذى ظل الرسول ﷺ مقتنعًا به، وقال عنه: «لو أن لى به حمر النعم ولو دعيت لمثله فى الإسلام لأجبت».

ويذكرنا كذلك بما كان بين قريش ودول الجوار من روابط أقرها الإسلام، فسورة قريش توضح لنا ذلك فى قوله تعالى: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾[قريش:١-٤]. فهى رحلات للتجارة تحقق مصالح الناس، وقد جعل الله هذا التعاون نعمة على البشرية، وأشار إلى الأمن الغذائى والأمن القومى الذى حققته هذه الرحلات.

ثالثا: الوفاء بالعهد

إن الوفاء بالعهد إلزام شرعى فرضه الله على المسلمين، واعتبره سمة مميزة لهم، ففى أكثر من آية نجد هذا الإلزام الشرعى حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾[الإسراء:٣٤]، كما يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام:١٥٢]، كما وصف المؤمنين بعدة صفات منها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[المؤمنون:١٠]، وطلب من المسلمين الوفاء بالعقود والعهود فى أكثر من آية والممارسة بالطبع أهم.

فالرسول ﷺ احترم دائمًا عهوده ومواثيقه، وكان دائمًا يقول: «وفاء بغدر»، وكان القرآن يدفع به إلى ذلك ويقول: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦١-٦٢]. ولم يكن الحبر الذى كتب به صلح الحديبية قد جف بعد عندما فوجىء النبى ﷺ بأبى جندل بن سهيل بن عمرو مفاوضه فى صلح الحديبية يرسف فى أغلاله ويستغيث بالمسلمين أن ينقذوه من قريش بعد أن أسلم، فكان جواب الرسول ﷺ: «يا أبا جندل إنا قد أعطينا القوم ما علمت ،ولا يصلح فى ديننا الغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك، قال: يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟».

رابعًا: تحقيق السلام العالمى

إن هدف جعل السلام القيمة الرئيسية التى تعيش عليها البشرية من الأهداف السامية التى يبتغيها الإسلام. يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[البقرة:٢٠٨]. كما يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[الأنفال:٦٢]، ولذلك جعلت تحية الإسلام، السلام عليكم.

ودلت التجارب على أن الإسلام يزدهر فى السلام، لذا وصف الله -سبحانه وتعالى- صلح الحديبية بالفتح؛ لأنه تحقق به السلام الذى جعل الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا دون خوف أو تعب.

والواقع أن وصايا الرسول ﷺ لقادة الجيوش الإسلامية كانت ترغبهم فى السلام ولا تحبذ الحرب.وقد ورد عنه قوله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية».

وتدل آيات أخرى على هذا المعنى، معنى غياب استخدام القوة فى المجتمع الدولى، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات:٩].

خامسا: تحقيق العدالة فى الأرض

يعتبر تحقيق العدالة إحدى قيم الإسلام الأساسية التى قررها القرآن الكريم وطبقها الرسول ﷺ والخلفاء فى مختلف الأزمنة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠]. وهذه القيمة لابد أن تكون مطلقة، فلا يجوز تقييدها أو تحديدها بأى حق. يقول تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[المائدة:٤]. وورد فى حديث قدسى قوله تعالى: "يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا" (أخرجه مسلم فى صحيحه).

والواقع أن تحقيق العدل يقتضى الكثير مما يجب عمله فى العلاقات الدولية، بحل القضايا الدولية وفقًا لقواعد العدالة، وإنصاف المظلومين، وكف يد الظالمين.

لقد عانت بلادنا كثيرًا من الظلم، وكم من مشكلات دامية فى بلادنا بسبب الظلم، الدماء تسيل فى فلسطين وفى العراق وفى أفغانستان، وكلها بلاد إسلامية ولا ذنب لأهلها إلا أنهم يكافحون من أجل استقلال بلادهم وحماية شعوبهم.

إن انتفاء العدل هو أحد آفات النظام الدولى المعاصر، وهكذا جمعنا بعض المبادىء والقيم التى تحكم سلوك الإسلام فى علاقاته بالدول والشعوب الآخرى، وقد رأينا أنها مبادىء طبقها المسلمون فى مختلف العصور وإن حاد البعض عنها فى بعض الفترات، فإن لهذا ظروفه، ثم إنه لا يحسب على الإسلام فى ذاته، فالدين الإسلامى هو دعوة للمحبة والتسامح والمعاملة الحسنة للغير، وهو ما يجب التمسك به فى كل وقت وحين.

* * *

المبحث الثانى

تقييم التقسيم التقليدى للديار إلى دار إسلام ودار حرب

إن وجود دار حرب بالمفهوم الفقهى الذى ساد يومًا والذى يجعلها تشمل كافة الديار التى لا يسيطر عليها المسلمين أو لا تقام فيها شريعة الله، أو لا يستطيع المسلم أن يقوم بتأدية واجباته الدينية فيها بأمان، أمر لا يتحقق الآن، لأسباب عديدة، فمن ناحية نجد أن سائر الدول تسمح بحرية العقيدة بشكل أو بآخر، وإن قيدتها أحيانًا بمقتضيات حماية النظام العام فيها، فإن ما يتوافر فى أغلبها مع ذلك يزيد عما يتقرر فى العديد من الدول التى تعتبر إسلامية بحسب الأغلبية العظمى فيها أو بمعيار منظمة المؤتمر الإسلامى.

فهناك دول إسلامية تمنع ارتداء الحجاب فى أماكن العمل وفى المدارس، مثل: تونس وتركيا، بينما لا نجد هذه القيود فى الولايات المتحدة الأمريكية أو دول أوروبا.

كذلك هناك ملحوظة مهمة تتمثل فى أن المجتمع الدولى الآن يرتبط جميعه بوثيقة دولية مهمة، وهى ميثاق الأمم المتحدة، وكافة الدول الإسلامية أعضاء فى هذه المنظمة، وتقوم هذه المنظمة على الاقتناع بعدم ضرورة قيام الحرب، وتضع مناهج فى ميثاقها لتحقيق السلم، حيث يعتبر السلم والأمن هو الهدف الرئيسى الذى تسعى هذه المنظمة إلى تحقيقه.

ولا تقبل الدولة فى عضوية المنظمة إلا إذا كتبت تعهدًا بعدم اللجوء إلى القوة أو التهديد بها فى العلاقات الدولية وبأنها دولة محبة للسلام وراغبة فيه.

ولا خلاف فى الفقه التقليدى على أن الدول التى تصالح المسلمين وتسمح بممارسة شعائر الإسلام والدعوة إليه فيها لا تعد بحال دار حرب، وإنما دار عهد أو دار

بممارسة شعائر الإسلام والدعوة إليه فيها لا تعد بحال دار حرب، وإنما دارعهد أو دار صلح.

لقد أصبح مصطلح الحرب مصطلحًا خارج الشرعية القانونية لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولم يعد استخدام القوة جائزًا إلا دفاعًا عن النفس أو إذا استخدم كتدبير للأمن الجماعى، وهو ما يقوم مجلس الأمن بالأمر به وتكتيل الدول لمواجهة خطر أعظم تقوم به دولة عاصية وتخالف به ميثاق الأمم المتحدة، وبتعبير آخر إذا ما أمر المجتمع الدولى ممثلاً فى مجلس الأمن بكبح جماح دولة معتدية تستخدم القوة ضد دولة أخرى فى المجتمع الدولى.

ولا شك أن الإسلام يقر هذا التنظيم الدولى طالما احترم أحكام الميثاق، والتى تتمثل فى حفظ السلم والأمن فى المجتمع الدولى والتى تقرر أن أهداف الميثاق كذلك احترام العدالة وأحكام القانون الدولى والتعهدات الدولية التى تلتزم بها الدول.

ولكن الإسلام يمنع الكيل بمكيالين وتطبيق العدالة فى حالة وإهمالها فى حالة أخرى، وإننى لأنظر إلى مثل هذه المواقف على أنها خروج على أحكام ميثاق الأمم المتحدة، وبالتالى لا ينبغى أن تتخذ على أقرارات سوية يجب احترامها.

إن فقهاء المسلمين عندما قسموا الديار إلى دار إسلام ودار حرب إنما وصفوا الأمر الواقع الذى كان استخدام القوة جائزًا فيه، وكانت الحرب إحدى نتائج سيادة الدول، بل كانت حقًا يقرره القانون الدولى حتى وقت قريب، أما الآن فإن القيمة الرئيسية التى تسيطر على العلاقات الدولية وتحكم سلوك الدول هى قيمة السلام.

ولم يصل المجتمع الدولى إلى هذه النتيجة إلا بعد كفاح مرير وحروب طاحنة أودت بحياة ملايين البشر، وخلّفت جرحى ومرضى وغرقى وضحايا عاديين وملايين أخرى حيث عبرت عن ذلك أول الكلمات التى كتبت فى ميثاق الأمم المتحدة إذ قالت: «نحن شعوب العالم وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الإنسانية من

ويلات الحروب التى جلبت على الإنسانية مرتين خلال جيل واحد أحزانًا يعجز عنها الوصف».

لقد كانت القيمة الأساسية التى تسمح بالعمل فى المجال الدولى ردحًا طويلاً من الزمان هى قيمة الأوروبية المسيحية، وتعدلت لأسباب عديدة، منها سيطرة العلمانية وإبعاد الدين والكنيسة عن العمل الدولى، وكذا دخول دول أخرى غير مسيحية وغير أوروبية مثل اليابان وتركيا إلى تعدل القيمة لتصبح الأمم المتمدينة. ثم لم يعد هناك مفر من السلام بحكم بشاعة الحرب وتحولها سريعًا إلى حرب شاملة تصيب المدنيين قبل العسكريين، وحرب عالمية تصيب العالم كله بأضرار جسيمة حتى ولو جرت فى دائرة محدودة.

نقول: إن السلام لا يمكن أن يقف بعيدًا عن هذا الميدان، ولابد أن ننظر فى أقوال الفقهاء على ضوء هذه التطورات، وبمراعاة الحقائق التالية:

١ - إن الدين الإسلامى هو دين عالمى، رسالة سامية أرسلت لكل البشر، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[سبأ: ٢٨]. وقد أمر الرسول أن يبلغ الدعوة لكل الناس. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]. وقد ترك لنا رسول الله ﷺ هذه المهمة نقوم بها باعتبارنا أمة محمد. يقول الرسول ﷺ: «بلغوا عنى ولو آية» ويقول: «فليبلغ منكم الحاضر الغائب» وسوف نسئل عن هذا العمل.

يقول تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾[النساء: ٤١]. تكفل سبحانه وتعالى بتحقيق نصرة الإسلام وسموه وهيمنته على الدين كله. يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[الصف: ٩].

فهذا الميراث، الدين الخاتم وهذه الرسالة السامية لابد لها من أمة تدعو إليها

وتقوم بتنفيذها فى هذا العالم المضطرب. وقد وصف سبحانه وتعالى أمتنا بالخيرية لهذا التكليف. يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[آل عمران: ١١٠].

إن تبليغ الدعوة وإقناع الناس بها يحتاج إلى جهد كبير، ومن هنا شرع الجهاد. ورغم ما قيل فى معنى الجهاد، وفهمه بطريقة خاطئة أحيانًا من قبل فريق من المسلمين قديمًا وحديثًا، فإننا نختار له هدفًا هو تبليغ الدعوة، أو تحقيق أن تكون كلمة الله هى العليا، ولا نريد أن نقول إن الجهاد توقف ولكنه سنة ماضية إلى يوم القيامة ووسيلة تبليغ الدعوة، ولكنه يحتاج بالضرورة إلى استخدام القوة المسلحة خاصة فى هذا العصر الذى وجدت فيه وسائل أخرى مثل الصحافة والإذاعة والتليفزيون، وأهم منها الإنترنت، ويبدو أنه سيلعب دوراً أهم فى المستقبل؛ لأن شرائح الشباب تقبل عليه، وتنشر فكرها فيه، وتقرأ فكر الآخرين المثبوت فيه، فهو وسيلة فعالة للجهاد فى الوقت الحاضر.

لم يكن الجهاد فى الماضى يستهدف استخدام القوة أو السيف لنشر الدعوة، وما كان لعقيدة أن تنتشر تحت حد السيف، بل العقيدة فكر يريد أن يرسخ فى القلوب والعقول، وليس أداة الإقناع هو السيف، إنما هو أداة للترويع والتخويف يمكن استخدامه عندما يعترض أحد بالقوة طريق الدعوة. وهذه خبرة الإسلام التاريخية.

لقد أرسل الرسول ﷺ إلى الأمم المتحدة الموجودة فى ذلك الوقت يدعوها إلى الإسلام فشرح لقادة الشعوب العقيدة الجديدة، متى؟

بعد أن استتب الإسلام فى الجزيرة العربية، وانتهت الحرب بين الرسول وقريش سنة ست هجرية بعد عملية سلام تحمل الرسول ﷺ عبئًا شديدًا فى إقرارها هى عملية صلح الحديبية، ولقد صبر على مفاوضة العنيد (سهيل بن عمرو) ووافق على الشروط التى فرضها عليه تحت شعار "والله مايدعوننى إلى أمر أحقن فيه دماء

المسلمين إلا أجبتهم" ، واستشهد بحلف الفضول وقال عنه: «.. ولو دعيت لمثله فى الإسلام لأجبت».

لقد كان الرسول ﷺ يتحرق شوقًا إلى إتمام هذا الحلف الذى تناصر فيه كبار أهل مكة على نصرة الضعيف وعلى إعطاء كل ذى حق حقه وعلى إغاثة الملهوف، ذلك كله تم فى إطار اتفاق عام، حلف ناصر فيه القوم الغريب الذى ظلم من أحد كبار القوم فى مكة.

لذا قبل أن يحذف لقبه (نبى الله) وقبل أن يعيد من جاءه من قريش دون إذن وليه، وألا تعيد قريش له من جاءها دون إذنه، بل وقبل أن يرجع وأصحابه من عامهم هذا الذى أتو فيه وأن يعودوا فى العام المقبل ليس معهم إلا السيوف فى جرابها وسيلة للدفاع فقط إذا لزم الأمر. ولكن سيادة مناخ السلام كان ضروريًا لنشر الدعوة وهو ما تحقق بالفعل

فلم يكن يستطيع أن يرسل رسلاً فى مناخ الحرب ولم يكن لأحد أن يسير فى جو عدائى، وهذا درس لنا. فالسلام ضرورى لنشر الفكر ولتبليغ الدعوة، وهكذا نهضت الأمة بقيادة نبيها محمد ﷺ إلى ملوك الأرض وخرج ستة من الصحابة فى سنة واحدة سنة سبع للهجرة وكان الرسول يتكلم بلغة من أرسل إليهم.

فأرسل عمرو بن أمية إلى النجاشى، ودحية بن خليفة الكلبى إلى هرقل، وعبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى، وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى، والسادس هو سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الجفنى فى هجر.

وتتحدث كتب السيرة عن عام الوفود، وهو نفس العام الذى أرسل فيه الرسول ﷺ هذه البعثات، وقد استقبل الرسول ﷺ فى هذا العام ثلاثة وسبعين وفدًا، كما كتب ﷺ خمسة وتسعين كتابًا.

لم يتم ذلك إلا فى عصر السلام، لذا كان الرسول ﷺ نافذ البصيرة عندما قبل

الصلح وأشاع السلام فى الجزيرة العربية، لم لا وقد كان الوحى معه وقد نزلت فى هذه الفترة السورة الكريمة التى سميت بسورة النصر. يقول تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾[النصر:١-٣]. وكانت سورة الفتح قد نزلت فى أثناء صلح الحديبية وأكدت بدورها أن الصلح والسلام نصر مبين للإسلام والمسلمين حيث جاء فى مطلع السورة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾[الفتح:١-٣].

إننا اليوم فى عصر مماثل لعصر السلام الذى تحقق بعد صلح الحديبية، وهو ما يوجب علينا أن ننتهز الفرصة لتبليغ كلمة الله لكل الناس، مع استغلال كافة الوسائل التى يتيحها لنا العلم الحديث كما أسلفنا، وهو ما يعنيه الجهاد فى العصر الحاضر.

أما محاولات استخدام القوة ضد الإسلام والمسلمين تحت دعاوى صراع الحضارات وضرورة رضوخنا لمقولات العولمة، فإننا نقاومها فى الحدود المشروعة شرعًا وقانونًا، فالقانون الدولى يعطى للشعوب والدول التى يعتدى عليها بالقوة الحق فى أن ترد الاعتداء، كما يمنح القانون الدولى حقًا مشروعًا للكفاح لتحرير الأراضى ويعطى لمنظمات المقاومة حق الرد على العدوان بشروط معروفة لحمل السلاح، ومنها أن تعمل تحت تنظيم له شارة، وتحمل السلاح علانية ،وتلتزم بقانون وأعراف الحرب للتفاهم مع الآخر بشرط احترام فكرنا وعقائدنا وعدم التفريط فى ثوابتنا.

وديننا يشرح الحوار مع الدول الأخرى فى سبيل إصلاح المنظمة الدولية وجعلها تتوخى العدالة والإنصاف والبعد عن هيمنة قطب واحد على مقدراتها.

إن المسلمين الآن عددهم كبير يزيد عن المليار نسمة، ويتواجدون فى كافة أنحاء العالم، ولا شك أنه يمكنهم أن يقوموا كل فى مكانه بجهد فى التأثير ونشر الدعوة إلى الإسلام. هم يحتاجون إلى تربية نوعية، وإلى ما يحقق قدراتهم وهو واجب يجب أن

تقوم به الدول الإسلامية مع توحيد جهودها فى هذا المجال، لكن يجب أن توضع أهداف عليا للعمل الإسلامى فى كافة أنحاء العالم. يجب القضاء على الفرقة والتشرذم والخلافات فى القضايا الرئيسية، ويجب أن تقوم بينهم علاقات قوية، ويجب أن يسود بينهم مفهوم الجهاد السلمى الذى يعنى بذل الجهد لسيادة السلام والمحبة بين الشعوب، وتأكيد الحقوق والحريات الأساسية وهو ما يعنى فى النهاية أن تكون كلمة الله هى العليا ويجب إسقاط كافة دعاوى استخدام القوة لتحقيق أى هدف آخر.

إن الحرب لا يمكن أن تسود علاقة دولة إسلامية بأية دولة أخرى إلا إذا أعلنت الدولة الأخرى عليها الحرب أو ابتدرتها بأعمال عدائية، فيكون للدولة الإسلامية فقط أن ترد عليها بالمثل وفى حدود ما تقرره الشريعة من عدم تجاوز حدود العدوان ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾[البقرة: ١٩٠].

إن ما يضعه القانون الدولى المعاصر من قاعدة ملزمة تقضى بمنع استخدام القوة أو استخدامها فعلاً يتفق مع الشريعة الإسلامية تمامًا وهو بدوره ينقض دعوى تقسيم العالم إلى دار سلام ودار حرب.

إن القانون الدولى التقليدى كان يستهدف إبعاد الدول عن بعضها البعض حتى لا تتقاتل، أما القانون الدولى الحديث فهو يبحث فى كيفية تقريب الدول من بعضها البعض حتى نتعاون، وبدلاً من التركيز على تنظيم علاقات الحرب والحياد، أصبح التركيز يتم على ما يعرف بقانون التعاون، وهو قانون ينظم المصالح بين الدول وكيف يمكن تقويتها، أما الجزء الرئيسى من هذا القانون فإنه يرتبط بالتنظيم الدولى، ذلك التنظيم الذى يبحث فى تقوية التعاون الاقتصادى بين الدول، وبالتالى فإن المنظمات الاقتصادية والمالية هى الأدوات الرئيسية له. إن البنك الدولى للإنشاء والتعمير قاد مسيرة دول أوروبا نحو تعمير ما خربته الحرب العالمية الثانية، ونفذ العديد من البرامج لتنمية الدول النامية ولايزال يقدم العديد من مشروعات التنمية فى العديد من الدول، وهو عادة لا يكتفى بتقديم القروض والمنح، بل يقدم العديد من المساعدات التقنية، ويساعد على المبادأة فى تنفيذ المشروعات الاقتصادية.

ويهتم صندوق النقد الدولى بعملات الدول، ويعمل على تثبيت قيمتها، وينظم سعر الصرف والعمل على منع انهيار العملات، ويحتفظ بسلة من العملات لاستخدامها عند اللزوم، لدعم الاختلالات النقدية للعملات وتقديم القروض للدول لتثبيت عملاتها.

وانفتحت منظمة التجارة العالمية مؤخرًا لتساعد على نمو التجارة الدولية، ورفع الحواجز القائمة بين الدول بشأنها.

وتوجد منظمات أخر تضع أسس التعاون الدولى فى مجال الصحة، والعمل، والسكان، والعلوم والثقافة، ونقل التكنولوجيا... إلخ.

وبعد.. فإن العلاقات الدولية فى عالمنا اليوم يسودها التوتر والمشكلات لأسباب عديدة، أهمها تسلط الحياة المادية التى ابتدعها الغرب لظروف خاصة به، وأبعد بها الدين من مجريات الحياة، ومنها رغبة الغرب والقوى العظمى -وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية - فى الهيمنة على مقدرات الشعوب واستغلال مواردها الطبيعية، والتى تمتلك الدول الإسلامية فائضًا لا بأس به منها.

ومن ناحية أخرى فإن الدول الإسلامية يجمعها أن الدين الأغلب بين شعوبها هو الدين الإسلامى، بينما لا يُفَعَّل الإسلام فى واقعها ولا فى علاقاتها الدولية، وهى فى حاجة ماسة فى الظروف الحالية إلى هذا التفعيل.

إن إرادة التوحد يجب أن تسود علاقات الدول الإسلامية، وسوف تدفعها دفعًا إلى رعاية مصالحها والحرص على وحدة الرأى والقرار بينها وإن كانت الوحدة السياسية الآن صعبة.

إننا نحتاج إلى التعاون مع العالم فى إطار ميثاق الأمم المتحدة؛ لأنه يضع مناهج مناسبة لتحقيق السلام فى العالم وكبح جماح المعتدين، والعلم المشترك للتنمية الاقتصادية والاجتماعية بين الشعوب بدون تمييز بينها بحسب الجنس واللون أو الدين، ولكننا نحتاج إلى العمل مع محبى السلام فى العالم لإصلاح المنظمة وتخليصها من العيوب التى تشوب الميثاق، مثل تمتع الدول الخمس الكبرى وحدها

بحق التمثيل الدائم فى مجلس الأمن، وحق الاعتراض على أى قرار يصدر منه، فيكون كأن لم يكن.

نحتاج إذن إلى بناء علاقات قوية بين الدول الإسلامية، لتوحيد قرارها والاتفاق على القضايا الكبرى وتفعيل المصالح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ونحتاج كذلك إلى إصلاح علاقاتنا بالمجتمع الدولى لنحق الحق ونبطل الباطل. وأن نبدو كما أراد الله لنا أمة قوية واحدة تخدم الإنسانية.

نحتاج إلى إعلاء صرح الإيمان بالله وإلى التمسك بحبله المتين لكى تسود روح الود علاقات الدول والشعوب فى الزمن المقبل، وهذه هى مهمتنا فى الحياة وما يريده الله منا فيها.

لقد علمنا رسول الله ﷺ أن نتعاون مع غيرنا، وأن نحترم تعهداتنا، وأن نحقق العدالة والمساواة بين الناس، وأن نمنع أى تمييز بينهم بسبب اللون أو الجنس أو الدين. كما علمنا الله -تعالى- أن نحق الحق وأن نبطل الباطل، وأن نميز بين ما أحله الله وما حرمه.

علمنا صيانة الأعراض واحترام حقوق الإنسان، وعلى رأسها حقه فى الحياة، وحقه فى التعبير عن رأيه، وأن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وهذا هو جوهر رسالة السماء منذ خلق الأرض ومن عليها، ونحن مستخلفون فى الأرض لتحقيقها، ومطالبون بأن نحقق الخيرية فى هذه الحياة المضطربة.

وقد تحدثت عن مناهج العمل فى تحقيق السلام والأمن فى العالم وهى رؤية أرجو أن تكون صادقة ومعبرة عما نحتاج إليه ويحتاج إليه زماننا.

* * *

الفصل الثانى
تأصيل العلاقة بين الناس فى الإسلام

المبحث الأول: التفاهم بين أهل الأديان.

المبحث الثانى: الغرب فى التصور الإسلامى.



المبحث الأول

التفاهم بين أهل الأديان

الإنسان فى التصور الإسلامى، قمة الكائنات الحية، التى تعيش على وجه البسيطة، وأفضلها وأكرمها. لما أودعه الله فيه من مزايا، وميزه من صفات.

والإسلام يريد أن يعيش الإنسان فى جو الاطمئنان، والاستمتاع بالحياة الإنسانية استمتاعاً يرفع الإنسانية، فوق مستوى الاحتكاك، والصراع، والشك.

وإن المؤمن فى نظر الإسلام هو المحسن، والمحسن هو صاحب الوجدان الرفيع، وهو صاحب الإنسانية فى سلوكه مع نفسه، ومع غيره.

قال الله تعالى فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[النساء:١]. فالله سبحانه وتعالى أوجد الإنسانية من نفس واحدة وأنشأ من هذه النفس زوجها، ومنهما نشر فى الوجود

رجالاً كثيراً ونساءً فالإنسانية تنتهى إلى تلك النفس الواحدة[١].

وقد أوضح هذا بقوله فى آية أخرى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم:٢١]، وقوله تعالى فى الآية السابقة ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾[النساء:١] أى نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها، بطريق التوالد، والتناسل، رجالاً كثيراً ونساءً .. وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[الأنعام:٩٨].

(١) انظر: د. أحمد السايح، الفضيلة والفضائل فى الإسلام، ص ٧٤، ط: مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ١٩٩٨م.

فالله هو الذى أنشأ الإنسانية، من نفس واحدة، وهى الإنسان الأول، الذى تسلسل منه سائر الناس، بالتوالد .. وهو آدم عليه السلام. وفى إنشاء جميع الناس من نفس واحدة، آيات بينات، على قدرة الله وعلمه، وحكمته، ووحدانيته. وفى التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته، وإرشاد إلى ما يجب التعاون، والتعارف، بين البشر، وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل مدعاة إلى العمل الجاد، والتعاون الصادق .. لا إلى التعادى والتقاتل، وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس[1].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣]. فالله خلق الناس متساوين من أصل واحد هو آدم وحواء، وصيرهم بالتكاثر جموعاً عظيمة، وقبائل متعددة ليتم التعاون والتعارف، وإن تباعدت ديارهم وأوطانهم، وتباينت عاداتهم، واختلفت لغاتهم وأجناسهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[الروم:٢٢].

وللناس مع بعضهم روابط وثيقة، وصلات متينة، ومعاملات لا غنى لهم عنها. وليس بميسور لأى إنسان كائناً ما كان. أن يعيش منعزلاً، ولو كان شجاعاً هماماً، وبطلاً صنديداً. والطبيعة البشرية تحتم على الإنسان أن يندمج بالناس ويختلط بهم، ويستعين بذوى الخبرة منهم، وأن يسترشد بنصح الناصحين، وتوجيه النابهين.

وإذا كان من الضرورة الإنسانية فى الإسلام أن لا حياة للأجسام إلا بالأرواح، فكذلك الأعمال على اختلاف أنواعها لا حياة لها إلا بالثقة المتبادلة التى يجتنى من ورائها الاطمئنان والنجاح. فبالثقة تنتظم الأمور، وتنجز الشئون، وتستقيم الأعمال، وتؤدى المصالح على أحسن حال. والثقة لا تتحقق إلا إذا أدى كل إنسان ما عهد إليه وما ألزم به نفسه.

---

(١) المصدر السابق، ص ٩ .

فبالثقـة وحدها يسعد الناس، ويصلون إلى الفوز والفلاح، والتـعاون المثمر، وإذا انعدمت الثقـة ذهب الاطمئنان، وأصبح كل إنسان يخاف الآخـر، ولا يطمئن إليه فى أمـر من الأمـور، ولن تكون الثـقـة إلا عن أمـانة ووفـاء. فليس من الإيمـان أن يؤتمن الإنسان على مال فيجحده، أو على عرض فـيهتكه، أو على سر فيذيعه، أو على عمل فيهمله، أو على نصرة صديق فيخذله[١].

وقد لا يخفى على باحث. أن انبعاث رسول الله ﷺ كان منعطفاً تاريخياً فى حياة الناس جميعاً، وتحـولاً حضارياً متميزاً فى نهج حياتهم وتـعاملهم. تحول الخطاب فيه من قومية الأديان، ومحدودية مقاصدها، إلى عالمية الإسلام، وشمولية دعوته، وتكامل مقـاصده، ومن عـزلة المجتـمعـات البشـرية وتضادهـا وتصارعـها إلى وحـدة الأسرة البشرية، وتعاون مجتمعـهاً. حيث سمع الناس لأول مرة فى تاريخهم الإنسانى. فكرة المجتمع الإنسانى الواحد.

كما سمع الناس أيضاً ـ لأول مرة ـ فكرة التـعايش السلمى بينهم من غير تمايز. وكان النبى ﷺ يعمل على نشر الإخاء الإنسانى الذى يتجاوز المسلمين إلى غير المسلمين.

روى الطبرانـى أن نبى الله ﷺ، خطب الناس بمنى فى وسط أيام التشـريق، وهو على بعير.. فـقال ﷺ : «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحـد، ألا لا فضل لعربى على عجـمى، ولا لعجمى على عربى ولا لأسـود على أحمر، ولا لأحمـر على أسود، إلا بالتقوى. ألا هل بلغت ؟ قالوا: نعم.. قال: فليبلغ الشاهد الغائب»[١].

وعن أبى مـوسى الأشـعـرى قـال: قـال رسـول الله ﷺ :" إن اللـه لا ينظر إلى أحسـابكم، ولا إلى أنسابكم، ولا إلى أجسامكـم، ولا إلى أموالكم.. ولكن ينظر إلى قلوبكم فـمن كـان لـه قلب صـالح تحنن الله عليـه، وإنما أنتـم بنو آدم وأحـبكم إليـه أتقاكم"[٢].

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٧، ٤٨ .

(٢) التاج الجامع للأصول، جـ ١، ص ٦١ .

(٣) المصدر السابق.

فاهتمام الإسلام بالناس. فيه ترسيخ معنى الإنسانية العام، فى نفس المسلم الذى يقرأ القرآن، ويستمع إليه، ويعمل به. كما أن هذا كله.. يبين وحدة الجنس البشرى.

والقرآن الكريم.. لا يخاطب العرب فقط، ولا قومية معينة، ولا شعباً معيناً بل يخاطب الإنسان بوجه عام. فالإسلام الحنيف جاء ليقيم بين البشر جميعاً، رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر بالله الخالق، عز وجل.

ومن هذا نعرف: أن الإسلام، يلائم الفطرة التى فطر الله الناس عليها.. فهو يؤكد فى وضوح: أن الدين الإسلامى، قد نظر نظرة فاحصة، دقيقة للإنسان فى ذاته، وتركيب كيانه النفسى والخلقى، والاجتماعى.

فالحياة فى الإسلام.. تخضع لنظام دقيق. لا يسمح لجانب منها، أن ينمو على حساب جانب آخر.. وإنما تتوازن جوانب الحياة كلها، على نسق فريد، جاء به الإسلام. وأما الأحياء من بنى البشر، فإن الإسلام نظر إليهم نظرة العارف بأسرارهم، وما يصلحهم.

واعترف الإسلام: بأن للإنسان مطالب، لروحه، وعقله، وبدنه.. ونظمها بحيث تحقق له أفضل ألوان الحياة.

الإنسان فى داخل نفسه، ومع حاجاته الذاتية والروحية والعقلية والبدنية.

والإنسان فى أسرته.. تلك المملكة الصغيرة، التى يصلح المجتمع العالمى كله بصلاحها، وينهار ويتهاوى على ساكنيه بفسادها، أو جنوحها.

والإنسان مع المجتمع الكبير.. والإنسان مع الكون كله.. الإنسان فى كل هذه المجالات موضع اهتمام الإسلام.. ومن أجله شرع تلك النظم الخالدة الصالحة، لكل زمان ومكان، والمحققة للسعادة فى الدنيا والآخرة.

الإنسان فى حد ذاته نفسه.. العالم المترامى، الملئ بالرغائب والحاجات التى يسعى عمره لتحقيقها.. وتلك الجوارح من سمع، وبصر. وفؤاد وأيد، وأرجل. يسخرها

الإنسان لإشباع حاجاته الروحية، والعقلية والبدنية. والشخصية الإنسانية فى الإسلام حقيقة حية.. والأسرة الاجتماعية فى الإسلام، حقيقة حية.

والإسلام لا يهدم شيئاً من كيان الاجتماع الذى استفادة بنو الإنسان، من أطوار حياتهم الاجتماعية فى الحقب الطوال . . لأن المفهوم من سير الهداية الإلهية، كما يسردها القرآن الكريم: إن حياة النوع الإنسانى تاريخ متصل، يتم بعضه بعضاً، وتنتهى إلى التعارف بين الشعوب والقبائل، فى أخوة عامة، لا فضل فيها لقوم على غيرهم إلا بالعمل الصالح . . ولهذا يحرص الإسلام على كيان الاجتماع فى الشخصية الفردية، وفى الأسرة، وفى الإيمان بوحدة النوع .

وأنت تجد: أن القرآن الكريم يخص من هذا الكون مخلوقاً هو الإنسان فيتحدث عنه مرات كثيرة، بل يخصه بالمخاطبة، لأنه هو المقصود، ولكنه فى الوقت نفسه يشعره بموقفه من هذا الكون.

فالإنسان أولاً: نوع من أنواع أخرى فى هذا الكون، يشترك معها فى أمور، ثم يتميز عنها، فهو مخلوق من تراب فى الأصل. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[آل عمران:٥٩].

وقال تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾[الكهف:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾[الحج:٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾[الروم:٢٠].

ويقول بهذه المناسبة (ألكسيس كاريل) فى كتابه "الإنسان ذلك المجهول" بعد أن بين المقابلة بين المواد الكيماوية والتى يتركب منها الجسم البشرى، والتى يتكون منها. ومنها التراب بمختلف أنواعه يقول: إن الإنسان مخلوق من تراب بالمعنى الحقيقى الحرفى لهذه الكلمة وقد جاء فى الآية قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[نوح:١٧].

والإنسان ثانياً: نوع من أنواع الحيوانات يدخل فى تصنيفها ويشترك معها فى أمور قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾[النور:٤٥].

وقال تعالى: (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾[السجدة:٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨].

والإنسان ثالثاً: نوع متميز عن الحيوان كما يبدو فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾[المؤمنون:١٤]. وذلك من جهة خلقه وتكوينه الجسمى. كما تشير الآيات أكثر من مرة إلى تسويته ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾[السجدة:٩].

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾[الحجر:٢٩]. ﴿فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾[الانفطار:٧].

وإلى جعله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين:٤].

وتميزه كذلك من جهة العقل والعلم الناميين بسبب الحواس. كما تشير إلى ذلك الآية: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:٧٨].

وكما تشير الآية الأخرى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:٧٨].

وهو علم يستطيع أن يعبر عنه: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق:٥].

بل هو علم قابل دائماً للنمو والزيادة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه:١١٣].

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾[فصلت:٥٣].

والإنسان رابعاً: يتميز بجانب روحى، أشارت إليه آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾[الحجر:٢٩].

وهو الجانب الذى رفع مرتبة الإنسان وجعله فى مقام من التكريم فأسجد الله له الملائكة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء:٧٠]. وعلى تنمية هذا العنصر من الإنسان بنى الحافظ والمحدث الحكيم الترمذى، وغيره من علماء السلوك نظريتهم فى ترقية الإنسان فى مدارج الرقى الروحى نحو الله[1].

وفى القرآن بعد هذا آيات كثيرة، فى ذكر نفسية الإنسان، وما يميل إليه من زينة الدنيا وشهواتها، وما يضطرب فيها، من مختلف المشاعر والعواطف، وما فيه من الصراع الدائم الذى ابتدأ منذ قصة آدم ولا ينتهى إلا بانتهاء قصة الإنسان كلها على هذه الأرض.

وفيه آيات أخرى لتوجيه الإنسان فى هذه الميول والمشاعر، وفى ذلك الصارع المحتم[1].

والإنسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول، بين جميع ما خلق الله.. يدين بعقله، فيما رأى وسمع.. ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، مما لا تدركه الأبصار والأسماع. والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة، لها نسب واحد، وإله واحد، أفضلها من عمل حسناً. واتقى سيئاً. والإنسان مسئول عن عمله، ولا يؤخذ فرد بوزر فرد، ولا أمة بوزر أمة.

قال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور:٢١].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة:١٤١].

أما مناط المسئولية فى القرآن.. فهو جـامع لكل ركن من أركانها. يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى، أو التشريع فى الموضوع.

فالإسـلام الحنيف ينظر إلى الإنسـان نظرة تضعه فوق مستوى الكائنات الحية جميعاً، فى هذا الكوكب الذى أقامه الله تعالى فيه؛ ليكون خليفة فى الأرض.

وقد استعمل القرآن الكريم لفظ الإنسان فى كثير من الآيات فقال تعالى: (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾[الحجر:٢٦].

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾[السجدة:٧].

﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾[الإسراء:١١].

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم:٣٥].

﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[الكهف:٥٤].

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾[العلق:٦-٧].

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾[الانفطار:٦].

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾[الانشقاق:٦].

وكلمة الناس الدالة على الجنس البشرى، يتكرر استعمالها فى آيات متعددة.. وكثير منها ورد خطاباً للبشر عموماً.. كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[الحجرات:١٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً﴾[البقرة:١٦٨].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾[يونس:٢٣].

(١) انظر: أحمد السايح، السلوك عند الحكيم الترمذى، ص٨٠، ط دار السلام، القاهرة.

(٢) انظر: محمد المبارك، العقيدة فى القرآن، ص ١٨ .

وورد فى معرض الحض على تقديم الخير للناس:

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[البقرة:٨٣].

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[آل عمران:١٣٤].

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾[الأعراف:٨٥].

﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء:١١٤].

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ﴾[النساء:٥٨].

وكلمة الناس استعملت فى القرآن الكريم، بمعنى الجنس البشرى عموماً. لا بمعنى المسلمين أو العرب . . بدليل قوله تعالى فى الآيات التالية مما لا يمكن حمله إلا على الناس عموماً :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾[البقرة:٢٤٣].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾[البقرة:١٨٩].

﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[آل عمران:١٤٠].

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾[آل عمران:١٤].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨].

فالقرآن الكريم لا يخاطب قومية معينة، ولا شعباً معيناً.. بل يخاطب الإنسان بوجه عام.. ويتحدث عن الأمم (: كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم ( ]سورة الرعد آية: ٣٠ [واستعمل القرآن كذلك كلمة البشر، للدلالة على الجنس الإنسانى الواحد وقد استعملت هذه الكلمة، فى أكثر من موضع، كقوله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً ﴾[الحج:٢٨].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾[الفرقان:٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[الروم:٢٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[إبراهيم:١١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[الكهف:١١٠].

وقوله تعالى: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾[الأنبياء:٣٤].

والآية القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[الحجرات:١٣]. تشير بوضوح إلى أن كلمة الناس.. تشمل:

أولاً: الذكور والإناث.. فهما جنس واحد. كما أشار إلى ذلك فى آيات أخرى. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾[الروم:٢١].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[الأعراف:١٨٩].

ثانياً: تشير الآية بوضوح إلى أن البشرية تتألف من مجتمعات قبلية وشعوب أو أقوام. وكلمة الناس تعبر عن الجنس العام الذى يشملهم جميعاً.

وأخيراً : فإن الآية تشير إلى اتجاه تطور البشرية، أسراً وقبائل وشعوباً فى اتجاه التعارف وهو المعرفة المتبادلة من جميع الأطراف.. وهو الشرط الأساس لتحقيق التعاون الذى أوصى به القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[المائدة:٢].

إن الإسلام جاء كما يفهم من النصوص القرآنية، ليقيم بين البشر جميعاً رابطة الإنسانية، القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق جل وعلا.. فهم جميعاً عباد الله..

والرسول الذى أمر بتبليغ الإسلام.. خوطب فى القرآن الكريم على هذا الأساس :﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[الأعراف:١٥٨].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[سبأ:٢٨].

﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[الفرقان:١].

إن هذا الاتجاه الإنسانى.. ظاهر فى تعاليم الإسلام، وتوجيهاته، والقرآن يصرح بأن الإنسان هو خليفة فى الأرض.

والقرآن حين يتحدث عن الإنسان.. فإنه يتحدث عن الإنسان حديثاً يملأ الصدر بدفء الأمل، وسعة الرجاء، ويفتح عليه صفحات مشرقة للوجود، تغرى الإنسان بالوقوف عند كل موجود(١).

فأنت ترى: أن النصوص القرآنية تتحدث عن الإنسان، وتارة أخرى عن بنى آدم، ومرات أخرى تتحدث عن الناس، وهذا لا تخفى دلالته على أى عقل مدرك للغة الخطاب فى القرآن الكريم التى تستخدم موازين للتعبير غاية فى الدقة، فتبين متى يكون الخطاب للإنسان والناس عامة(٢).

وبعد كل هذا نستطيع أن نوضح: أن الإسلام يتسم بالفردية، على أساس أن الدين مسألة تخص الفرد من حيث هو ـ أى الدين ـ علاقة بين الإنسان وخالقه بكل ما تقتضيه هذه العلاقة من طاعة وخشوع وتأمل ؛ وأنه فى الآن نفسه يتميز بالجماعية لارتباطه بتكوين مجتمع . شرع له قوانين وأحكاماً ومبادئ . تضبط مختلف شئونه.

الإسلام بهذا دين يتجه للفرد والجماعة، بل هو ينطلق من الفرد ليصل إلى الجماعة؛ وينظر إلى الفردية فى مدلولها الفلسفى والنفسى الذى هو رديف الشخصية، وكذا فى بعدها الاجتماعى الذى يجعلها حالة الفرد بصفته وحدة ضمن الوحدات المكونة للمجتمع ، وتبعدها عن كل مدلول سلوكى يكون به الفرد أنانياً منعزلاً عن الآخرين لا يرى إلا نفسه ويعتبرها الغاية التى بها يلغى الآخر.

---

(١) الفضيلة والفضائل فى الإسلام، مرجع سابق ص ٥٠ .

(٢) الأستاذ / فهمى هويدى، مواطنون لا ذميون، ص ٨١، ط: دار الشروق، ١٩٨٥م.

ومن ثم عنى الإسلام بالفرد عناية فائقة تتمثل فى عدة مجالات أبرها ثلاثة:

أولاً: تمتعيه بحقوق، بها يعيش إنسانيته فى حرية وعزة وكرامة ومساواة مع الآخرين.

ثانياً: تكليفه بواجبات هى التى تحدد دوره، وتجعل منه شخصاً مسئولاً فى المجتمع ينهض بمهمات تخول له مكانة وأهمية، وقبل ذلك تجعله يقدم منافع فى هذا المجتمع.

ثالثاً: إعداده إعداداً صالحاً . لكى يكون قادراً على الاستفادة من حقوقه والقيام بواجباته، وهو مجال يتحقق بالتربية السوية المتكاملة . التى تراعى العنصرين المكونين لفردية الإنسان. وهما : جسده وروحه.

وبناء على هذه العناية بالفرد تتم العناية بالجماعة كذلك ، لأن كل ما يخصه يفضى فى النهاية إليها إيجابياً وسلباً، إذ المجتمع فى آخر المطاف هو هذا الفرد الذى يشكل الأساس واللبنة الأولى والنواة التى تعطى الثمار.ومن هنا كان إعداد الأفراد على النهج القويم تهيئاً لمجتمع سليم صحيح؛ لأن نطاقهم يتسع شيئاً فشيئاً فى خلايا وأسر . تكبر بالتدريج، وتنمو إلى أن يتم الوصول إلى هذا المجتمع[1].

والإنسان هو المنطلق فى هذه الرابطة الإنسانية، باعتباره مجموعة من القدرات والطاقات هى التى تشكل ملامح بشريته، وتثبت فيه الإحساس بالوجود فى ذاته ومع الآخرين، وتمنحه إمكانية العمل والإنتاج ووسائل الفعالية والتأثير. ولاشك أن من بين تلك الطاقات- وربما من أهمها- ما هو كامن فى غريزة الإنسان من حيث هو مخلوق ينتمى إلى أرض محددة يتحرك فيها بوعى منه أو لاوعى، ويحاول انطلاقاً منها أن يحافظ على ذاته وينمى هذه الذات.

---

(١) انظر : الدكتور عباس الجرارى ، مفهوم التعايش فى الإسلام ، ص٢٨، مجلة الإسلام اليوم، العدد ١٤ ، المغرب، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.

وإذا كانت الطبيعة الفطرية تمكن للإنسان فى الأرض التى يعيش عليها ببعد أفقى. فإن العنصر الروحى يتدخل ليرتفع بالإنسان عن طريق العقيدة والدين، ويعطيه بعداً سماوياً يتيح له التوازن اللازم للحياة الإنسانية، بكل ما تقضى من قيم وأخلاق فردية وجماعية، وما تتطلب من سلوك يحفظ علاقة الفرد بالكون وخالقه.

ومع الغريزة والروح، يتدخل العقل ليعمل فى الوعى، والإحساس، والإدارة والفكر، فيوجه، ويخطط، وينفذ، ويضبط حركية الإنسان، وهذا ما يعطى المواطنة مفهومها الصحيح، أى كما يجب أن تكون فى ذهن المسلمين وغيرهم ممن يعيشون فى المجتمع الإسلامى.

ويتبلور المفهوم فى الولاء لهذه الدولة، أو تلك بكل ما تجسده من أرض وعقيدة وتاريخ وحضارة وثقافة وواقع ومصير، أى بمجموعة من المبادئ والمقومات يؤمن بها الجميع ويتشربها فى عقله وروحه ووجدانه، فتغدو المحرك الذى يحث على المقاومة والنضال وعلى السعى لتنمية المجتمع فى خط التطور والتقدم[1].

الإنسان المسلم قد تعلم من الإسلام. انه لا يعيش وحده فى هذه الحياة. وإنما يعيش معه أناس آخرون، وأمم مختلفة المذاهب والعقائد.

والإنسان المتحضر، لابد وأن يكون على اتصال، بالأمم والشعوب ـ أيا كان هذا الاتصال ـ ومن الضرورى للإنسان المتحضر أن يكون على ثقافة بأديان الأمم.

وقد فطن إلى هذا علماء الأمة الإسلامية انطلاقاً من دعوة الإسلام، التى تدعو المسلمين إلى أن يتعرفوا على الناس، ويقيموا معهم أواصر الصداقة، وعرى المحبة، والتعاون، وتبادل المنافع، وما يفيد الإنسان فى الأرض..

ومن شأن المسلمين، أن يتابعوا الخطى، فيما كان عليه السلف الصالح، فى غير تعصب جاهلى، أو شكلية ممجوجة، وبهذا يمضى المسلمون فى الطريق، الذى وضحت معالمه، وهم على بينة من أمرهم.

---

(١) الدكتور عباس الجرارى، الإسلام اليوم ١٤٤، ص ٣٦ .

ولقد قدم القرآن الكريم الدرس المنهجى الموضوعى الأول، فى مجال العلاقة بالأديان. ولقد حفل القرآن الكريم بالحديث المفصل، المستوعب عن الأديان، والعقائد، والملل والنحل، والمذاهب المختلفة المتنوعة، وعرض مقالاتهم بدقة، واستقصاء(1).

وتجد ذلك واضحاً فى حديث القرآن الكريم، عن اليهود والنصارى حيث فصل القرآن مقالاتهم، واعتقاداتهم، ومذاهبهم. ولم يعرضها متعجلاً، وإنما جاء فيها بفيض غزير زاخر، يتناولها من أقطارها، ويكشف عن خباياها وأبعادها.

وعلى سبيل المثال: فإن الحديث عن بنى إسرائيل، جاء فى القرآن الكريم، من أكثر المسائل نصوصاً بعد العقائد .. تحدث القرآن الكريم، فى المكى منه والمدنى، على سواء، وفى السبع الطوال، وما بعدها، من المثانى والمثين، والمفصل. وتناولهم بالآية المفردة، وبالجملة المتصلة من الآيات(2).

وقد تحدث القرآن عن كثير من الأديان سماوية كانت أو وضعية. فكما تحدث عن اليهود واليهودية، والمسيح والمسيحية، تحدث كذلك عن عبدة الأصنام، والطاغوت، والملائكة. وسماها القرآن أدياناً(3).

قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون:٦].

وفى مجال اعتراف الإسلام بالأديان، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[الحج:١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

---

(١) د. محمد عبد الله الشرقاوى، مقدمة الرد الجميل لإلهية عيسى، المقدمة، ص ١٧، ط: دار الهداية بمصر، ١٤٠٦هـ.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨، وراجع: د. عبد الستار فتح الله سعيد، فى معركة الوجود بين القرآن والتلمود، ص ٦٩، ٧٠. ط: القاهرة.

(٣) د. أحمد شلبى، مقارنة الأديان، (اليهودية)، ص ٢٧، ط: مكتبة النهضة، ١٩٧٨م.

وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة:٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[المائدة:٦٩].

ويقول أبو الحسن العامرى المتوفى سنة ٣٨١ فى كتابه "الإعلام بمناقب الإسلام". إن مدار الدين يكون متعلقاً بالاعتقادات، والعبادات، والمعاملات، والمزاجر؛ فغير بعيد أن يعلم العاقل أدنى الروية. أنه ليس ولا واحد من الأديان الستة التى لها خطط وممالك، وهى المذكورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الحج:١٧]. إلا وله اعتقاد بشىء يجرى سعيه إليه، ومنهج فى العبودية يتحرى بالتزامه: إقامة الطاعة، وأوضاع فى المعاملات ينتظم بها معاشهم، ورسوم فى المزاجر يتحصن بها عن البوائق والأشرار (١).

والإنسان الذى يؤمن برسالة الإسلام، لا يستطيع إلا أن يصدق النبيين والمرسلين الذين صدقهم الإسلام، ودعا إلى الإيمان بهم.

وهذا يشكل حلقة فى وحدة الإيمان التى أكد عليها الإسلام، وتبناها فى جانبه العقدى، وتحدث عنها فى القرآن الكريم.

ووحدة الإيمان هذه حقيقة تفرضها وحدة المصدر، بصورة قاطعة، لا تقبل الرد، أو التشكيك، ولا يغير من واقعها أبداً وجود فواصل البعد الزمنى، بين الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى عباده. وربما يكون لعامل الزمن أثره الواضح فى اختلاف التشريعات. التى يفرض فيها أن تنسجم مع المستوى الفكرى والمعاشى، لمن تكون لهم. ولكن الإيمان واحد فى أساسه(٢).

(١) انظر أبو الحسن العامرى، مناقب الإسلام، ص ١٢٣ .

(٢) د. أحمد السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية، ص ٢٢ .

وهناك آيات فى القرآن تشير فى وضوح إلى حقيقة وحدة الإيمان، وتغيير التشريعات. قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى:١٣].

وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨].

فالآية الأولى: تعنى وحدة الإيمان فى أسسه..

والآية الثانية: تعنى متغيرات الشريعة، وما يعود إلى الأعمال.

والإيمان هنا يعنى العقيدة، ممثلة بالأصول التى يقوم عليها الدين. ولن تجد هذه الأصول فى الإسلام إلا مماثلة لتلك التى قامت عليها جميع الأديان السماوية التى كان عليها الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله لهداية الناس، على اختلاف العصور، وتباعد الأزمنة(١).

- **والأصول التى قامت عليها الأديان السماوية هى:**

أولا: الإيمان بالله تعالى رب العالمين، الذى لا إله إلا هو وحده المعبود لا شريك له، خالق كل ما فى الوجود.

ثانياً: الإيمان بالغيب: اليوم الآخر، البعث، الجزاء، الجنة، النار، الثواب، العقاب، الملائكة.

ثالثاً: الإيمان بالنبيين والمرسلين، وتصديقهم، والأخذ بتعاليمهم، وإرشادهم، والعمل بما أنزل عليهم من وحى الله(٢).

هذه هى أصول الإيمان التى حملها كل نبى بعثه الله تعالى. وقد جمعت هذه الأصول آيات من القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

---

(١) الفضيلة والفضائل فى الإسلام ص ٢٦، ط: الأزهر ١٩٨٤م.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٧ بتصرف.

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٢-٤]، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وجنته، وناره، ولقائه. ويؤمنون بالحياة بعد الموت، والبعث[١].

فالإسلام فى جانبه العقدى. أكد هذه الأسس تأكيداً واضحاً. ولكنه فى الجانب الذى يستتبع الشريعة ـ أى جانب الالتزام والعمل ـ كان الإسلام الفصل الأخير فى تكامل التشريعات.

وإذا أخذنا كلمة "الإسلام" بمعناها القرآنى، نجدها لا تدع مجالاً لهذا السؤال عن العلاقة،بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية. فالإسلام فى لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص. وإنما هو اسم للدين المشترك، الذى هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء[٢].

فالدين منذ القدم هو الإسلام. وسمى الله منذ القدم المسلم مسلماً وهو كل من اعتنق أسس هذه الديانة، ديانة الله، وسار على مضامينها من: إسلام الوجه لله، والانقياد له، والتوكل عليه، وتسليم الأمر لمدبر الأمر، ومصرف الكون.

من هذا يتضح: أن وصف الإسلام، ليس منصباً على كل من آمن بدعوة محمد فى عهد محمد أو من بعده فحسب. بل هو وصف ولقب أطلقه الله، من قبل على من آمن برسوله الذى بعث فى زمنه، وبكل من وحد ربه، وأسلم وجهه، وقلبه وأمره كله لله رب العالمين[٣].

والمسلم فى عرف القرآن هو كل من آمن برسوله الذى جاء إليه، وكل من وحد الله. والمتبع لآى القرآن يجد أن كل شريعة، قامت على توحيد الله. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥].

---

(١) الفضيلة والفضائل فى الإسلام، مرجع سابق ص ٢٧ .

(٢) انظر: الدكتور محمد دراز، الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص ١٧٥ .

(٣) انظر: محمود بن الشريف، الأديان فى القرآن، ص ٣١ .

وكل رسـول أو نـبى بعث إنما دعـا إلـى الله، والى دين الله.. ودين الـله واحـد، حقيقته التوحيد. جوهره الإيمان بالله دون شريك أو نظير[1].

فكلمة الإسلام فى إطار اللفظ تعنى فى الأصل التسليم والخضوع. وفى مفهوم الدين، ومن خلال إطلاقها فيه، يراد منها: التسليم والخضوع لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له. وبهذا المعنى البسيط والتسليم والخضـوع لأمر الله ومشيئته أطلقت على كل من آمن بالله، وسلم الأمر لله، عن أى طريق، وباتبـاع أى رسول ونبى. فأتباع كل الأنبياء الذين بعثهم اللـه تعالى، وكل من يدين الله بأى دين من الأديان السماوية. هم مسلمون بهذا المعنى، ويصح إطلاق الإسلام عليهم..

وفى آيات القـرآن الكريم كـثيـر من الآيات التى تشـيـر إلى ذلك. إذ أن القـرآن الكريم اعتبر كل من آمن بالله تعالى، والتزم بطاعة أنبيائه مسلماً[2].

- يقول نوح لقومه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس:٧٢].

- وإبراهيم يقول: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾[البقرة:١٢٨].

- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٠-١٣١].

- وأبناء يعقـوب يجيـبون أباهم ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٢].

---

(١) راجع: الدكتور محمود بن الشريف، الأديان فى القرآن، ص ٣١ .

(٢) فلسفة الحضارة الإسلامية، مرجع سابق ص ٢٥ .

- وقال موسى: (يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤].، وقال السحرة لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الأعراف:١٢٦].

- وقالت بلقيس ملكة اليمن: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل:٤٤].

- وقال تعالى عن أنبياء بنى إسرائيل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾[المائدة:٤٤].

- وقال تعالى عن يوسف -عليه السلام-: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[يوسف:١٠١].

- والحواريون يقول لعيسى: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[المائدة:١١١].

- أما محمد (خاتم الأنبياء والمرسلين. فقد جاء فى القرآن الكريم عنه: ﴿وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾[الزمر:١٢].

- وتسوق سورة فصلت هذا المبدأ الإسلامى للمسلمين: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت:٣٣].

إذن: لم يكن الإسلام، مقتصراً على فئة، دون فئة من المؤمنين، فكل مسلم بحكم

إيمانه وتسليمه لأمر الله، وخضوعه لمشيئته هو من المؤمنين، فالإسلام -فى هذا الإطار- يتسع ليشمل كل من وضع قدمه، وسار فى مسيرة الإيمان(1).

وبالجملة نرى اسم الإسلام شعاراً عاماً يدور فى القرآن على ألسنة الأنبياء و أتباعهم. منذ أقدم العصور التاريخية، إلى عصر النبوة المحمدية.

ثم نرى القرآن الكريم يجمع هذه القضايا كلها فى قضية واحدة يوجهها إلى قوم محمد ﷺ، ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم ديناً جديداً، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم. ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم، ينظمهم فى سلك واحد، ويجعل منهم جميعاً أمة واحدة، لها إله واحد، كما لها شريعة واحدة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٩٢].

ما هذا الدين المشترك الذى اسمه الإسلام، والذى هو دين كل الأنبياء والمرسلين؟ إن الذى يقرأ القرآن يعرف كنه هذا الدين، إنه هو التوجه إلى الله رب العالمين، فى خضوع خالص، لا يشوبه شرك، وفى إيمان واثق مطمئن، بكل ما جاء من عنده، على أى لسان، وفى أى زمان أو مكان دون تمرد على حكمه، ودون تمييز شخصى، أو طائفى أو عنصرى بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول من رسله يقول القرآن: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة:٥] ويقول:﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٦].

فالإسلام أصبح من بعد، وعندما بعث الله محمداً ﷺ وبلغ رسالة ربه، أصبح مقتصراً على تلك الرسالة وحدها ومختصاً بها.

(١) راجع الدكتور أحمد السايح، فلسفة الحضارة الإسلامية، ص ٢٧ .

والآية الكريمة التى اعتبرت الدين عند الله الإسلام ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[آل عمران:٦٠] لا تعنى إلا مجموعة من المبادئ الإسلامية، وتعاليم الإسلام[١].

وما ذلك إلا لأن معنى التسليم لأمر الله والخضوع لمشيئته، الذى يعنيه الإسلام فى مضمونه البسيط. أصبح له فى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام أسس ثابتة. وهذه التعاليم تمثل المضامين العقدية، وأصول الإيمان، التى أكدها الرسل والأنبياء، وتضيف إليها نظمها التشريعية المتكاملة الشاملة، لمختلف جوانب الحياة.

إذن رسالة الإسلام هى الإسلام، بعد أن كون فى واقعة "وحدة الإيمان" وجاء بالشريعة الدائمة، الصالحة لكل زمان ومكان. قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

• **ومن هنا كان الإسلام يشتمل على:**

١- امتداد زمانى فى المعتقد الدينى، يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها فى إيجاز وإجمال..

٢- شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعاً: سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وعقدية، وتربوية، وفكرية، وأحداث تاريخية.

٣- شمول يضم الأديان كلها. والمسلم مطالب بتصديق الأنبياء جميعاً[٢].

لقد دعا الإسلام المجتمع الإسلامى. إلى أن يكون متسامحاً مع نفسه ومع الآخرين، ومتعايشاً معهم. وله إلى هذه الإرادة دواع وأسباب كثيرة، يمكن إجمالها فى دوافع ثلاثة هى:

أولاً: إن الإسلام فى أساسه يدين التعصب كيفما كان، جنسياً أو دينياً، لقيام هذا

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز، الدين، ص ١٧٦ .
(٢) فلسفة الحضارة الإسلامية، مرجع سابق ص ٢٧، ٢٨، ٢٩ .

التعصب على الهوى وحب الذات وحدها ورفض ما سواها وإلغاء الآخر يضع الإنسان من حيث هو فى مكان التكريم. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء:٧]. إذ إن الله كرم بنى آدم بأن جعلهم فى ذواتهم أعزة غير أذلة، وبأن فضلهم وجعل لهم مكانة متميزة عن غيرهم من المخلوقات، فأتاح لهم قابلية التحضر واكتساب المعارف وتحقيق التطور.

وهذه الكرامة التى اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة: فهى حماية إلهية للإنسان، تنطوى على احترام حريته، وعقله، وفكره، وإرادته. وهذه الكرامة تعنى فى النهاية، الحرية الحقيقية، وهى تلك الحرية الواعية المسؤولة التى تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسؤولية[٢].

ويقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾[الأحزاب:٧٢].

وقد جاء هذا التكريم منذ النشأة الأولى إذ خلقه الله من طين، ثم بث فيه من روحه وأمر الملائكة أن تسجد له تقديراً واحتراما . يقول سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[ص:٧١-٧٢].

ثم لم يلبث أن مكنه من العلم الذى يستطيع به أن يحقق وجوده وحياته فى سياق الوضع الذى أراده الله له، إذ يقول عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ﴾[البقرة:٣١].

ثانياً: أن يدعو إلى التعارف، أى إلى التجمع، والتساكن، وتبادل المنافع، والمصالح وإلى التعايش، فى أخذ وعطاء، وفى تأثر وتأثير دائمين، بعيداً عن أية عصبية جنسية أو عنصرية إقليمية أو نعرة ثقافية. وهو بذلك لا يرى فضلاً لأحد على

الآخر إلا بالتقوى. يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات:١٣].

والتقوى تعنى الحفظ والحصانة والمناعة وطلب الوقاية من كل ما قد يصيب الإنسان من ضرر ومكروه. والتعارف يقتضى القدرة عليه، وأكثر ما تتمثل فيه القدرة هو قبول الاختلاف فى الرأى والمخالفة فى العقيدة.

ثالثاً: أنه ينطلق من أن الاختلاف كامن فى طبيعة الحياة وجبلة الخلق، إذ إن الله تعالى خلق الكون وما فيه ومن فيه على أساس من الاختلاف البارز فى التنوع والتعدد، مما يتجلى فى مختلف الظواهر والمظاهر. يقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[آل عمران:١٩٠]، ويقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[الروم:٢٢].

ويؤكد عز وجل هذه الحقيقة التى لا تبديل فيها فيقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود:١١٨-١١٩]. أى أن سنة الله فى الأرض تقوم على تباين البشر سواء أكان هذا التباين يتعلق بالجنس أم اللغة أم الدين، أم بأى مكون من مكونات الحضارة والثقافة.

والإسلام بذلك يرى الأمر خاضعاً لإرادة الله والسر كامن فيها ويؤكد الله تعالى هذه الإرادة وما يترتب عليها من عدم إكراه الناس على الإيمان فيقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[يونس:٩٩]، وإنها لآية كريمة تدل على أن الله لو شاء لجعل الناس فى مستوى واحد من الفهم والإدراك المفضيين إلى الإيمان.

ولعلنا فى هذا السياق نفهم معنى ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[البقرة:١١٣]. أى لا ينبغى إلزام أحد بالدخول فى الإسلام عن طريق الإرغام والاضطهاد والتخويف وما إلى ذلك؛ لأنه دين يقوم على التفكر والتدبر. علماً بأن الحرية الدينية ـ فى منظور الإسلام ـ تنطلق من أن الدين عقيدة وإيمان، أى شعور ذاتى وداخلى للإنسان، يقوم على الاقتناع وميل النفس واطمئنانها، لأنه استسلام وانقياد لله عز وجل[١].

والذين يعيشون مع المسلمين فى المجتمع الإسلامى من غير المسلمين فقد أظهر لهم الدين من التسامح المفضى إلى التعايش، ليس فقط ما يكفل لهم حرية ممارسة عقائدهم، ولكن كذلك ما يجعلهم مواطنين فى هذا المجتمع مندمجين فيه، موفورى الحرية والكرامة، غير منعزلين ولا مهمشين، وتكفى الإشارة فى هذا الصدد إلى أمور:

الأمر الأول: النهى عن مجادلة المسلمين لغيرهم - ولا سيما أهل الكتاب - إلا بالتى هى أحسن، يقول عز وجل: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦]، وهو موقف دقيق لا شك بحكم دقة المسائل العقدية التى أثيرت ومازالت تثار على مستوى الحوار الإسلامى المسيحى طالما أن الإسلام ـ على نحو ما مر ـ دين يعنى بالفرد والجماعة معاً ويسعى إلى قيام مجتمع متآخ ومتكافل تسوده الحرية والتسامح، ويشعر فيه كل واحد بمسؤولية بنائه والحفاظ عليه.

الأمر الثانى: حرية ممارسة غير المسلمين لعقيدتهم، فى طقوسها وشعائرها ومختلف مراسمها ومظاهرها الاحتفالية، مع الإقرار بأيام العطل والأعياد، والسماح بإقامة أماكن العبادة والسهر عليها بالمحافظة والصيانة والتنظيم وكذا احترام العادات والأعراف.

---

(١) انظر الدكتور محمود حمدى زقزوق، دور الإسلام فى تطور الفكر السياسى، ص ٢٢ .

ويصل حرص الإسلام على حرية العقيدة مع احترام ممارستها وعدم الإجبار على تعطيلها أو تغييرها مهما تكن ظروف الضغط متاحة، إلى حد أنه إذا طلب أحد المشركين من مسلم أن يؤمنه ويحميه، فعليه أن يستجيب له حتى لا يصيبه سوء، إلى أن يصل إلى مكان أمنه، وهو منزله أو مقر قومه. يقول تعالى :﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾[التوبة:٦].

الأمر الثالث: إباحة مصاهرة أهل الكتاب وأكل طعامهم، يقول تعالى ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[المائدة:٥]. والمقصود طعام اليهود والنصارى سواءً ما يذبحونه أو يطبخونه، مما هو فى الأصل غير جائز، لارتباطه بكيفية الذبح وما إليه مما هو مشترط عند المسلمين ؛ ولكن الله رخص لهم فيه بعد أن استقر أمرهم وعايشوا غيرهم، والسر فى هذه الحلية كامن فى احترام الإسلام لأهل الكتاب، باعتبارهم يتبعون ديناً سماوياً تراعى فيه ضوابط النظافة والابتعاد عن غيرها(١).

أما مسألة الزواج وكونه مباحاً للمسلم من الكتابية، فإن وجهة نظر الإسلام فى ذلك ترتكز على التعايش الذى بمقتضاه تبقى الزوجة على دينها لنفسها ؛ فى حين أن الكتابى لا يتزوج بالمسلمة ما لم يعلن إسلامه، لأن المجتمعات تعارفت على نسبة الأولاد لأبيهم، ومخالفة ذلك تسليم بفرض الانتساب إلى غير دين الفطرة على مولود لا إرادة له.

الأمر الرابع: إطلاق الإسلام على مخالفيه الذين يعيشون مع المسلمين فى نفس المجتمع تسمية أهل الكتاب، وهى تسمية تتضمن اعتراف المسلمين بالكتب السماوية والرسل الذين بعثوا بها.

---

(١) انظر : الماوردى ، الأحكام السلطانية، ص ١٦٠-١٦١، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

ويعترف الإسلام بأصحاب الملل والنحل الأخرى، التى كانت معروفة قديماً وهى المجوسية والسامرية والصابئة، فقد روى أن بعض المسلمين ذكروا لعمر ابن الخطاب قوماً يعبدون النار ليسوا يهوداً ولا نصارى، ولا من قوم نزل عليهم كتاب، فأشكل الأمر على عمر، فقال عبد الرحمن بن عوف: "أشهد على رسول الله أنه قال: سنوا بهم سنة أهل الكتاب"(١).

ويبلغ هذا التسامح مداه عند الممارسة والتطبيق على صعيد المجتمع كله انطلاقاً من توجيهات الرسول الأكرم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وفق ما نقرأ فى هذه الأحاديث الشريفة "من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة"(٢). وقوله ﷺ :"من قذف ذمياً حد له يوم القيامة بسياط من نار"(٣). وقوله ﷺ: "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة"(٤). وهى توجيهات نفذها الخلفاء الراشدون، وقواد الفتح الإسلامى فى جميع ما عقدوا من عهود ومواثيق(٥).

وإذا كانت الضرورة فى كل عصر تقتضى تقوية هذه الدعائم، فإنها تبدو اليوم أكثر إلحاحاً، بسبب سوء فهم مدلول التعايش الحق ـ سواء بالنسبة للمسلمين أو لغيرهم ـ وما ترتب عليه من تفريط فى شؤون الدين وابتعاد عنه فى كثير من جوانب الحياة، وانحراف سلوك الأفراد والجماعات، وما نتج عن ذلك كله من ظروف متأزمة يعيشها المسلمون، ومن يساكنهم بفعل عوامل داخلية وخارجية، وهى تقتضى البدء بإصلاح الذات ومعالجة مشاكلها بما يقوى المجتمع بل المجتمعات الإسلامية فى أبنيتها الداخلية، ويجعلها قادرة على الصمود ومواجهة كل التحديات والاعتداءات.

(١) أبو يوسف، كتاب الخراج ص ٧٤ (ط: السلفية، مصر ١٣٤٧هـ).
(٢) رواه الخطيب البغدادى عن ابن مسعود.
(٣) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة .
(٤) رواه البخارى ومسلم وابن ماجة عن عمرو بن العاص.
(٥) انظر الدكتور عباس الجرارى، الإسلام اليوم، عدد ١٤، ص ٢٩ ـ ٣٢ .

ومن هذا المنظور، يتبين أن غير المسلمين يعيشون مع المسلمين داخل المجتمع الإسلامى، متمتعين بمساواة تامة[1]. فى الحقوق والواجبات.

ولا يخفى على أهل العلم: أن الأمن مطلب للإنسان الذى كرمه الله وهو نعمة تعم الناس جميعاً فى المجتمع الإسلامى.

وأحكام الإسلام المنزلة من الله تعالى، والمبينة بسنة رسوله ﷺ، تدل على أن أمن غير المسلمين الذين يعيشون فى المجتمع الإسلامى. على أنفسهم ومالهم وعرضهم، مضمون ما داموا ملتزمين بما تقضى به الأحكام. وهى أحكام واضحة أوجبها الإسلام، ولم توجبها المصالح المتبادلة بين المسلمين وغير المسلمين، ولم تلزم بها المسلمين قواعد القانون الدولى، أو المعاهدات بين الدول الإسلامية وغيرها، لأن هذه الأحكام جانب مهم من شريعة الإسلام الكاملة، يجب على الدولة الإسلامية تطبيقها والعمل بها فهى واجب دينى، قبل أن تكون مصلحة سياسية أو التزاماً دولياً.

إن الإسلام يقيم مجتمعاً إنسانياً راقياً. وهو لذلك يقيم العلاقة بن الناس جميعاً على أسس وطيدة من العدل والبر والرحمة. نجد فى القرآن الكريم آيات عديدة، تحث على العدل والرحمة، وترغب فى هداية البشر على اختلاف الأجناس والألوان والمذاهب والعقائد. فالإسلام لا يريد للآخرين إلا الهداية، والرشد، والأمن، والاطمئنان. ولما اشتدت مقاومة كفار مكة للدعوة إلى الحق لم يدع الرسول ﷺ ربه بإهلاكهم وإفنائهم، رجاء أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً.

وقد نصر الله رسوله، وكان من كفار مكة بعد الهداية والرشد أعظم الدعاة شأناً، لمنزلة الصحبة التى نالوها، وبطاعة النبى ﷺ والعمل من أجل الإسلام والمسلمين[2]. ونستطيع أن نقول فى إيجاز: أن الإسلام يتميز فى خصوص التعامل مع غير المسلمين بأمرين مهمين:

(١) انظر الدكتور عباس الجرارى، الإسلام اليوم، عدد ١٤، ص ٢٩ ـ ٣٢.

(٢) انظر الدكتور عبد الله التركى، الأمن فى الإسلام، ص ٧٥-٧٦ بتصرف، ط: وزارة الأوقاف السعودية.

الأول: أن له نظاماً، يعد جزءاً لا يتجزأ من شريعته المتكاملة، وهو نظام للمسلمين يعملون به دائماً، ويلزمهم بحكم عقيدتهم،ولم يترك الإسلام العلاقة مع غير المسلمين لتقلبات المصالح والأهواء، ولنزعات التعصب العرقى أو اللونى أو الدينى. لقد اعترف الإسلام بوجود الآخر، ولذا دعا إلى أهمية التعامل معه، ووضع القواعد التى تضمن حق المسلمين فى المجتمع، وحق الآخرين الذين يعايشونهم، دائماً أو بصفة مؤقتة، ولم يكن ذلك معهوداً فى الممالك والإمبراطوريات القديمة قبل الإسلام.

الثانى: أن القواعد التى وضعها الإسلام لتنظيم العلاقة بين المسلمين وغيرهم فى المجتمع الإسلامى، تتميز بالسماحة واليسر، وحفظ الحقوق، وتجنب الظلم لمجرد الاختلاف فى الدين، فهناك حد أدنى يجب الحفاظ عليه، حتى فى حالة العداء أو القتال، وهو الكرامة التى وهبها الله لبنى آدم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء:٧]، وفى أوقات السلم والتعامل فى شؤون الحياة المختلفة، يحرص التشريع الإسلامى على حفظ حق الحياة، وحفظ حق العمل والسعى والكسب المشروع لغير المسلم فى المجتمع الإسلامى، ويبلغ التسامح بالنسبة إلى من يعايشون المسلمين بصفة دائمة من أهل الكتاب، حداً يصل إلى حفظ حقهم فى التكافل الاجتماعى، بحيث ينال معونة الدولة الإسلامية من تقصر به حالته من العجز أو المرض أو الشيخوخة عن السعى والكسب.

ولا شك أن التشريع الإسلامى بهاتين الميزتين يضمن العيش الآمن لغير المسلمين على أن يكونوا أفرادا يعملون من أجل خدمة هذا المجتمع وتنميته. وتكفل أحكام الشريعة، أن يتمتع غير المسلمين ممن يعيشون فى المجتمع الإسلامى بالأمن على حياتهم وأموالهم وأعراضهم، وهذه الحماية مستمرة، سواء أكانوا من المعاهدين والمستأمنين أم من أهل الوطن، ما داموا ملتزمين بالعهد. وتشمل حماية غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى الحماية من العدوان الخارجى. ففى كتاب

"مطالب أولى النهى" يجب على الإمام حفظ أهل الذمة، ومنع ما يؤذيهم، وفك أسرهم، ودفع من قصدهم بأذى.

وفى "الفروق للقرافى" أن ابن حزم الظاهرى، يجيز أن يقاتل المسلمون عن أهل الذمة "المواطنون" ويموتون دون ذلك، وتشمل كذلك، الحماية من الظلم الداخلى، أى داخل المجتمع الإسلامى، وتعنى دفع كل اعتداء عليهم، وتأمين أنفسهم وأبدانهم، وأعراضهم، وأموالهم وحقوقهم، التى تكفلها لهم الشريعة. فأمن الذميين على أنفسهم وبدنهم مضمون بالشريعة ؛ لأن الأنفس والأبدان معصومة باتفاق المسلمين، يقول الرسول ﷺ "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً"[1].

وقال الإمام مالك والليث:" إذا قتل المسلم الذمى غيلة يقتل به".

وذهب الشعبى وأبو حنيفة، إلى قتل المسلم بالذمى، لعموم النصوص الموجبة للقصاص، ولاستوائهما فى عصمة الدم المؤبدة، وتقطع يد المسلم بسرقة مال الذمى، مع أن المال أهون من النفس. والمال الذى يعد ذا قيمة عند غير المسلمين كالخمر والخنزير، فإنه إذا أتلفه أحد من المسلمين، فإن الإمام أبا حنيفة، يرى أن يعوض الذمى عنهما.

وفى "الدر المختار" من كتب الحنفية: يجب كف الأذى عن الذمى، وتحرم غيبته كالمسلم. ويقول ابن عابدين فى حاشيته: بل قالوا: إن ظلم الذمى أشد[2].

وكان من سنة الخلفاء الراشدين، دفع الضرر عن أهل الذمة وإعانتهم من بيت المال إن قعدت بهم الشيخوخة.

وقد ورد فى كتاب "الخراج" لأبى يوسف، ما فعله عمر -رضى الله عنه- مع

(١) رواه البخارى وأحمد فى المسند وابن ماجة.

(٢) انظر الدكتور عبد الله التركى، الأمن والإسلام ص ٢٧-٢٨ بتصرف واختصار.

شيخ يهودى يسأل الناس، وما فعله مع المرضى من النصارى بالجابية من أرض الشام. فقد أمر بالإنفاق عليهم من بيت المال.

لقد أدرك الخليفة عمر -رضى الله عنه- أن أهل الذمة ينبغى أن لا يعيشوا محرومين من القوت الضرورى، أو العلاج من المرض وسط مجتمع مسلم، ولا نجد لذلك مثالاً فى حضارة من الحضارات السابقة على الإسلام، بل نجد إنكاراً لهذه القيمة الإسلامية فى بعض المجتمعات الحديثة.

والأساس لحقوق غير المسلمين الذين يعيشون فى المجتمع الإسلامى، لم يكن وليد تطور اجتماعى أو تقدم حضارى، ولكن أساسه فى القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة:٨-٩]. وفى الآية الكريمة، إشارة إلى البر بالمخالف فى الدين، وهى درجة لم يصل إليها أهل الحضارة المعاصرة من غير المسلمين.

ولم تقتصر الشريعة الإسلامية على حماية من يعيش فى مجتمع مسلم، فى حياته الدائمة والمستقرة بين أسرته، وفى مقر عمله الذى يكتسب منه، وهى حالة الذميين، وإنما تجاوزت ذلك إلى حماية المخالف فى الدين، الذى يحضر إلى بلاد المسلمين للعمل، أو التجارة أو لشأن من الشؤون المباحة كالسياحة أو العمل، فالإسلام بذلك لا يقاطع الآخر مقاطعة شاملة، ولا يحرم أصل التعامل مع غير المسلمين لتحقيق مصالح المجتمع الإسلامى من خلال تلك العلاقات.

لقد وفرت الشريعة الإسلامية، حماية للمستأمن الذى يفد إلى بلاد الإسلام لشأن من الشؤون المباحة، ويدخل إلى ديار المسلمين بإذن منهم.

إن الآية الإسلامية تنطلق من نظرة شاملة للإنسـان. وأن هذه النظرة تبقى أساسية وصالحة للبشر فى كل زمان ومكان.

- **وثمة أمور يحسن أن نؤكد عليها، وهى:**

١ - أن العصر الحاضـر هو عصر التواصل البشرى، وعصر التـحاور الثقافى، ويمكن القول أنه عصـر التدافع الثقافى، وهذا توجه مهـم ومفيد يلزم المسلمين استـقباله والتعـامل معـه بإيجابيـة وارتياح، لأن منهـجيـة الحوار بالبـيان والحكمـة، منطلق أسـاسى فى منهج القـرآن الكريم، وأدبـيات الدعـوة إلى قـيم الإسـلام، التـزامـا بالتوجيه الربانى جل شأنه ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النمل:١٢٥].

٢- والمسلمون مطالـبون بالسعى للحـوار مع الناس بما يحقق وضـوح الرؤية ويجمع الكلمـة على المبادئ والقـيم الربانية الخـالدة. وهذا فى قوله تعـالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[آل عمران:٦٤].

ولعلنا ندرك: أن هذه الآية الكريمـة جاءت لتـقرر مبـادئ إسلامـية فى عـلاقات المسلمين بغيرهم:

- مبدأ الاعتراف بالآخرين.
- مبدأ الحوار وأهميته.
- مبدأ استشراف المستقبل فى ظل علاقات إنسانية سامية[1].

٣ - إن الإسلام الذى نعتقده ونفهمه وفق النصوص الثابتة القاطعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، هو دين الله تعالى الذى أرسل به الـرسل جميعاً، منذ أبينا

(١)د. أحمد السـايح، من بحث شارك به المؤلف فى المؤتمر الإسـلامى التاسع الذى عقده المجلس الأعلى للـشئون الإسلامية فى القاهرة.

آدم عليه السلام وحتى سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، وفق مسميات ومعانٍ تناسب الزمان والمكان لكل قوم مقتضى حالهم وحياتهم التى كانوا يعيشون، وأن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعث لتختم به دعوة الله تعالى ورسالاته، ولتكتمل بما جاء به دعوة الأنبياء والرسل من قبله، فى ظروف من الزمان والمكان تحقق للناس بها من أسباب التعارف والتعايش، ما يصلح معها مخاطبتهم جميعاً بتمام ما أراد لهم ربهم وخالقهم من مبادئ وقيم ومنطلقات، تستقيم معها حياتهم ويتحقق لهم بها الخير كل الخير، وهذا واضح فى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة:١٣٦].

٤- والأمة الإسلامية تحكم علاقاتها وتحاوراتها مع الآخرين قاعدة تقوم عليها صحة كل علاقة، وسلامة كل حوار، والتزام مبادئ وقيم وتعاليم دين الله، وهذا بين فى قول الله تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[المائدة:٤٩].

٥- إن مبدأ المسلمين وهم يعرضون مبادئ وتعاليم الإسلام على الناس، تحكمه قيم وآداب لا ينبغى للمسلمين تجاوزها ومخالفتها ولا يصح معها تجريح وسباب معتقدات الآخرين، وهذا صريح فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[الأنعام:١٠٨].

٦- والمجتمعات الإسلامية وفق تعاليم الإسلام وقيمه، مأمورة بالتزام العدل وإنصاف الناس مع وجود الاختلاف فى العقيدة، وقيام الخصومة والشحناء معهم،حيث يأمر الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨].

٧- إن منهج القرآن يعلن المسلمين ويؤكد عليهم أن البشرية مدعوة بأمر ربها جل شأنه، للتعارف والتعايش وفق القيم والمعايير الربانية على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وأديانهم وألوانهم، وإن إتيان الحق ومجانبة الباطل أساس التنافس بينهم، وهو أساس معيار القرب والبعد من تقوى الله ومرضاته، وهذا فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣].

٨- مجتمعات الأمة الإسلامية يحددها وهى تتعامل مع غيرها من الناس تعاليم الله وتوجيهات الرسول ﷺ، التى تسعى إلى تحقيق مصالح العباد، وجلب النفع العام لهم، وأن ذلك السعى الصادق هو السبيل لنيل محبة الله تعالى والفوز بمرضاته حيث جاء فى الأثر: "الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله".

٩ - إن الإسلام يؤكد أن أساس دين الله تعالى، يقوم على إقامة العدل بين الناس، وشيوع قيم الإحسان بينهم، والعمل على مكافحة الفحشاء والمنكر، ومحاربة البغى فى حياتهم، وقد عظم فقهاء الإسلام قيم العدل، حتى جعلوه معياراً لنصرة الله وتأييده لأى ملة تقيمه وتلتزمه حتى ولو كانت غير مسلمة لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠].

١٠-المسلمون يعتقدون بمشروعية التدافع الإنسانى، ويؤمنون بأن منهجية التدافع بين الناس القائمة على أساس التنافس، فى جلب المصالح ودرء المفاسد، كفيلة بتحقيق الحياة الأفضل لهم جميعاً، وتوفير الأمن والاستقرار، وصرف الفساد عن الأرض، وهذا مؤكد فى قول الله تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾[البقرة:٢٥].

ومن جهة أخرى فإن التدافع بين الناس لجدير بحماية حرية الناس فى معتقداتهم وأنماط حياتهم، وصيانة معابدهم على اختلاف مللهم، وهذا فى قوله تعالى ﴿وَلَوْلا

دَفْعُ اللَّه النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾[الحج:٤٠]. .ومن مفاخر الفقه السياسى فى الإسلام، أن الشرائع جاءت لتحقيق مصالح العباد .

١١ - الأمة الإسلامية تعتقد وتؤمن بأنها شريكة مع غيرها فى منهج الاستخلاف لعمارة الأرض وليست محتكرة لهذا المنهج، وإن غياب المسلمين أو تغيبهم عن المشاركة فى منهج الاستخلاف أو تجريد هذا المنهج من القيم الربانية، سيؤدى لا محالة إلى فساد الأرض ودمار حياة الناس عليها، وهذا مؤكد فى قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[محمد:٩-١٠].

١٢ -إن مبادئ الإسلام وقيمه تعلم المسلمين وتؤكد عليهم ألا يبخسوا الناس أشياءهم، وألا يحتقروا كدحهم وجهدهم فى كل عمل بناء، يحقق الإعمار والإبداع الحضارى.. وتلزم تعاليم الإسلام احترام المسلمين وتقدير كل عطاء خير فى ميادين القيم والسلوكيات وفى ميادين الماديات والوسائل والمهارات، يلتقى مع قيم وتوجيهات منهج الاستخلاف الربانى فى عمارة الأرض.. بل أن القرآن الكريم يعتبر احتقار سعى الناس وبخس مشيهم الإيجابى الفعال المثمر فى الأرض، من العبث والإفساد الذى يمقته الإسلام، ونهى عنه وهذا فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[هود:٨٥].

١٣ - إن الإسلام مثلما وضع ثوابت ومنطلقات، وقدم قيماً ومبادئ كلية لضبط أدبيات ومقومات التعايش البشرى والتعارف الإنسانى، فإنه أيضاً وضع ثوابت ومنطلقات وقدم قواعد وأسساً لضبط حركة مصالح الناس وقدم قيماً وأدبيات

لإحكام سيولة تبادل المنافع بين المجتمعات، فى إطار التعايش والتعارف بينهم، حيث أقام علاقة دقيقة ومتزنة بين حق التملك وحق الانتفاع، على مستوى الأفراد والمجتمعات [١].

وبعد.. فإن المسلمين وفق هذا المنهج الربانى العادل، وموروثه القيمى والتشريعى، وفى ضوء قدراتهم المادية والسياسية، ليجدون أنفسهم مؤهلين كل التأهيل لأداء مهمتهم ومساهمتهم الإيجابية الفعالة فى معترك التدافع الإنسانى البشرى، ولإقامة نظام عالمى عادل، ينهى حالة القلق والذعر التى تحيق بالناس، ويصرف أسباب الفساد عن الأرض. ويضع حدا لتدهور العلاقات الدولية فى أكثر من موقع. ويزيل عوامل الاضطراب والجشع والصراع السياسى والاقتصادى بين الأمم، ويضبط حركة التدافع الإنسانى، ويقيم موازين القسط للتعايش والتعاون البشرى، ويرتقى بمنهج التبادل والتكامل الثقافى، بما يحقق للناس تطلعاتهم لحياة إنسانية آمنة مطمئنة تنعم بالأمن والاستقرار والعدل والسلام.

والمسلمون من أجل هذه المهمة الجليلة النبيلة، على استعداد لكل حوار بناء مع أى جهة معينة وفعالة شعبياً ورسمياً،للسير بالإنسانية نحو الخير والفلاح [٢].

وقد لا يخفى على أحد أن الأمة الإسلامية تمتلك رصيداً ضخماً من القيم الهادفة. يمكن استثماره فيما يفيد الإنسانية.

❋ ❋ ❋

(١) انظر الدكتور حامد الرفاعى، الإسلام والنظام العالمى الجديد، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٩ .

المبحث الثانى
الغرب فى التصور الإسلامى

بداية لابد أن ندرك: أن الثقافات العالمية بدأت تتلاقى. نتيجة ثورة وسائل الاتصال والانتقال. فالجهل المتبادل بالآخر على مستوى العالم لم يعد قائماً. كما أن الحواجز بين الشعوب والثقافات سقطت، وصار الناس فى أجزاء مختلفة من العالم يتعرفون على بعضهم فيكتشفون أوجه الاختلاف والاتفاق.

كذلك هناك الإحساس المتبادل بين المجتمعات الإنسانية بوجود أخطار مشتركة على العالم كله تتجاوز حدود الثقافات والعقائد الدينية والقوميات. مثل أخطار العنف فى العالم، ونفاد الموارد خصوصاً المياه، وتدمير البيئة نتيجة الإسراف فى التصنيع[١].

وجاء فى تمهيد كتاب: "الإسلام والمسيحية" لأليكسى جورافسكى:أن دوامة الحياة الإنسانية المعاصرة، تشكل فى الواقع إحدى السمات الكبرى لعصرنا الحاضر، فالنمو المتصاعد للثقل النوعى للبلدان النامية فى الاقتصاد العالمى، وفى السياسة الدولية، ونهضتها الثقافية التجديدية سواء المرتبطة بتعرفها خصائص الثقافة العالمية وقيمها، أو بتنشيط التراث الثقافى التقليدى لهذه البلدان وإحيائه مجدداً، والتأثيرات المتسارعة لمنجزات الثورة العلمية التقنية، وعمليات الهجرة إلى قارات ومجتمعات أخرى، وتطور وسائل المعلومات والاتصال الجماهيرى، والسياحة العامة على نطاق جماهيرى، كل هذه المعطيات غيرت وجه العالم، وغيرت رؤية الناس وإدراكهم لهذا العالم الجديد أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تطور العلم الذى أسهمت فيه العلوم الإنسانية إسهاماً كبيراً خاصة فى ميادين: التاريخ، والانثوغرافيا، والانثروبولوجيا،

---

(١) راجع الدكتور أحمد كمال أبو المجد: الاتجاه إلى حوار إسلامى غربى، جريدة الحياة، الجمعة ٢١ مارس ١٩٩٧م، ص ١٨ .

وعلم النفس. أغنى كثيراً الرصد العقلى للإنسانية جمعاء، بحيث ساعد بدوره على تكون نمط جديد من التفكير، وظهور أساليب وطرق متجددة مبدعة فى دراسة الكون، ومشكلاته العامة من زاوية إنسانية شمولية(١).

والإسلام الحنيف لايكتفى بمحو أسباب التفرق والنزاع بين الناس بل يدعو إلى التسامح العام لأن التسامح يداوى القلوب المكلومة، ويجتذب النفوس النافرة، فالإسلام منهج للناس جميعاً، ومقاصده لخيرهم وفلاحهم، وخطابه لهم على اختلاف أقوامهم، وأجناسهم، وأعراقهم، وأديانهم.

فهو تحول حضارى شامل ينتقل بالناس من ضيق القوميات، والأعراق، والأجناس، إلى سعة الأسرة البشرية، وتعاون مجتمعاتها فى إطار منهجية المجتمع الإنسانى الواحد، وفى إطار منهج التعاون بين الناس جميعاً على أساس من قيم ربهم(٢).

ولا شك أن للغرب وحضارته علاقات ولقاءات بالمسلمين وحضارتهم على مدى التاريخ، وقد يكون مفهوماً لدى الباحثين أن المصالح الاقتصادية، والعلمية، والتقنية تتداخل لدرجة أن المصالح السياسية أحياناً تبدو متشابكة، بل ومشتركة فى بعض الميادين.

ومما لا يخفى أن الإسلام قدم نظرة شاملة للكون والحياة والإنسان، وأن هذه النظرة تبقى أساسية وصالحة للبشر فى كل زمان ومكان، وهذه النظرة تشمل الأخلاق، والاقتصاد، والاجتماع، والسياسة، ومن هذه المنطلقات قامت الحضارة الإسلامية على مبدأين مهمين: هما التغيير والاستشراف.

ولعل فواتح كتب الرسول ﷺ إلى إمبراطور الروم وكسرى الفرس توضح هذين المبدأين. فقد جاءت فى رسائل الرسول ﷺ بعد المقدمة: "قل يا أهل الكتاب تعالوا

(١) أليسكى جورافسكى: الإسلام والمسيحية، ص ١٨ عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٦م.
(٢) د. حامد أحمد الرفاعى: الإسلام والنظام العالمى الجديد، ص ١٤٤ .

إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله".

وفى تاريخ التفاعل المتبادل بين الشرق الإسلامى والغرب، لعبت العلاقات الإسلامية المسيحية دوراً خاصاً. فالمسيحيون والمسلمون على حد سواء، كانوا يتصفون دائماً بإدراكهم الرباطة الروحية المشتركة - وإن كانت محدود الأبعاد - التى ترجع إلى التقليد الإبراهيمى أو إلى الأرومة الإبراهيمية التوحيدية، وفى الوقت نفسه كانوا يدركون الاختلاف الجوهرى بالنسبة لخبراتهم فى المجال الثقافى الأيديولوجى.

وبدءاً من انتشار الإسلام ونشوء الخلافة الإسلامية، ظهر التضاد الدينى الأيديولوجى بين الغرب والمشرق الإسلامى، ولكن عملية التواصل الثقافى بين الإسلام والغرب لم تنقطع كلياً[1].

وإذا كان الإسلام يدعو إلى الحوار مع الغرب واللقاء بالغربيين. فقد كان هناك لقاء عملى تم بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى من خلال المؤسسات العلمية التى قامت فى الأندلس، حيث جاء أبناء الغرب من الجزر البريطانية، ومن فرنسا، وألمانيا، والأراضى المنخفضة وغيرها. يأخذون عن المسلمين علومهم، وعادوا بها إلى بلادهم حيث استطاع الغرب بذلك أن يؤسس نهضة صناعية وزراعية.

وقد أرسل الملك "جورج" ملك بريطانيا. وفداً من بنات الأشراف الإنجليز مكوناً من ثمانى عشرة فتاة برئاسة ابنة أخيه الأميرة: "دوبونت". ورافق الوفد أحد كبار موظفى القصر الملكى البريطانى وهو النبيل "سيف ديك" ومع الوفد هدية ثمينة للخليفة.

وجاء فى رسالة الملك جورج إلى الخليفة الأموى بالأندلس بعد مقدمة ودية: "لقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضها الصادى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة. فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل، لتكون بداية فى اقتفاء آثاركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا. وقد أرسلنا ابنة شقيقنا الأميرة

(١) أليكسى جورافسكى: الإسلام والمسيحية، ص ٢٧ .

(دوبونت) على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز، لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وحماية الحاشية الكريمة، وعطف اللواتي سيتوفرن على تعليمهن. وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة، لمقامكم الجليل، وأرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص".

وعند وصول البعثة أمر الخليفة باستضافة جميع أعضائها والمرافقين في قصره وإحاطتهم بكامل الضيافة، وتخصيص نفقة مالية لكل منهم من بيت مال المسلمين. وبعث الخليفة هشام السادس آخر الخلفاء الأمويين في الأندلس بخطاب جوابي إلى الملك البريطاني جاء فيه:

"لقد اطلعت على التماسكم فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر، أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد وأبعث لكم بغالي الطنافس وهي من صنع أبنائنا وهدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافي للتدليل على اتفاقنا ومحبتنا والسلام"(١).

والمتأمل - أعماقاً وأبعاداً - في علاقة الإسلام بالغرب. يجد أن المسلمين عندما شعروا بالتأخر الذي أصاب بلادهم بعد سقوط الخلافة العثمانية، وجدوا أن الفرصة مناسبة لتعلم علوم الغرب، ولذا كانت هناك محاولات تطويرية قامت في مصر على يد محمد علي، وامتدت بعد ذلك إلى كثير من بلاد المسلمين.

وقد سافر بعض الشبان المسلمين إلى أوروبا، وأخيراً إلى أمريكا. لطلب العلم حيث استطاع كثيرون أن يكتسبوا علوماً، ونظماً، وطرائق، في مجالات الفيزياء والكيمياء والرياضيات، والطب، والتربية، والإدارة، والعلوم الإنسانية، وعادوا إلى بلادهم يدعون إلى التقدم في مجالات الطب، والزراعة، والصناعة، والتعليم، والتنظيم الإداري(٢). ومن المسلم به أن علاقة الإسلام بالغرب هي علاقة إنسانية تدفعها الرغبة في العيش الكريم، والسلام الشامل، بين جميع الناس.

---

(١) د. سعيد عطية أبو عالي: الإسلام والغرب حوار لا صراع، ص ١٣-١٥، ط: ملحق المجلة العربية رقم ١، العدد الأول محرم ١٤١٨ هـ مايو ١٩٩٧ السعودية.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥ .

ولقد اعتبر الإسلام الإنسان هو المخلوق المكرم على سائر مخلوقات الله. وتكريم الله للإنسان يبدو واضحاً جلياً، ويصحب الإنسانية كلها منذ أبيها آدم، وسيظل معها إلى أن تلقى ربها.

وهذا التكريم يشمل جوانب هذا المخلوق كلها حيث خلقه الله فى أحسن صورة، وأكمل هيئة. ثم كان ترشيحه ليكون خليفة الله فى أرضه يعمرها ويستخرج كنوزها، ويظهر فضل الله على عباده فيها.

إن الإنسان فى نظر الإسلام يستحق هذه الكرامة الإنسانية بمقتضى كونه إنساناً لا للونه، ولا لجنسه، ولا لكونه شريفاً أو ذا حسب أو ذا جاه، بل لكونه إنساناً فقط.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء:٧٠].

وهذا التكريم ليس خاصاً بإنسان دون آخر، ولا بلون دون آخر، إنما الجميع سواء فى حق التكريم الإنسانى[(١)]. لقد جاء الإسلام ليضيء آفاق الحياة أمام الناس، ويمحو من دنياهم الظلام والضلال. وكان من عناية الله بالإنسان أن استخلفه على أرضه، واستلهمه أسرارها، وهيأه بالاستعدادات والقدرات التى تمكنه من القيام بواجبه، والاضطلاع بمهامه.

ولقد تضافرت رسالات السماء منذ أن استنارت الأرض بنورها على تحرير ساحة الحياة. وإذا كان الإسلام يحترم الغرب من واقع المعانى الإنسانية، فإن الإسلام الحنيف من جهة أخرى جامع للرسالات كلها، مشتمل على غايتها ولبها، فالإيمان بالرسل السابقين جزء من العقيدة الإسلامية، كما فى كثير من الآيات، فالإسلام إذاً هو الدين الجامع. وهو آخر أدوار الرسالة الإلهية وهو الجامع بينها.

---

(١) دكتور عبد الرحمن عمر الماحى: دعائم العلاقات الإنسانية فى الإسلام، مجلة منار الإسلام، صفر ١٤١٨ هـ ص ٧، الإمارات.

والإسلام كذلك دين الوحدة الإنسانية الجامعة. فالناس جميعاً سواء بالنسبة للأحكام الإسلامية وهو يقرر الوحدة بأصل التكوين فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[يونس:١٩]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[البقرة:٢١٣].

فكان الاتحاد فى أصل التكوين من حيث اتحاد الغرائز، والاتجاهات الإنسانية. سبباً فى الاختلاف. لأن آحاد الناس يتنازعون استجابة لغرائز كل واحد منهم. إذ أنه حيث استجاب كل واحد لغرائزه تصطدم إرادته مع إرادة الآخر الذى استجاب هو أيضاً لغرائزه، فيكون التناحر حيث تصطدم الشهوات، وتتنازع الإرادات، وكل يحب لنفسه الاستيلاء على أكبر قدر من المطالب، والوصول إلى أقصى ما يحب من الغايات، ولذلك كان لابد من فاصل يرسم الحدود، ويقيد الغايات لتتلاقى فى خط مستقيم من غير انحراف ولا تقاطع. بل يكون لكل خط مواز لخط أخيه، وكل الخطوط تنتهى إلى خدمة الجماعة الإنسانية. وبذلك تتحدد الغايات والأهداف(٢٤).

ولقد جعل الإسلام اختلاف الناس شعوباً وقبائل للتعارف والتعاون لا للتباغض والتنازع، ولذلك قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣].

فاختلاف الشعوب له غاية جليلة أرادها الله سبحانه وتعالى وهو التعارف. وهذا التعارف له ظواهر:

الظاهرة الأولى: اللقاء على مودة وتراحم فى أمن وسلام.

والظاهرة الثانية: التعاون على أن ينتفع الإنسان بكل خيرات الأرض.

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام، ص ٢١ من كتاب التوجه الاجتماعى فى الإسلام، ج٢، ط: مجمع البحوث بالأزهر ١٣٩١هـ.

والظاهرة الثالثة: تكريم الإنسان فى هذه الأرض[1].

وقد لا يخفى على أهل العلم: أن التعارف يقود إلى التعاون المستمر البناء الذى يفيد الإنسانية كلها.

- إن الإسلام باعتباره منهجاً حضارياً قد جعل مقاصده الحضارية المادية والقيمية من أجل تحقيق كليات مقاصد الشريعة الإسلامية المتمثلة فى الضرورات الإنسانية التالية وحاجياتها.

١- حفظ النفس.
٢- حفظ الدين.
٣- حفظ العقل.
٤- حفظ العرض.
٥- حفظ المال.

ومن المؤكد أن علاقة الإسلام بالغرب هى علاقة إنسانية تدفعها الرغبة فى العيش الكريم، والسلام الشامل بين جميع الناس، لاسيما وأن المسلمين يملكون حضارة هى فى أساسها ومقوماتها حضارة إنسانية.

وإن وجود أقليات إسلامية فى المجتمعات الأخرى، وفى الغرب بالذات، يساعد المسلمين على تحقيق حوار حضارى؛ وذلك بأن تكون الأقليات عنصراً فاعلا فى النسيج الاجتماعى فى كل بلد تعيش فيه هذه الأقليات، وذلك من خلال الإخلاص فى العمل، والصدق فى القول والوعد، والمبادرة إلى فعل الخير للآخرين، وإشاعة روح المودة فى المجتمع الذى يعيشون فيه، واحترام عقائد الآخرين[2].

كذلك المراكز الثقافية الإسلامية تؤدى دوراً كبيراً فى تقريب وجهات النظر، ولابد أن نمد يد الصداقة لمؤسسات ومعاهد وجامعات فى الغرب تعنى بدراسة التراث

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة: المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام ج٢، ص ٢٢ من كتاب التوجه الاجتماعى فى الإسلام. (مرجع سابق).

(٢) د. سعيد عطية أبو عالى: الإسلام والغرب، ص ٢٨-٣٠ .(مرجع سابق).

الإسلامى وطريقة التفكير لدى المسلمين. مثل جامعة هارفارد، وجامعة بيل فى أمريكا، وكامبردج، وأكسفورد. وجامعة لندن فى بريطانيا، والسوربون، ومعهد العالم العربى فى فرنسا.

وقد ظهر عدد من القيادات الغربية يتحدثون عن الإسلام ويحاولون أن يتحدثوا عنه بإنصاف، وفى مقدمتهم سمو الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا.

ولهذا كان على الأمة الإسلامية أن تنظر إلى الغرب من خلال فقه العلاقات الدولية، وفقه المصالح الإنسانية المشتركة، وفقه التعايش البشرى، مع التنوع فى الأديان والأعراق والأجناس. فى إطار التدافع والتنافس الإنسانى لتحقيق المصالح، وصرف الفساد عن الأرض: وفق منهجية السياسات الشرعية لفقه الأولويات، وفقه الموازنات، وفقه المصالح، وفقه الضرورات. وفقه الرخص والعزائم وغيرها[١].

وإذا تم النظر إلى الغرب من خلال هذه المعالم أدركنا أن هناك عناصر اتفاق، وإحساس مشترك يكونان فى النهاية بنية أخلاقية تحتية لحركة المجتمع الإنسانى.

* * *

---

(١) د. حامد أحمد الرفاعى: الإسلام والنظام العالمى الجديد، ص ٥٧ .



الفصل الثالث

حقوق غير المسلمين فى الدول الإسلامية وحقوق المسلمين فى الدول الأخرى

المبحث الأول: حقوق غير المسلمين فى الدول الإسلامية.

المبحث الثانى: وضع المسلمين فى البلاد غير الإسلامية.

المبحث الثالث: حقوق الأقليات المسلمه فى المواثيق الدولية.

المبحث الرابع: نموذج اجتهادى للعلاقة التى يجب أن تكون بين المسلم والدولة التى يعيش فيها

تمهيد

نحن نعيش اليوم فى مجتمعات متعددة الأجناس والألوان والأديان، ولم يعد هناك مجتمع متَّحِد فى كل العناصر، فسمة الحياة اليوم هى الاتساع، والحركة، والترابط بين البشر، ولم تعد هناك دولة تستطيع أن تدعى بأنها يمكنها أن تعيش بمعزل عن غيرها. الكل يحتاج إلى الآخر، والموارد مُوزَّعة على كافة القارات بحيث يبدو التكامل فيها، كما أن التكامل يبدو مميزًا أساسيًا للبشر الذى يعيش فى أماكن متعددة وفى دول متعددة ومناخات وتضاريس مختلفة. كل ذلك أوجد حركة للبشر بين الدول المختلفة، ولا يمكن أن يكون المسلمون استثناء من ذلك.

لقد خرجوا من الجزيرة العربية إلى بلاد فارس شرقًا، وبلاد الشام غربًا وشمالاً، رحلوا لينشروا الإسلام فى كل مكان؛ تنفيذًا لأوامر الله -تعالى- وأوامر النبى الكريم ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة:٦٧]، وقوله ﷺ: «بلغوا عنى ولو آية»؛ لذلك انطلق المسلمون دعاة فى كل مكان، ومن ثم كانوا على خلق قويم، بل كانت أسلحتهم نفسها ذات أخلاق. كانت وصايا الرسول ﷺ والخلفاء تسبق خُطاهم «امضوا باسم الله وعلى بركة رسول الله، لا تقتلوا شيخًا كبيرًا ولا طفلاً صغيرًا ولا امرأة، وستجدون أناسًا فرغوا أنفسهم للعبادة فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له». ومن أمثال: «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، وإذا لقيتموه فاثبتوا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، وأيضًا: «لا تقاتلوهم قبل أن تدعوهم إلى ثلاثة خصال، فإن أجابوكم إلى أى منها فاطلقوهم. ادعوهم إلى الدخول فى الإسلام، فإن أجابوكم فلهم ما لكم من حقوق وعليهم ما عليكم من التزامات، هم إذن مسلمون. ولا ينبغى أن تُحِلُّوا دماء من يقبل الدعوة منهم لأن هذا هو الهدف الأساسى

للحرب فى الإسلام.

لذلك نهاهم الله أن يشككوا فيمن أعلن إسلامه ابتغاء الغنيمة. يقول تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[النساء:٩٤]. فإن أبوا الدخول فى الإسلام، فاعرضوا عليهم الصلح -والصلح هدنة- بشرط أن يفتحوا الباب أمام المسلمين لنشر الدعوة. ومن ثم يتحقق هدف الغزو ولو لم يدخل المسلمون الديار.

والخيار الآخر هو القتال، بطائفة مشروطة من القيود على استخدام السلاح، وأولها ما تشير إليه الآية الكريمة ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾[البقرة:١٩٠] أى لا تتجاوزوا ما تتطلبه ضرورات القتال، وهو إخراج الخصم من المعركة بأقل الخسائر الممكنة.

وفى خلال خمسين سنة فقط، هى عمر معارك الإسلام، فتح المسلمون العالم المعروف، والذى احتاجت أوروبا إلى خمسمائة سنة إلى الدخول فيه.

أقول: إن هذه الجيوش الإسلامية هى التى نشرت الإسلام فى ديار كثيرة، وعاشت فيها، واختلطت بأهلها، وكونت ديار المسلمين الواسعة كما نراها اليوم.

كذلك ذهب المسلمون إلى أوروبا عن طريق الأندلس وعن طريق صقلية، وعاشوا هناك وانتشروا فى أماكن عديدة. وكانت الدولة العثمانية امتداداً للتواجد الإسلامى فى أوروبا، إذ دخل الإسلام إلى دول أوروبية عديدة، مثل: دول البلقان ووسط أوروبا، كما أدى السلوك الطيب للرحالة والتجار المسلمين الذين دخلوا جنوب شرق آسيا إلى دخول شعوب كثيرة فى الإسلام مثل إندونيسيا. وفى العصور الحديثة رحل كثير من المسلمين إلى أوروبا لتعمير ما خرَّبته الحرب العالمية الأولى،

ثم الثانية، ومن ثم كونّوا تجمعات بشرية مهمة فى فرنسا وفى ألمانيا وبلجيكا وإنجلترا، وكل الدول الأوروبية تقريبًا، لكن هذه التجمعات لم تكن مثقفة كما لم يكونوا دعاة، ومن ثم فلم يفيدوا الإسلام كثيرًا، وإن كانوا بالفعل قد أفادوا الدول التى عاشوا فيها.

كما أن الرحلات والبعثات العلمية أخذت طريقها فى الوقت الحاضر لتنهل من علوم أوروبا وأمريكا، بعد أن تخلّف المسلمون عن مواكبة علوم العصر. والنتيجة هى أن المسلمين الآن يعيشون فى مختلف أنحاء العالم وفى كل القارات، بعضهم يعيش كأقلية مُهَمَّشة أو غير مهمشة، وبعضهم كونوا تجمعات مهمة فى العديد من الدول، فى أفريقيا وفى آسيا.

وما يعنينا فى هذه الدراسة هو أن نبين كيف يعيش المسلمون فى دول الأقليات، وما يتمتعون به من حقوق بحسب الواقع، حيث نريد أن نبحث فيما يخصهم من حقوق وواجبات فعلاً، ثم ماذا تقرر لهم المواثيق الدولية والقانون الدولى من حقوق.

ولعل المقارنة هنا مهمة، وأعنى بذلك شرح موقف الإسلام ممن يعيشون فى دار الإسلام، وما يعطيه لهم من حقوق. ثم أتناول حقوق المسلمين فى الدول الأخرى. وسأتناول حقوق المسلمين الذين يعيشون كأقليات فى دول غير إسلامية. أما المبحث الرابع فهو قسم اجتهادى، أحاول فيه وضع دستور للعلاقة التى يجب أن تقوم بين المسلمين وبين الدول التى يعيشون فيها.

والله ولى التوفيق،،

المبحث الأول
حقوق غير المسلمين فى الدول الإسلامية

من الصفحات المشرقة فى شرعنا الإسلامى تلك المتعلقة بحقوق غير المسلمين فى دولة الإسلام، فهذه الحقوق تقع فى دائرة واسعة، وترتبط بمجموعة من الأمور الأساسية التى يقوم عليها الشرع الإسلامى، أهمها:

١ - نظرية الحقوق والحريات الأساسية فى الشريعة، وهذه النظرية تقوم على حماية مصالح الإنسان فى الجسم والعقل والدين والمال والنسل.

٢ - من ناحية أخرى فهى تقوم على التسليم بالاختلاف بين الناس فى الخلق، واعتبار هذا الاختلاف من ضرورات الكون، ومما لا يمكن تجاوزه بحال، بل ينبغى أن يترتب عليه جملة من النتائج للاستفادة منه وتعظيمه، وليس للسيطرة على الناس والهيمنة على فكرهم وأرزاقهم وجملة حياتهم. بعبارة أخرى يجب إرساء تعاون بين البشر على أساس تكاملهم، ووجود مزايا نسبية بين كل فرد وفئة يكون تعظيمها لصالح البشر بشكل عام.

٣- أن ممارسات المسلمين من خلال الدولة الإسلامية تؤكد على جملة الحقوق والحريات الأساسية للمخالفين فى الرأى والعقيدة، سواء فى حالة السلم أم فى حالة الحرب، فهناك دساتير واضحة لسلوك المسلم وعلاقاته بغير المسلم فى حالات العلاقات الدولية السلمية، وكذلك فى حالات العلاقات غير العادية أو النزاعات والحروب.

٤ - أن هذه الحقوق والحريات لصيقة بالإنسان، بصرف النظر عن جنسه أو دينه أو لونه،

فالناس أمام الله سواسية، وخلقهم جميعًا من أب واحد هو آدم -عليه السلام-، وكل الناس لآدم وآدم من تراب، ومن الجدير ألا تكون الدراسة قاصرة على الماضى فحسب، أو على أساس النصوص والممارسات الأصلية لدولة الإسلام الأولى، وإنما لتشمل كذلك التمتع بهذه الحقوق فى الدول الإسلامية الحديثة.

نعم لابد من النظر فى الادعاءات القديمة والحديثة على السواء، والتى تكيل التهم للإسلام والمسلمين بعدم معرفة حقوق الإنسان، أو بالأحرى أنهم لا يحترمون حقوق الإنسان خاصة لغير المسلمين.

وستكشف هذه الدراسة -بشكل أو بآخر- مقارنة واضحة بين دولة الإسلام وغيرها من حيث مدى احترام الحقوق والحريات للبشر بشكل عام. كذلك من المهم أن نذكر أن الحقوق والحريات الأساسية للإنسان تستند فى الوقت الحاضر إلى ما يعرف بالوثيقة الدولية لحقوق الإنسان، وهى تتكون من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو الإعلان العالمى لحقوق الإنسان والصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٨م.

والقسم الثانى: هو العهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية والذى أقرته الأمم المتحدة عام ١٩٦٦م.

أما القسم الثالث: فهو العهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والذى أقرته الجمعية فى نفس العام.

لقد وصلت البشرية إلى هذه الوثائق بعد صراع طويل بين السلطة والحرية، وبعد تقدم طويل شهدته البشرية فى مجال إقرار الحقوق والحريات للإنسان، وهى تمثل رصيدًا للبشرية ساهمت فيها كلها بشكل أو بآخر، وإن غلبت عليها الصبغة العلمانية، أى البعد بينها وبين الأصل الدينى لها، وهو تجاهل لا يمكن التسليم به؛ لأن الشرائع السماوية أسهمت -بشكل أو بآخر- فى تقرير هذه الحقوق والحريات، وطورتها ممارسات الدولة

الإسلامية طوال تاريخها الطويل. لذلك إذا كنا سنهتم بتقديم دراسة على أساس الشريعة الإسلامية وممارسات الدولة الإسلامية، إلا أننا سنهتم -بشكل أو بآخر- بالوثيقة الدولية لحقوق الإنسان، وكذلك بالممارسات الحديثة المتصلة بهذه الحقوق والحريات.

لذلك سنبدأ دراستنا بعرض نظرية إسلامية أصيلة في تقرير سنة الاختلاف بين البشر والمزايا التى تترتب عليها.

أولا: سنة الاختلاف بين البشر وما يترتب عليها من آثار فى الفقه الإسلامى

ينبهنا القرآن الكريم إلى أن الخلاف بين البشر سُنَّة من سُنن الله فى خلقه، وأمر اقتضته إرادة الله -سبحانه وتعالى- لتنويع الثقافات، ولتفعيل العلاقات بين البشر.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[الروم:٢٢].

ويقول أيضًا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣].

وقد ورد فى أسباب نزول هذه الآية، أنه لما كان فتح مكة، أمر الله بلالاً حتى علا ظهر الكعبة فأذن، فقال عتاب بن أسيد بن أبى العاص: "الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم". وقال الحارث بن هشام: "ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنًا؟!". وقال سهيل بن عمرو: "إن يريد الله شيئًا يغيره". وقال أبو سفيان: "إنى لا أقول شيئًا أخاف أن يخبر به رب السماء".

فأتى جبريلُ الرسولَ ﷺ وأخبره بما قالوا، فأقروا به، فأنزل الله هذه الآية وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأولاد والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى وليس على خلافها.(١)

(١) القرطبى، أحكام القرآن، ١٦/ ٣٤، طبعة دار الفكر - بيروت.

لذلك اقتضت حكمة الله -تعالى- وبديع صنعه أن خلق البشر مختلفين فى صورهم وألوانهم وثقافتهم، وهذا الاختلاف تنوع يثرى الحياة ويبهجها، ويجعل لها جاذبية وبهجة.[1]

وهكذا نجد الإسلام يهتم بالفوارق الفردية ويجعلها مزايا وليست أسبابًا للتفاخر والاستعلاء على الناس لأى سبب.

وبيَّن الرسول ﷺ ذلك بجلاء، فيقول ﷺ: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقى كريم على الله، وفاجر شقى هين على الله، والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب».

وهكذا نستطيع أن نحدد موقف الإسلام من قضية الاختلاف بين البشر فى النقاط التالية:

١- أن هذا الاختلاف طبيعى وآية من آيات الله فى خلقه.

٢- أنه لا يبرر على الإطلاق أى ادعاءات بالتفوق من قبل جنس على جنس أو لون على لون.

٣- أن الإسلام ساوى بين كل الناس بشكل عام فى مجمل الحقوق والمزايا، وأنه منع بشكل مطلق نعرات الجاهلية وتفاخرها بالأنساب والأحساب. ونلاحظ أن الرسول ﷺ قضى وقتًا طويلاً فى محاربة العنصرية؛ لتوحيد الأمة وجعلها تستفيد من كافة عناصرها.

٤- أن الإسلام -حتى فى مجال العقيدة- يعترف بالآخر المخالف معه دوليًا وداخليًا. وفى أول وثيقة دستورية ظهرت فى العالم، نجده قد قرر حقوقًا لكافة العناصر القاطنة فى المدينة من مسلمين وأهل كتاب ووثنيين طالما تراضوا على أحكام الصحيفة. هذه الحقوق تمثل فى مجملها اعترافًا بهم، وتقريرًا للحقوق المختلفة للجميع، وفى مقدمتها حرية العقيدة.

---

(١) كانت شكوى كثير من المفكرين والأدباء أنه إذا ما قابلت عشرة أشخاص فى يوم واحد، فلن تسمع من أى منهم أية فكرة جديدة، بسبب ضحالة الثقافة التى لا تتوافر إلا بالنبوغ والاختلاف والاطلاع على طبائع البشر.

٥- أنه طوال مراحل تاريخ الدعوة والدولة أسهم غير المسلمين فى الحياة فى المجتمع الإسلامى، وكان من نتائج ذلك: تكوين الحضارة الإسلامية التى ازدهرت فيها العلوم والفنون والآداب، وكانت فى جملتها خلاصة لعبقريات الشعوب التى انضمت تحت حكم الإسلام، وعملت على الرقى بالمجتمع، وسواء اقتنعت به وآمنت أم ظلت على عقيدتها الأصلية. وحتى الآن، نجد غير المسلمين فى الدول الإسلامية يمثلون نسبة كبيرة من سكان كل دولة إسلامية.

نقرر هذا مع اعتقادنا بوجود فترات انكسار فى تاريخ الدولة الإسلامية، شهدت فيها نكسات فيما يتعلق بوضع غير المسلمين، وفترات أخرى شهد غير المسلمين فيها تميزًا واضحًا عن المسلمين، خاصة بعد أن استقرت أغلب الدول الإسلامية، ودخلت عصر الامتيازات الأجنبية بشكل أو بآخر.

ثانيًا: نظرية الحقوق والحريات الأساسية فى الإسلام ومدى تطبيقها على غير المسلمين

تقوم نظرية الحقوق والحريات فى الإسلام على أعمدة ثلاثة، ترتد إليها كافة الحقوق والحريات المعروفة قديمًا وحديثًا، هذه الأعمدة هى: العدالة، المصالح، الحرية. استخلصنا هذا من دراسات عديدة أُجريت حول حكم التشريعات فى الإسلام.

ويرتبط بالعدالة جملة من الحقوق، أولها الحق فى المساواة، فلا عدالة دون أن يكون هناك مساواة بين البشر فى مختلف الأوضاع، وفى المزايا التى يمكن أن تتحقق لهم فى النظام الاجتماعى الذى يعيشون فيه. ويهتم الفقه الدستورى المعاصر بهذا المبدأ ويتوسع فى بيان أفكار المساواة أمام القانون، وأمام مختلف مرافق الدولة.

ونجد أساسًا متينًا لفكرة العدالة فى التشريع الإسلامى، ونجد أن القرآن الكريم يضع أساسها فى العديد من آياته، كما أن السنة تكفلت بدورها بالتنبيه إلى ضرورة سيادة العدالة والمساواة بين البشر.

ونجد فى مبادىء الإسلام وأحكامه ما يعزز العدالة التوزيعية والعدالة التعويضية

بين الناس، دون تمييز بسبب الجنس أو الدين. فالـقرآن الكريم يقرر نصًا فى توزيع الفيئ على الكافة. يقول سـبحانه وتعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[الحشر:٧].

أما العدالة التعـويضية وهى تعنى التعامل العادى والمنصف بين البـشر، فقد وردت فيها العديد من الآيات، لعل من أهمها ما ورد فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[الرحمن:٧-٩].

ولقد طُبِّق ذلك جـيدًا فى الدولة الإسلامـية، وأدى هذا التطبيق إلى عـدالة التوزيع منذ أن اعـتـمـد عـمـر بن الخطاب -رضى الله عـنه- بقـاء الأرض فى أيدى من يقـوم بزراعتها من غيـر المسلمين ومن أصحاب البلاد المفتوحة، على أن يدفـعوا خراجًا عادلاً عنها للدولة، ورفض قـسمتـها على الفاتحيـن. وساد «فقه السـوق» فى الإسلام، والذى عـرف عدالة بين البـائعـين والمشتـرين، ولم يمـيز أبدًا بين مـسلم وغـير مـسلم فى هذه الأحكام.

ويرتبط بالعـدالة طائفة واسعـة من حقوق القـضاء عرفـها الإسـلام وطبقهـا دائمًا بشكل جـيد على كل المـواطنين، بصرف النظـر عن دينهم وعقـيدتـهم، على ما يتـجلى بوضوح فى كتب أدب القـضاء، وفى دستور واضح يتجلى فى كتـاب عمر بن الخطاب إلى القاضى أبى مـوسى الأشعرى، وفى خطاب تصـلح دراسته أرسله الخليـفة على بن أبى طالب إلى واليه علـى مصر الأشتـر النخعى ضمـن دستور دائم للعـلاقة بين الراعى والرعية بشكل عام.

كما تظهر صفـحات الإسلام مصابيح مضيئة تعـرف كيف يقضى الخلفاء. وحكام المسلمين أمام القاضى متساوين مع خـصومهـم من أهل الكتاب، بل يرفض الخليفة على

بن أبى طالب أن يناديه القاضى عمر بن الخطاب بكنيته ولا ينادى خصمه اليهودى بكنية مثله، وكم حكم القاضى شريح وأمثاله لصالح غير المسلم على المسلم. بل إن الخليفة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قد استدعى عمرو بن العاص وابنه من مصر إلى المدينة لكى يقتص منه بالضرب بالدرة، واقتص منه المصرى الذمِّى أمام والده وأمام الخليفة.

ولا نكاد نجد موقفًا يرتبط بالعدالة والمساواة تم التمييز فيه بين مسلم وغير مسلم فى ديار الإسلام، بما فى ذلك تولى الوظائف العامة، فقد كان يتولاها من يكون مستوفيًا لشروطها من أهل الكتاب، بل سادت أعمال المحاسبة وتحصيل الأموال العامة فيهم.[1]

الجزية

قد يقول قائل: إن غير المسلمين من أهل الكتاب كانت تُفرَض عليهم جزية لم تكن تفرض على المسلمين. والرد على ذلك أن المسلمين يدفعون الزكاة ولا يدفعها غير المسلمين. والجزية مبلغ زهيد تدفع نظير التزام الدولة الإسلامية بحماية غير المسلمين ونظير الخدمات التى تقدم لهم، وبالتالى فهى لا تمثل تفرقة بين المسلمين وغيرهم فى الأعباء العامة. ومع ذلك استجاب الخلفاء لمن رفض دفع الجزية من القبائل العربية وغيرها، ودفع مقابل الحماية تحت مسمى آخر.

الذمى والمستأمن

ينقسم شعب الدولة الحديثة إلى قسمين: مواطنين، وأجانب.

فالمواطنون هم الذين تربطهم بالدولة رابطة ولاء، تتمثل فى ميلادهم على إقليم الدولة أو ميلادهم لشخص يحمل جنسيتها. وتعرف أنظمة الجنسية أحكامًا متعددة تستهدف التحقق من الولاية. كما تجيز الأنظمة اكتساب جنسية الدولة فى زمن لاحق على ميلاد الشخص عن طريق التجنس أو الزواج من أحد المواطنين فى الدولة. ولا

(١) ماعدا الولاية العامة والرئاسة العامة للدولة، فهى للمسلمين، بل هى فى قريش على قول، وفى آل بيت المسلمين فى قول آخر.

يوجد مساواة بين المواطنين والأجانب مهما كانت مدة إقامة الأجنبى على إقليم الدولة، فهو لا يتمتع بما اصطُلِح عليه بالحقوق السياسية، وهى تشمل كمًا واسعًا من الحقوق، وهى الترشيح لمجالس التشريع أو الحكم، والانتخاب، وتولى الوظائف العامة، فهى حقوق قاصرة على المواطنين، كما لا يتمتعون بشرف الانضمام إلى الجيش، وهناك تفرقة واضحة بين المواطنين وغيرهم فى تولى المهن الحرة، بل وفى ممارسة بعض أنواع من التجارة حسب قوانين كل دولة.

ولا تعرف الدولة الإسلامية هذه التفرقة بين المسلمين وغيرهم فى دولة الإسلام. فالمقيم فى الدولة الإسلامية إقامة دائمة، والذى كان يسمى ذميًا فى الماضى، والآن هو مواطن مثل غيره من المواطنين، له كل الحقوق وعليه كل الالتزامات، ولو لم يكن مسلمًا.

أما المستأمن فقد كان يدخل الدولة الإسلامية لمهمة مثل السفارة أو التجارة، وتحميه الدولة حتى تنتهى هذه المدة. وواضح أن المستأمن غير مسلم وغير مقيم في الدولة الإسلامية؛ لذا ترتبط إقامته بعهد الأمان الذى أعطى له من حيث المدة ومن حيث التمتع بالحقوق والالتزام بالواجبات.

* * *

المبحث الثانى
وضع المسلمين فى البلاد غير الإسلامية

يختلف وضع المسلمين فى البلاد غير الإسلامية بحسب الدولة التى يعيشون فيها، أو يقيمون فيها بشكل عام. فهناك بلاد أوروبية عاشوا فيها منذ زمن بعيد، مثل: أقاليم يوغوسلافيا السابقة، وقد ضمَّت إليها دولة البوسنة والهرسك، والتى يشكل المسلمون فيها أغلبية، ولكن التعصُّب الأوروبى أذاق المسلمين فيها كل ألوان الاضطهاد ومحاولات الإبادة، حيث ارتكب فى حق المسلمين هناك ما يمكن أن نطلق عليه "جريمة إبادة الجنس"، والتى جعلت مجلس الأمن ينشىء محكمة خاصة لمحاكمة مجرمى الحرب، الذين قتلوا الآلاف وانتهكوا أعراض الملايين من النساء المسلمات، وطردوا وشرَّدوا الملايين الأُخر من ديارهم، وكل هذا لا لشىء إلا لأن المعتَدَى عليهم يريدون أن يعبروا عن آمالهم ويقرِّروا مصيرهم. المسألة الشرقية قديمة ومؤداها ألا تقوم دولة مسلمة فى البلاد الأوروبية، كذلك بعد أن قامت البوسنة كدولة مستقلة بعد انحلال يوغوسلافيا السابقة وانضمامها للأمم المتحدة كدولة مستقلة. لم يقبل المتعصبون من الصرب ذلك، وأقدموا على تحطيم هذه الدولة، وفعلوا ما فعلوا بشعبها، حتى تدخلت مجموعة من دول الاتحاد الأوروبى عن طريق حلف "الناتو"، فوضعوا نهاية للمذابح والمآسى، مقابل تفتيت وحدة الدولة، وعمل نظام قانونى خاص يوزِّع السلطة على الأجناس الثلاثة التى توجد فى الدولة: الصرب، الكروات، والمسلمين.

أما فى الدول الأوروبية الأخرى، فالمسلمون يعيشون هناك كأقليات مُهمَّشَة فى الغالب وفى أحياء غير راقية، وأغلبهم من العمال اليدويين، استطاعوا مع ذلك أن يتحركوا لإجبار المجتمع الأوروبى أن يعترف بهم وبحقوقهم، وإن كانت الأحزاب اليمينة فى هذه البلاد تكره تواجدهم فيها، وتسعى إلى طردهم إلى بلادهم الأصلية. لكنهم نجحوا فى أن يحصلوا على كثير من الحقوق العامة، ويسعون الآن إلى الحصول على حقوقهم السياسية أُسوَة بباقى المواطنين، باعتبارهم مواطنين قضوا جزءًا كبيرًا من

حياتهم فى هذه البلاد، كما أنه من أبنائهم وأحفادهم -ولو كان فى الدول الأوروبية ويتحدث لغتها- من نسى أصله تمامًا، وبالتالى فلا يمكن أن يذهب إلى بلد آخر.

وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية من الدول التى هيَّأت للمسلمين هناك حياة طيبة، خاصة أن المسلمين فيها ليسوا من الطبقة العاملة وحدها، بل هناك علماء ومفكرون ومخترعون يتبوؤون مكانة مهمة فى النسيج الاجتماعى والسياسى لهذه الدولة، التى لا يوجد فيها مواطنون أصليون، بل الكل جاء من بلاد أخرى، عدا الهنود الحمر الذين أبادت معظمهم القوى الدخيلة.

ومع تزايد حالات الإرهاب واستخدام العنف فى الولايات المتحدة ونسبة ذلك إلى المسلمين، خاصة ما تواضع الغرب على تسميته بـ "تنظيم القاعدة"، وهو تنظيم أقامته الولايات المتحدة مع دول أخرى للقضاء على الاتحاد السوفيتى، حيث اتخذ من أفغانستان وبعض المدن الباكستانية -بيشاور- مقرًا له. تراجع الموقف بالنسبة للمسلمين، بل صدرت قوانين خاصة تسمح بتعقبهم وتصنفهم فى قوائم المشتبه فيهم، وتجيز لسلطات الضبط أن تتنصت على مكالماتهم، بل وأن تحتجزهم وتوقِّفهم خلافًا للأحكام السائدة والتى لا تطبقها الحكومة -للأسف- إلا على المسلمين. وساءت معاملة رجل الشارع العادى للمسلمين، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر، وأصبح من يعيش فى الولايات المتحدة من المسلمين يعانى معاناة شديدة، ولا يتمتعون بجملة الحقوق والحريات التى يتمتع بها المواطن العادى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ورغم البيانات العديدة التى تخرج من الولايات المتحدة بشأن المعاملة الطيبة للمسلمين وعدم التمييز، وأنهم ليسوا إرهابيين بل فئة ضالة منهم لا تمثل الجميع، إلا أنه مما يُؤسَف له أن مثل هذه الأقوال لا نجد لها صدى فى الواقع. ونرى حملات مستمرة من قبل المجتمع الغربى والولايات المتحدة الأمريكية ضد المسلمين والإسلام، وتصدر الكتب ضد النبى ﷺ وضد المسلمين بشكل عام، تتهمهم بالتخلف ومحاولة هدم الحضارة الغربية عن طريق الإرهاب. وهكذا تأزَّم موقف المسلمين بشكل كبير فى العالم الغربى.

❊ ❊ ❊

المبحث الثالث
حقوق الأقليات المسلمه فى المواثيق الدولية

إن إقرار حقوق المواطن لم يعد صعبًا فى أى مكان، خاصة فى دول الاتحاد الأوروبى، حيث قامت هذه الرابطة الاتحادية أولاً وقبل كل شئ على الاشتراك فى رعاية حقوق الإنسان وتقديس الديمقراطية وإعلاء قيمة الفرد. وتكتسب هذه الحريات أهميتها بوجود مؤسسات تحمى حقوق الإنسان وتحافظ عليها. إن منظمة شعبية برلمانية مثل مجلس أوروبا هدفها الرئيسى كفالة حقوق الإنسان الأوروبى، فضلاً عن لجنة أوروبية تعنى بفحص أية شكاوى تقدم من المواطنين الأوروبيين ضد دولهم، وتقوم بتسوية أية انتهاكات لحقوق الإنسان الأوروبى وحرياته، بما فى ذلك حقها فى إحالة أى شكوى ضد الدولة إلى المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، لاشك أن هذه المؤسسات تكفل إشباعًا مناسبًا للحفاظ على حقوق الإنسان وحرياته بالنسبة للإنسان الأوروبى.

لكن الأقليات التى تعيش فى أوروبا خاصة من المسلمين، لا يتمتعون بنفس الحقوق، وليس من السهل عليهم الوصول إلى المؤسسات القائمة فى دول الاتحاد لكفالة حقوقهم لأسباب كثيرة. بل إن العديد من الأوروبيين ينتقدون الاتجاه السائد فى كثير من الدول الأوروبية، وخاصة فرنسا ـ لإبعاد الأجانب ـ ووقف الهجرات إلى الدول الأوروبية من جنوب وغرب البحر المتوسط. بل أن أحد الكتاب ـ مثل جارودى ـ انتقد بشدة الاتجاه اليمينى فى فرنسا، ذلك الاتجاه الذى يريد إرجاع المسلمين من حيث أتوا، ويرى أن ذلك تنكر للجميل، فقد شارك المسلمون فى إعادة بناء ما خربته الحربين الأولى والثانية فى أوروبا، ولم يبخلوا بجهد و لا وقت فى سبيل تحسين الحياة فى القارة الأوروبية، ودفعوا ثمنًا غاليًا فى هذا الاسهام الكبير لإعادة بناء أوروبا.

ومن ثم فالمناداة بإبعادهم وترحيلهم إلى بلادهم يعنى مقابلة الإحسان بالإساءة. بل انتقد الهجوم الشرس فى الجمعية الوطنية الفرنسية على الأقليات التى تعيش فى أوروبا،

وفى فرنسا بشكل عام وقارن مشاهد الحرية التى كانت تجرى على هذه الساحة وفى هذا المكان منذ ميرابو وفولتير بما يجرى الآن، حيث لم يستسغ أبدًا هذه الدعاوى الموجهة ضد حقوق الإنسان والمنكرة للجميل، والمضادة - وهذا الأهم - للتقاليد والأعراف الفرنسية فى تقديس الحرية واحترام حقوق الأفراد.

وقد اهتمت الهيئات الدولية منذ وقت طويل بحماية الأقليات. وقامت عصبة الأمم بتبنى الاتفاقيات التى عقدت من قبل لحماية الأقليات الأوروبية فى الدولة العثمانية والدول التى تفرعت عنها، وفى المناطق التى كانت محكومة من الدولة العثمانية من قبل، مثل بلغاريا ومنطقة البلقان واليونان.

وكانت هذه الاتفاقات تهتم أساسًا بتحقيق مجموعة من الحقوق والحريات التى تكفل عدم التمييز بين هذه الأقليات وبين المواطنين فى الدولة، وكانت تهتم كذلك باعطاء دور لعصبة الأمم فى المراقبة لمعاملة هذه الأقليات واتخاذ ما يلزم لانصافهم ورد أية مظالم تقع عليهم.

ومع ذلك فإن المجتمع الدولى يحقق تطويرًا فى هذا الشأن بعد قيام الأمم المتحدة. سواء من ناحية القواعد والمبادئ و المعايير التى يجب أن تتم معاملة الأقليات وفقًا لها، تم استخلاصها بشكل عام وضمنت الوثيقة الدولية لحقوق الإنسان، تلك الوثيقة المكونة من ثلاثة أعمال قانونية هى: الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٨ وكذلك العهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية، والعهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية وقد أقرتهما الجمعية العامة للأمم المتحدة كذلك عام ١٩٦٦ ووضعتهما فى شكل اتفاق لهدف ظاهر، هو قيام الدول بالتصديق عليه والتزامها به بأعلى درجات الالتزام باعتبارها جزءًا من تشريعها الداخلى.

ومن ناحية أخرى، فإن الوثيقة الدولية قد اهتمت بقضية الحماية الدولية لحقوق الإنسان، واهتمت بالنموذج الأوروبى، فالحماية تتولاها جهتان تتبعان الأمم المتحدة، إحداهما لجنة تختص بحماية الحقوق المدنية والسياسية، والأخرى تهتم بحماية الحقوق

الاقتصادية والاجتماعية، ويوجد كذلك بروتوكول ملحق بالعهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية تقبل الدول الموقعة عليه الاختصاص الإلزامى للجنة فى حالة تقديم أى شكاوى ضدها.

وسوف أعرض فى هذه الورقة لأهم المبادئ التى وردت فى مختلف الوثائق الدولية، خاصة الوثيقة الدولية لحقوق الإنسان والتى تتصل بحماية حقوق الأقليات فى القانون الدولى، ثم نتعرض للوثائق التى صدرت من منظمات أخرى خاصة اليونسكو.

أولاً: مبادئ حماية الأقليات فى الوثيقة الدولية لحقوق الإنسان

تقرر كافة المواثيق الدولية مبدأ المساواة بين الناس فى التمتع بالحقوق والحريات دون تمييز من أى نوع.

فالمادة الثانية من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان تنص على أنه « لكل إنسان حق التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة فى هذا الإعلان دونما تمييز من أى نوع ولاسيما التمييز فى العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى سياسيًا أو غير سياسى أو الأصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو المولد أو أى وضع آخر. وفضلاً عن ذلك لا يجوز التمييز على أساس الوضع السياسى أو القانونى أو الدولى للبلد أو الأقليم الذى ينتمى إليه الشخص سواء كان مستقلاً أو موضوعًا تحت الوصاية أم غير متمتع بالحكم الذاتى أم خاضعًا لأى قيد آخر على سيادته».

ومعلوم أن هذا النص قد ورد فى بداية الإعلان العالمى لحقوق الإنسان بعد نص المادة الأولى الذى يقول : «أن الناس يولدون جميعًا أحرارًا ومتساوين فى الكرامة والحقوق وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضًا بروح الإخاء».

فالبداية فى نظرية الحقوق والحريات العامة هو تساوى الناس فى التمتع بها، وبالتالى لا ينبغى أن يكون الخلاف فى الجنس أو الدين أو اللون أو اللغة أو الرأى أو لأى سبب آخر، مؤثرًا على التمتع بمختلف الحقوق والحريات. وتؤكد المادة ٧ من الإعلان

نفس المبدأ، وإن اتصلت بالممارسة أكثر، فقد قررت أن الناس جميعًا سواء أمام القانون، وهم يتساوون فى التمتع بحماية القانون دون تمييز، كما يتساوون فى حق التمتع بحماية القانون دون تمييز، وكذلك يستاوون فى حق التمتع بالحماية من أى تمييز ينتهك الإعلان، وتأتى المواد الأخرى فى الإعلان لتقرر جوانب من وسائل حماية المساواة: فالمادة (٨) من الإعلان تقرر حق الأشخاص فى اللجوء إلى المحاكم الوطنية لانصافهم الفعلى من أية أعمال تنتهك الحقوق الأساسية التى منحها الدستور والقانون لهم. كذلك لكل إنسان الحق على قدم المساواة التامة مع الآخرين - فى أن تنظر قضيته محكمة مستقلة ومحايدة، نظرًا منصفًا وعمليًا «المادة ١٠».

وفى صدد الأقليات نجد الإعلان العالمى ينص على حق آخر، هو أن لكل فرد حق التماس ملجأ فى بلدان أخرى والتمتع به خلاصًا من الاضطهاد. كما ينص على أن لكل فرد حق فى حرية التنقل، كما لكل فرد حق فى مغادرة أى بلد بما فى ذلك بلده وفى العودة إليها «المادة ١٣».

فمن المعلوم أن قدرًا كبيرًا من الأقليات المسلمة قد مارست حقها فى الانتقال من بلدها إلى بلاد أخرى، من أجل حياة أفضل، ومن ثم فإن إعمال هذا النص يقتضى كفالة سائر الحقوق لها، بما فى ذلك حق القرار إلى المكان الذى ترغب فى الاقامة فيه، ويعتبر هذا الحق من أكثر الحقوق التى تتعرض الأقليات الإسلامية فى مختلف الدول لانتهاكه، كما أن القوانين المحلية، بل والقانون الدولى التقليدى يعطى لمختلف الدول الحق فى إبعاد الأجانب خاصة غير المقيمين إقامة طويلة فى الدولة.

أما باقى مواد الإعلان فهى تعطى لكل الاشخاص الحقوق التالية:

* الحق في الحصول على الجنسية ولا يجوز حرمان أى شخص من جنسيته، ولامن حقه فى تغيير جنسيته «المادة ١٥».
* الحق فى الزواج وتكوين أسرة ودون أى قيد يرجع إلى العرق أو الدين أو الجنسية «المادة ١٦».

* حق التملك «المادة ١٧»

* حرية العقيدة «المادة ١٨».

* حق الرأى والتعبير «المادة ١٩».

* حق الاشتراك فى الاجتماعات والجمعيات السلمية.

* الحق فى الضمان الاجتماعى «المادة ٢٢»

* الحق فى العمل، وحرية اختيار العامل العمل الذى يناسبه «المادة ٢٣».

* حق الملكية الفكرية «المادة ٢٧» وكذا قرر الإعلان الحق فى مستوى معيشي مناسب.

* الحق فى التعليم.

● **الحقوق السياسية:**

لكنه يجب التوقف عند الحقوق السياسية ونرى كيف عالجها الإعلان. ففى صدد الحقوق التى عددناها نجد أن الإعلان يعطيها «لكل شخص»، لكن جاء فى المادة «٢١» وذكر أن لكل شخص حق المشاركة فى إدارة الشئون العامة لبلده إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختاون فى حرية. وباقى الفقرات ذكرت أن لكل شخص حق تقلد الوظائف العامة فى بلده بالتساوى مع الآخر، وإن إرادة الشعب هى مناط سلطة الحكم ويجب أن تتجلى هذه الإرادة من خلال انتخابات نزيهه تجرى دوريًا بالاقتراع العام وعلى قدم المساواة بين الناخبين وبالتصويت السرى أو بإجراء مكافىء من حيث ضمان حرية التصويت.

فالنص على أن هذه الحقوق تمارس فى بلد الشخص يثير تساؤلات عديدة. فهل يعنى ذلك ضرورة أن يحمل الشخص جنسية الدولة حتى يكون له الحق فى إدارة الشئون العامة أو فى تقلد الوظائف العامة أو فى الاشتراك فى المجالس التشريعية أو المحلية ؟

إن المبادئ القانونية سواء فى القانون الداخلى أو الدولى تجرى على أساس أن

تقتصر الحقوق السياسية على المواطنين، أى الذين يحملون جنسية الدولة،ولكن النص الوارد هنا يساير الاتجاهات الحديثة التى تعطى للشخص الذى يعيش فى مكان ما ويتخذه بلدًا له، الحق فى ممارسة الحقوق السياسية وإلا لكان الإعلان قد استخدم مصطلح الجنسية فتعبير « فى بلده » ، لا يتطابق مع تعبير «الجنسية».

إن الكثير من الاشخاص الذين يحملون جنسيات دولهم، قد هاجروا إلى بلاد أخرى، وأصبحوا يعيشون فيها، ويعملون لها، ويمارسون حياتهم الطبيعية فى رحابها دون أن يحملوا جنسيتها، وكثير منهم لا يعود إلى بلده إلا زائرًا، بل ويساعد أشخاص من أسرته على الهجرة للإقامة معه فى الموطن الجديد، فهل يمكن أن نحرمه من الحقوق السياسية فى هذا المكان الذى توطن فيه تمامًا وأصبح جزءًا منه؟

إن هذا المفهوم لا يمكن أن يتفق مع مدلول حقوق الإنسان وحرياته، بل من التعسف الشديد أن يحرم الإنسان من المشاركة فى الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية فى المكان الذى يعيش فيه.

ونقرأ فى ديباجة العهد الدولى للحقوق الاقتصادية والاجتماعية ما يعزز فكرة المساواة بين البشر جميعهم، وعدم جواز التمييز بينهم لأى سبب كان إذ ترى الدول الأطراف في العهد أن الاقرار بالحقوق لجميع أعضاء الأسرة البشرية يعبر عن كرامة أصيلة فيهم، ومن حقوق متساوية وثابتة، يشكل وفقًا للمبادئ المعلنة فى ميثاق الأمم المتحدة أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم. وإذ تقر بأن هذه الحقوق تنبثق من كرامة الإنسان الأصيلة فيه وإذ تدرك أن السبيل الوحيد لتحقيق المثل الأعلى المتمثل وفقًا للإعلان العالمى لحقوق الإنسان فى أن يكون البشر أحرارًا ومتحررين من الخوف والفاقة هو سبيل تهيئة الظروف الضرورية لتمكين كل إنسان من التمتع بحقوقه الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكذلك بحقوقه المدنية والسياسية.

ونجد عبارات مماثلة فى ديباجة العهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية.

وقد عالج العهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية قضية حقوق الأقليات بشكل

مفصل، فى أكثر من مادة من مواد العهد. فالمادة «٢٧» من العهد تنص على أنه «لا يجوز في الدول التى توجد بها أقليات إثنية أو دينية أو لغوية أن يحرم الأشخاص المنتسبون إلى الأقليات المذكورة من حق التمتع بثقافتهم الخاصة أو المجاهرة بدينهم وإقامة شعائره أو إستخدام لغتهم بالاشتراك مع الأعضاء الآخرين فى جماعتهم».

فهذا النص يبيح للأقليات أن تتعامل مع بعضها البعض بالشكل الذى يؤكد ذاتيتها وثقافتها الخاصة، ويوفر لها حرية العقيدة بمدلولها الواسع وكذا حق استخدام لغتهم الخاصة. هذا بالإضافة إلى تمتعهم بالحقوق الأخرى المقررة في العهد بالتساوى مع مختلف أفراد الدولة التى يوجدون فيها.

ونجد المادة «٢٦» من العهد تقرر مثلاً :« أن الناس جميعًا سواء أمام القانون ويتمتعون دون أى تمييز بحق متساو فى التمتع بحمايته. وفى هذا الصدد يجب أن يحظر القانون أى تمييز وأن يكفل لجميع الأشخاص على السواء حماية فعالة من التمييز لأى سبب كالعرق أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى سياسيًا أو غير سياسى أو الأصل القومى أو الاجتماعى أو الثروة أو النسب أو غير ذلك من الأسباب».

فلا يجوز لأى سبب كان أن يميز القانون فئة على فئة بأن يقتصر تولى الوظائف العامة على فئة معينة على أساس دينى أو قومى، وإلا فما معنى المساواة أمام القانون؟

• **إبعاد الأجنبى:**

من المقرر فى القانون الدولى أن من حق كل دولة أن تنظم المسائل الخاصة بالأقامة على إقليمها وأن تقصر الاقامة الدائمة عليه لمن يتمتعون بجنسيتها دون سواهم، وبالتالى فإن القواعد العرفية الدولية تسمح بإبعاد الأجانب. لكن القانون الدولى لحقوق الإنسان يفرض على الدولة. بعض القيود فى هذا الصدد، فنجد المادة (١٣) من العهد الدولى للحقوق المدنية والسياسية تنص على أنه : «لا يجوز إبعاد الأجنبى المقيم بصفة قانونية على أقليم دولة طرف فى هذا العهد إلا تنفيذاً لقرار اتخذ وفقًا للقانون، وبعد تمكينه - ما لم تحتم دواعى الأمن القومى خلاف ذلك، من عرض الأسباب المؤيدة لعدم إبعاده ومن عرض قضيته على السلطة

المختصة أو على من تعينه أو تعينهم خصيصًا لذلك، ومن توكيل من يمثله أمامها أو أمامهم».

وهكذا يعطى هذا النص للأجنبى الذى يتقرر إبعاده عن البلد الذى يقيم فيه الحق فى أن يدافع عن نفسه ضد هذا القرار بالشروط الآتية:

١ - أن يكون الأجنبى مقيمًا بصفة قانونية فى البلد الذى تقرر إبعاده عنه. والإقامة القانونية تقتضى أن يكون الأجنبى قد وصل أقليم الدولة بإذن منها، وأن يكون بقاؤه فيها قد تم وفقًا لأحكام القانون. وهو شرط يحرم العديد من الاشخاص من ضمانة التظلم ضد قرار الابعاد. ونرى أن التساهل فى الدخول والإقامة من قبل الدولة يجب أن يفسر على أنه أعطى للشخص حقًا فى الإقامة، كأن يدخل للسياحة وتستمر إقامته فى الدولة لمدة أطول دون اعتراض منها على ذلك أو كأن يمارس عملاً فى الدولة عليه طلب ولا يقبل عليه عادة المواطنون فسكوت الدولة هنا يجب تفسيره على أنه رضاء باستمرار إقامة الأجنبى، طالما أنه يمارس عملاً شريفًا ومقبولاً. ونفس الشيء ينطبق فى حالة عضو البعثة العلمية الذى لا تكفى المدة التى منحت له لاستكمال الدراسة، فيستمر فى الاقامة فى الدولة حتى تنتهى دراسته. ويفترض استمرار الأذن طالما أن الغرض لم يتغير.

٢ - يجب أن يتم الابعاد تنفيذًا لقرار تتخذه السلطة التى يحددها القانون لاتخاذ هذا القرار، وفى الحالات وللاسباب التى يقررها قانون الاقامة الخاص بكل دولة.

٣ - أن يمكن الأجنبى من التظلم من القرار أمام السلطة المختصة التى يعينها القانون لذلك. ولم يشترط النص للأسف أن تكون هذه السلطة هى السلطة القضائية وهذا عيب كبير فى نص فى عهد دولى يقرر الحقوق الأساسية للإنسان.

وعمومًا فأرى أن العمل فى معظم الدول قد تجاوز هذا النص، والقانون المصرى - على سبيل المثال - يتيح لمن صدر ضده قرار بالإبعاد أن يتظلم منه أمام القضاء، ويجيز للقضاء الادارى أن يلغى هذا القرار.

إن الأجنبى الذى أقام لفترة طويلة فى أقليم دولة ما، ينبغى أن يكون له الحق فى

الحصـول على جنسيـتها، أو يعطـى ـ على الأقل ـ الحق فى الإقامة الدائـمة على هذا الأقليم، طالما كان له عـمل يؤديه لخدمة هذا المجتمع؛ ونسـتند فى ذلك إلى المبررات الآتية:

١ - الحق الأساس الذى تقرره المواثيق الدولية فى المساواة بين الناس، فكيف يتحقق مثل هذا الحق عمـلاً إذا كان من حق الدولة أن تطرد شـخصًا عـاش على إقليمهـا وقدم عمله وجهده وخبرته لها؟

٢- وما هى الأفضلية التى تتحـقق لشخص ولد لوطن أو على أقليم الدولة فحصل على جنسـيتـها الأصليـة بمجرد الميـلاد، حتى ولـو لم يكن يؤدى أى خدمـة لبلده، ومن شخص اختار الحـياة فى دولة ما، وأخذ يعمل لصالحها، وعـاش فيها وانجب أولاده داخلها، ولـكن لعدم الميلاد لأحـد مواطنيـها أو لأنه لم يولد فى الأقليـم نجده يمكن طرده منها فى أي وقت ودون سبب؟

إن هذا بلاشك يتعارض مع الحق فى المساواة:

٣- إن الشرائع السـماوية تعطى للإنسـان الحق فى أن ينتقل من بلده وأن يهـاجر إلى بلد آخر أفضل فى معاملته،ويتيح له ممارسة حقوقه، وخاصة حق ممارسة شعائر عقيدته. ولننظر إلى أحكام القـرآن الكريم فى هذه المسألة. يقـول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴿٩٧﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ٩٧ - ١٠٠] فهنا يفرض الله الهجرة على المستضعفين ويعذبهم فى الآخرة إذا

عاشوا مستكينين فى المكان الذى وجدوا فيه لذا نصر الإسلام بالهجرة إلى الحبشة أولاً وإلى المدينة بعد ذلك.

كما نرى الكثير من مواطنى الدول النامية عندما هاجروا إلى بلاد أخرى، لمعت أسماؤهم وتميزوا فى مجالات العلوم والفنون المختلفة مثل الطبيب المصرى مجدى يعقوب، والعالم المصرى أحمد زويل ومن قبل فاروق الباز، وغيرهم ، وغيرهم.

٤ - إن الكثير من الدول الكبرى قد تكونت من العناصر المهاجرة ولم تكن الدول تهتم كثيراً بأمور الجنسية، ولكن للأسف يتحكم من استفادوا من الهجرة دون ضابط، فيمن يرغبون فيها دون سند إلا الأنانية، والخوف من المشاركة فى الرزق، والرغبة فى التشدد والتحكم فى الآخرين.

لذا أرى ضرورة وضع قواعد للهجرة وتسهيل الانتقال من دولة إلى دولة، بشكل أكثر مرونة، يراعى ظروف الدول النامية، وضيق فرص العمل والرزق فيها، ويراعى أن الأرض لله والخلق كلهم بيده، وأن حقوقهم على هذه الدنيا يجب أن تكون متساوية.

ونخلص من ذلك إلى أن الوثيقة الدولية لحقوق الإنسان والمكونة من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ١٩٤٨، والعهدين الدوليين للحقوق المدنية والسياسية، والحقوق الاقتصادية والاجتماعية ،تعطى للاقليات حقوقًا واسعة باقرارها الحق فى المساواة بين الجنس البشر، وبوضعها ضمانات واضحة للأقليات فى حالات الابعاد. ولكن لازالت قضية الأقليات فى حاجة إلى ضمانات أكثر، وتقرير حقوق مراقبة تنفيذها عن طريق اللجان المعنية بذلك والتى شكلت بمقتضى أحكام الوثيقة.

ثانيًا: حقوق الأقليات فى بعض الوثائق الأخرى

نجد أن العديد من المنظمات، خاصة الجمعية العامة للأمم المتحدة، ومنظمة العمل الدولية، ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة للعلوم قد أصدرت العديد من المواثيق التى تمنع التمييز والفصل العنصرى بشكل عام، والتميز ضد الأقليات بشكل خاص من ذلك:

١ ـ إعلان الأمم المتحدة للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصرى والصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم ٢٠ نوفمبر عام ١٩٦٣ القرار رقم ١٩٠٤ (١٨٠).

٢ ـ الاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصرى، الجمعية العامة (٢٠٠) ٢١ ديسمبر ١٩٦٥.

٣ ـ الاتفاقية الدولية لقمع جريمة التمييز العنصرى والمعاقبة عليها قرار الجمعية العامة رقم ٣٠٦٨ (٢٨٠) نوفمبر ١٩٧٣.

٤ ـ اتفاقية منع التمييز فى مجال الاستخدام والمهنة، المؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية يونيو ١٩٥٨.

٥ ـ اتفاقية منع التمييز فى مجال التعليم، المؤتمر العام لليونسكو فى ديسمبر ١٩٦٠.

٦ ـ الاتفاقية الخاصة بالمساواة فى الأجور، المؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية فى يونيو ١٩٥١.

٧ ـ الاتفاقية الخاصة بالقضاء على أشكال التمييز ضد المرأة، الجمعية العامة للأمم المتحدة ديسمبر ١٩٧٩.

٨ ـ إعلان بشأن العنصر والتمييز العنصرى، المؤتمر العام لليونسكو فى دورته العشرين نوفمبر ١٩٧٨.

٩ ـ إعلان بشأن القضاء على جميع أشكال التعصب والتمييز القائم على أساس الدين أو المعتقد.

١٠ ـ إعلان بشأن المبادئ الأساسية الخاصة باستخدام وسائل الإعلام فى دعم السلام والتفاهم، وتقرير حقوق الإنسان ومكافحة العنصرية، المؤتمر العام لليونسكو فى نوفمبر ١٩٧٨.

وسأقف على بعض ما ورد فى هذه الإعلانات والاتفاقيات مما يتصل بحقوق الأقليات فى الدول التى يتواجدون فيها، وأهم هذه الإعلانات هو الإعلان الصادر من اليونسكو بشأن العنصر والتمييز العنصرى فى نوفمبر عام ١٩٧٨.

فالمادة التاسعة من هذا الإعـلان يتضمن حقوقًا واضحة للأقليات فـقد جرى بنصها على النحو الآتي:

١ - إن مبدأ تساوى جـميع الناس وجميع الشعوب فى الكرامـة والحقوق، بصرف النظر عن العنصر أو اللون أو الأصل، مبدأ من مبادئ القـانون الدولى مقبول ومعترف به عمـومًا. وتبعًـا لذلك فإن أى شكل من أشكال التـمييـز العنصرى تمارسـه دولة ما يشكل انتهاكًا للقانون الدولى يستتبع مسؤوليتها الدولية.

٢ - يتوجب، حيـثما كان ذلك ضروريًا، اتخـاذ تدابير خاصة تكفل للأفراد والجـامعات المساواة فى الكرامة والحقوق، مع تفادى وَسْم تلك الـتدابير بطابع تبدو معه منطوية على تمييز عنصرى. وفى هذا الشأن ينبغى إيلاء عناية خـاصة للجماعات العنصرية أو الإثنية المتحيّفـة اجتماعيًا أو اقتصاديًا بحيث تكـفل لها، على قدم المساواة الكلية مع غيرها من الجماعـات ودونما تمييز أو تقييد، حماية القـوانين والأنظمة والانتفاع بمزايا التـدابير الاجـتمـاعـية النافـذة، ولاسيـما فـى مجـالات الاسكان والعمـالة والصحـة، وبحيث تحتـرم أصالة ثقافـتها وقـيمهـا، وبحيث تيـسر لها سـبل الترقى الاجتماعى والمهنى، وخصوصًا عن طريق التعليم.

٣- ينبغى أن يتـاح لجماعات السكان الأجـنبية الأصل، وخصـوصًا للعمال المهـاجرين وأفراد أسـرهم الذين يسهـمون فى تنمـية البلد المضيـف، الانتفاع بتـدابير مناسـبة تستهدف ضمان أمنها واحـترام كرامتها وقيمها الثقافيـة، وتيسر تكيّفها مع الوسط الذى يستقبلها، وكفالة الترقى المهني لها، لكى يتمكن أفرادها، لدى عودتهم لاحقًا إلى بلدهم الأصلى، من الاندماج فيه والإسهام فى تنميته. كما ينبغى أن تيسر لأبناء هذه الجماعات إمكانيات تعلم لغتهم الأصلية.

٤ - إن أوجه اختلال التوازن فى العلاقات الاقـتصادية الدولية تسهم فى تفاقم العنصرية والتحـيز العنصرى، ومن ثم يـنبغى لجمـيع الدول أن تسعى إلى الإسهـام فى إعادة تشكيل النظام الاقتصادى الدولى على أساس أكثر إنصافًا.

والحقوق التى توردها هذه المادة للأقليات واضحة هى:

١ - حماية القوانين والأنظمة فى داخل الدول التى يقيمون فيها دون أى تفرقة بينهم وبين المواطنين.

٢ - الحق فى الانتفاع بمزايا التدابير الاجتماعية المقررة فى هذه الدول وعلى سبيل المثال المساواة مع غيرهم.

٣ - أن تكون لهم مزايا التأمين الصحى، والمزايا التى تمنحها الدول للمواطنين فى مجالات العمالة والاسكان والصحة.

٤ - الحق فى احترام القيم والثقافة الخاصة بهم، كما يجب أن يتيسر لهم سبل الترقى الاجتماعى والمهنى وخاصة عن طريق التعليم.

٥ - نص الإعلان على حقوق أخرى للأقليات تتصل بضمان أمنها واحترام كرامتها وقيمها الثقافية، ويهمنى هنا النص الصريح على حقها فى تيسير تعليم لغتهم الأصلية لابنائهم وتؤكد الفقرة الأولى من هذه المادة على مبدأ قانونى هام وتعتبره من مبادىء القانون الدولى، وهو مبدأ تساوى جميع الشعوب وجميع الناس فى الكرامة والحقوق بصرف النظر عن اللون أو العنصر أو الأصل، وترتب على ذلك المسئولية الدولية للدولة إذا انتهكت هذا المبدأ والمسئولية الدولية تتضمن إمكان محاكمة من ينتهك المبدأ من المسئولين فيها، أو حتى من أفراد الشعب، وقد اعتبرت العنصرية جريمة دولية تستحق العقاب عليها بمقتضى إتفاقية صدرت من الأمم المتحدة.

والواقع أن هذا الإعلان لا يكتفى ببيان حقوق الأقليات وإعلانها، وإسباغ الصفة القانونية عليها، بل أنه يتضمن العديد من الأفكار البناءة بشأن أسباب العنصرية، ودورها فى تهديد البشرية ونشوب الحرب، وسنتعرض لبعض ما ورد فى هذا الإعلان من مبادئ لأهميتها الفائقة.

● المساواة بين البشر فى مفهوم اليونسكو:

تعلن ديباجة الإعلان أن الحرب العالمية قد نشبت بسبب التنكر للمبادئ الديمقراطية مبادئ كرامة البشر وتساويهم والاحترام المتبادل فيما بينهم، وبسبب الترويج لمذهب تفاوت البشر والتمييز العنصرى.

وتعلن اليونسكو إقتناعها التام بأن وحدة الجنس البشرى فى جوهره، وبالتالى المساواة الأصلية بين جميع الناس وجميع الشعوب، اللتين يعترف بهما فى أنبل صيغ الفلسفة والأخلاق والدين لتكونان مثلاً أعلى يتجه إلى الالتقاء عنده اليوم العلم والأخلاق.

كما تقتنع اليونسكو بحق الاختلاف، وترى مختلف الشعوب تسهم كل وفقًا عبقريته الخاصة، فى تقدم الحضارات والثقافات التى تشكل فى تعددها، وبفضل تداخلها التراث المشترك للإنسانية.

وتقول المادة الأولى من الإعلان إن البشر ينتمون جميعًا إلى نوع واحد وينحدرون من أصل مشترك واحد وهم يولدون متساوين فى الكرامة والحقوق.

كما تعلن هذه المادة أنه لجميع الأفراد والجماعات الحق فى أن يكونوا مغايرين بعضهم لبعض، وفى أن ينظروا إلى أنفسهم،وفى أن ينظر الناس لهم هذه النظرة، بشرط ألا يؤدى ذلك إلى أى تحبيذ أى فكر عنصرى.

كما أن هذا الإعلان يتعرض لقضايا علمية هامة هى:

- إن الفروق بين الجماعات والأفراد ترجع إلى عوامل جغرافية وتاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ولا يجوز أن تتخذ ذريعة لأى تصنيف متفاوت المراتب للأمم والشعوب، وإن كل النظريات التى تقوم على العنصرية تفتقد أى أساس علمى.
- تعارض العنصرية مع مقتضيات قيام نظام دولى يتسم بالعدل.
- تعارض العنصرية مع مبادئ حقوق الإنسان وحرياته ونص مبدأ المساواة فى الكرامة والحقوق وبالتالى لا يمكن قبوله.
- أن الفصل العنصرى يمثل جريمة ضد الإنسانية وضد ضمير البشر وكرامته.



المبحث الرابع
نموذج اجتهادى للعلاقة التى يجب أن تكون بين المسلم والدولة التى يعيش فيها

إن عدد المسلمين فى أوروبا يصل إلى حوالى عشرين مليون مسلم، وهم الآن فى تزايد مستمر، ومن المحتمل أن يتضاعف هذا العدد خلال سنوات قليلة. وقد أصبحوا يمثلون شريحة حية فى المجتمع الأوروبى وتبوأوا مكانًا مهمًا فى أوروبا، كما أن أبناء المسلمين باتوا يشكلون نسبة كبيرة من طلاب المدارس والجامعات الأوروبية.

إن المسلمين يمارسون الحريات الإسلامية فى مختلف المجتمعات الأوروبية وعلى رأسها ما يتصل بالعقيدة، وبالرأى والتعبير وسائر الحقوق التى يكفلها الاتحاد الأوروبى للمواطنين الأوروبيين وعلى قدم المساواة.

لذا، باتت الشروط التالية دستورًا للعلاقة بين المسلم والدولة التى يعيش فيها:

١- على المسلمين أن يتعاونوا فيما بينهم على التعامل وفقًا للقيم والمبادىء الإسلامية، وأن يتواصلوا دائمًا بالحق والصبر فى حماية هذه القيم والمبادىء وفى إقامة أركان الإسلام وشعائره.

٢- يجب على المسلمين أن يحافظوا على هويتهم والسمات المميزة لهم، باعتبارهم خير أمة أخرجت للناس، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا يخل ذلك بالواجب الملقى عليهم باعتبارهم مواطنين أو مقيمين فى احترام القوانين الخاصة بالمجتمع الذى يعيشون فيه، كما أن ذلك لا يمنع من التفاعل مع الميادين الجديدة لحكم العلاقات الدولية فى ظل العولمة.

٣- يجب على المسلمين الاندماج فى المجتمع الذى يعيشون فيه، وأن يتعلموا لغته، وأن يتفتحوا على مختلف وجوه الحياة فيه، كما يجب عليهم أن يؤهلوا أنفسهم لتولى

مسئوليات أساسية وفعالة فى هذه المجتمعات دون أن يؤثر ذلك على تحكمهم بدينهم.

٤ - يجب أن يكون المسلمون فى أوروبا جسوراً للتواصل بين المجتمع الأوروبى والمجتمعات الإسلامية بما يحقق المصالح المشتركة للبلاد الأوروبية والبلاد الإسلامية وينمى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بينهم.

٥ - يجب على الدول الأوروبى التى تعيش فيها التجمعات الإسلامية أن تسهل لهم سبل ممارسة الحقوق والحريات المعترف بها فى المواثيق الأوروبية والدولية، خاصة فى مجال بناء المساجد، وتخصيص الأماكن المناسبة للصلاة اليومية وصلاة الجمعة والأعياد، والسماح لهم بإجازات مدفوعة الأجر فى أعيادهم الدينية، كما أنه ينبغى على تلك الدول مساعدة المسلمين على الاندماج دون الذوبان فيها فى أعمال منتجة ومشروعات مشتركة.

٦ - يجب على الدول الأوروبية أن تسمح بتدريس التربية الدينية لأبناء المسلمين فى مختلف مراحل الدراسة فيها، وكذا أن تسمح بإنشاء مدارس يقيمها المسلمون لتعليم الدراسات الإسلامية واللغة العربية والحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى.

٧- هناك أهمية قصوى فى إنشاء هيئات علمية متخصصة فى الدراسات الجامعية والدراسات العليا فى أوروبا تعنى بالدراسات الإسلامية بمختلف فروعها، مع الاعتراف بشهاداتها وتسهيل حق الالتحاق بالوظائف العامة وممارسة مختلف الأعمال لخريجيها.

٨- على أجهزة الإعلام التى تصدر فى أوروبا الكف عن الإساءة إلى الإسلام والمسلمين، والسماح لهم بحرية التعبير عن أنفسهم وعن عقيدتهم خلال مدد محدودة فى أجهزة الإعلام الرسمية.

٩- إن الإسلام دين سلام وسماحة بين مختلف الناس ويدعو المسلمين من مختلف مصادره إلى التعارف مع غيرهم والتعاون معهم.

١٠ - ضرورة وجود هيئة إسلامية تمثيلية للمسلمين لدى الاتحاد الأوروبى أسوة بالهيئة التمثيلية للكاثوليك والبروتستانت واليهود، وذلك حتى يمكن التشاور معهم فيما يخص التشريعات الخاصة بأمور الأقليات فى أوروبا وما يخص شئون المسلمين.

١١ - على الجاليات الإسلامية المقيمة فى أوروبا أن تتمسك بمبادىء وقيم تعاليم الدين الإسلامى، وأن تتعاون فيما بينها على البر والتقوى، وأن يبتعدوا عن الشقاق وسوء الأخلاق؛ ليمثلوا القدوة الحسنة فى المجتمعات التى يعيشون فيها.

١٢ - يجب إسقاط كل دعاوى الإرهاب والاتهام بمعاداة الغير التى تلصق بالإسلام زوراً وبدون أى أساس. وبناء على ذلك فإن من يمارس إرهاب الغير أو تخويفه بعيد عن الإسلام وتعاليمه وأحكامه ويستحق العقاب إعمالاً لقوله تعالى:: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة:٣٣].

وبعد، فقد تناولنا فى هذه الدراسة العلاقة التى يجب أن تقوم بين المسلمين والآخر فى دار الإسلام، وفى الدول الحديثة، سواء أكانت من ديار الإسلام أو من غيرهم. وقد استبان من هذه الدراسة الحقائق الآتية:

١ - قاعدة المساواة بين المسلمين وغيرهم فى كافة الحقوق والالتزامات، وإن كانت هذه المساواة ليست حسابية، بل نوعية وتحتمل تمتع غير المسلمين بشكل عام بكافة الحقوق والالتزامات، وإن كانت وظيفة الخلافة أو الولاية العامة تقتصر على المسلمين وبالشروط التى حددها الفقهاء.

٢- أن هذه القواعد تعتبر مرجعية للمسلمين فى التعامل مع غير المسلمين فى كل وقت وحين، كما إنها تعتبر مصدراً لكثير من القواعد التى تقررت فى الوثائق الدولية لحقوق الإنسان، والتى صدرت وتصدر بكثرة من المنظمات الدولية التى انضمت إليها سائر الدول الإسلامية.

٣- أن المسلمين يجب أن يطوروا هذه الوثائق، وأن يتمسكوا بتطبيقها فى كل مكان، وأن ينبهوا اللجان والهيئات المعنية بمراقبة هذه الحقوق إلى أى خرق أو تجاوز لها، ويجب أن يشكلوا لجانًا فى مختلف الدول التى يعيشون فيها لمراجعة التشريعات والتدابير والإجراءات الأخرى الماسة بحقوقهم، ولفت النظر إليها، والإصرار على تعديلها بمعاونة الدول الإسلامية والمجتمع الدولى بشكل عام.

٤- يجب أن يكون المسلمون فى بلاد الأقليات الإسلامية قدوة لغيرهم، وأن يلتزموا بالسلوك الإسلامى، وأن يكونوا دعاة للهداية والأعمال المفيدة لدينهم وللبلاد التى يعيشون فيها فى نفس الوقت، وأن يكونوا ممثلين حقيقيين للإسلام فى هذه البلاد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،،

* * *



القسم الثانى

الإســـلام والحـــوار

الفصل الرابع
مدخل إلى الحوار

المبحث الأول: تعريفات ومفاهيم

المبحث الثاني: مشروعية الحوار

المبحث الثالث: أهمية الحوار

المبحث الرابع: أهداف الحوار

المبحث الأول
تعريفات ومفاهيم

بداية يحسن أن ندرك أن الحقائق الظاهرة يلمسها الإنسان، وتنطق بها شواهد الكون، ولا تحتاج إلى برهان على ثبوتها، أو دليل على صحتها، ولكن قد يحتاج البعض إلى حوار هادئ يبصره بهذه الحقيقة.

وحاجتنا إلى الحوار حاجة ماسة فى مجالات شتى، وأهداف متعددة، وقبل التحدث عن ذلك علينا أن نتعرف على مواطن ورود الحوار فى القرآن الكريم.

ونحن إذا تتبعنا لفظ الحوار فى القرآن الكريم وجدنا: أنه قد جاء فى ثلاثة مواضع:

١ -﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾[الكهف:٣٤].

٢ـ ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾[الكهف:٣٧].

٣-﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾[المجادلة:١].

وأكثر ما جاء فى القرآن من أقوال وأحداث قصصية، كان الحوار هو طريق عرضها، ولكى نعرف المقصود من كلمة "الحوار" نعرض لمفهوم كلمة حوار لغة واصطلاحا، ونفرق بينها وبين مفاهيم أخرى كالجدل، والمحاجة، والمناظرة.

الحوار فى اللغة: أصله من الحَوْر ـ بفتح الحاء وسكون الواو ـ وهو الرجوع عن الشىء، وإلى الشىء. قال لبيد:

يحور رمادا بعد إذ هو ساطع　　　وما المرء إلا كالشهاب وضوئه

ويقال: حار بمعنى رجع. وهم يتحاورون أى يتراجعون، وحاورته: راجعته الكلام. والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام فى المخاطبة: وكلمته فما حار جوابا[1].

قال الأخطل:

ولقد سألت فما أحرت سؤالا[2] هل ربعت فتسأل الأطلال

فالحوار هو المراجعة فى الكلام. قال القرطبى: "والله يسمع تحاوركما" تحاورك أى تراجعك الكلام[3].

ويقول الإمام الزمخشرى: يحاوره: أى يراجعه الكلام، من حار يحور إذا رجع فما أحار كلمة[4].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [الإنشقاق:١٤]. أى يرجع إلى ربه. ويأتى الحوار بمعنى المجاوبة، والتحاور التجاوب. ويقال كلمته فما أحار إلى جوابا، وما رجع إلى حويراء ولا محورة ولا حوارا. أى ما رد جوابا[5].

وأحار عليه جوابه: رده وأحرت له جوابا، وما أحرت بكلمة. والاسم من المحاورة. وفى القاموس المحيط: المحاورة: الجواب، وتحاوروا: تراجعوا الكلام بينهم، والتحاور التجاوب[6].

ويأتى الحوار بمعنى المخاطبة، يقول الطبرى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾[الكهف:٣٧]. وهو يخاطبه ويكلمه[7].

فالخطاب أصله الكلام بين اثنين فحاوره: راجعه فى المنطق والكلام فى المخاطبة.

وخاطبه مخاطبة: كلمه وراجعه فى الكلام، وتخاطبا: تراجعا وتكالما. والخطاب ما يكلم الرجل به صاحبه.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، جـ ٤، ص ٢١٧، والفيروز آبادى: القاموس المحيط، جـ٢، ص ١٥ .

(٢) الزمخشرى: أساس البلاغة، ص ١٤٦ . (٣) القرطبى: الجامع لأحكام القرآن، جـ ١٧، ص ٢٧٢ .

(٤) الزمخشرى: الكشاف، جـ ٤، ص ٤٨٤ . (٥) الجوهرى: الصحاح، جـ ٢، ص ٦٣٨ .

(٦) الجوهرى: القاموس المحيط، جـ ٢، ص ١٦ . (٧) الطبرى: جامع البيان، جـ ١٥، ص ٤٧ .

إن الحوار هو تراجع الكلام، والتجاوب فيه بالمخاطبة، والرد. وهذا عبر عنه القرآن الكريم فى المواضع الثلاثة السابق ذكرها.

ويظهر من هذه المواضع التى جاء فيها ذكر كلمة الحوار: أن الحوار فيها هو مراجعة الكلام، وتداوله بين طرفين، والأخذ والرد،وتراجع الكلام والمخاطبة والمجاوبة فيه. ويمكن أن نقول بناء على هذا: إن الحوار له معان: المراجعة والتجاوب، والخطاب[1].

وقد ذكر الباحثون: أن الحوار اصطلاحا: نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين. يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر. ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب[2].

وهو ضرب من الأدب وأسلوب من أساليبه، وحالة من التفاعل والتجاوب. والمجادلة: من الجدل وهو شدة الفتل. ويقال: جدلت الحبل أجدله جدلا إذا شددت فتله، وفتلته فتلا محكما. ومنه قيل لزمام الناقة: الجديل. فالجديل هو الزمام المجدول من آدم. ومنه قول امرئ القيس:

وساق كأنبوب السقى المذلل ... وكشح لطيف كالجديل مخصر

والتحاور: التجاب. لذلك كان لا مندوحة فى الحوار من متكلم ومخاطب. ولابد فيه من مراجعة الكلام وتبادله وتداوله. وغاية الحوار: توليد الأفكار الجديدة فى ذهن المتكلم.

والجدل: اللدد فى الخصومة، والقدرة عليها[3].

إذن أصل مادة الجدل فى اللغة: تدل على الشدة والقوة: ويقصد بالجدل شدة الخصومة، واللدد مع القدرة عليها[4].

---

(١) الأصبهانى: المفردات، ص ١٥٠ .

(٢) الندوة العالمية للشباب: فى أصول الحوار، ص ١١، ط٢، الرياض، ١٤٠٨هـ .

(٣) الجوهرى: الصحاح، جـ ٤، ص ١٦٥٣ .

(٤) د . يحيى زمزمى: الحوار فى ضوء الكتاب والسنة، ص٢٣، ط دار التربية، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ .

أما الجدال فى الاصطلاح: فهو دفع المرء خصمه قصد إفساد قوله بحجة، أو شبهه، أو يقصد به تصحيح كلامه. وهو الخصومة فى الحقيقة[1].

وقال صاحب المصباح المنير بعد أن عرفه لغة: ثم استعمل على لسان حملة الشرع فى تعامله الأدلة لظهور أرجحها[2].

وقد يكون معلوما: أن لفظ الجدل ورد فى القرآن الكريم تسعا وعشرين مرة، كلها فى سياق الذم إلا فى ثلاثة مواضع:

أحدها: قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥].

والموضع الثانى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[العنكبوت:٤٦].

والموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١].

أما بقية المواضع التى ذكرت فيها كلمة الجدال فى القرآن الكريم. فإما أن تكون فى سياق عدم الرضا عن الجدل، وإما عدم جدواه[3]، أو فقدانه شرطا أساسيا فى طلب الحق ويكون بغير علم أو نحوه.

أما فى السنة النبوية؛ فقد بوب الأئمة، فى كتبهم، بما يدل على كراهية الجدل؛ لأنه فى الأصل: فن الخصومة والشدة.

ومن ذلك ما بوب به أبو داود فى سننه فى كتاب السنة. قال: باب النهى عن الجدال فى القرآن. وذكر فيه قول الرسول ﷺ: "المراء فى القرآن كفر"[4]، وكذلك

(١) الجرجانى: التعريفات، ص ٧٨ .

(٢) المقرى: المصباح المنير، ص ٣٦ .

(٣) الندوة العالمية للشباب: فى أصول الحوار، ص ١٢ .

(٤) أبو داود: السنن كتاب السنة، جـ ٤، ص ١٩٩، رقم ٤٦٠٣ .

ما ذكره ابن ماجة فى مقدم السنن قال: "باب اجتناب البدع والجدل" وذكر فيه جديث عائشة -رضى الله عنها- قالت: تلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[آل عمران:٧]. إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[آل عمران:٧]، فقال يا عائشة: إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله فاحذروهم[(١)].

وذكر ابن ماجة كذلك قوله ﷺ: "ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل" ثم تلى هذه الآية: ﴿إن هم إلا قوم خصمون﴾[(٢)].

فهذه الأحاديث تدل على معنى الجدل بالباطل واللدد فى الخصومة.

ويبدو لنا: أنه وردت نصوص فى القرآن الكريم أطلقت فيها المجادلة على المحاورة ونحوها. من ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي﴾ [المجادلة:١] ،فأطلق الجدال والحوار على شيء واحد وهو مراجعة الكلام بين النبى ﷺ وبين خولة بنت ثعلبة -رضى الله عنها-.

ومثله ما جاء فى النسائى من قوله ﷺ: "ما مجادلة أحكم فى الحق يكون له فى الدنيا بأشد من مجادلة المؤمنين لربهم فى إخوانهم الذين أدخلوا النار"[(٣)].

فالحديث كما ترى. قد بين أن المجادلة قد تكون فى الحق وهى عندئذ مذمومة[(٤)].

فالجدال لم يؤمر به، ولم يمدح فى القرآن الكريم أو السنة على إطلاقه. وإنما الممدوح منه ما قيد بالحسنى أو بالحق. كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥]..

(١) ابن ماجة: السنن فى المقدمة، جـ ١، ص ١٨، حديث ٤٧ .

(٢) ابن ماجة: السنن فى المقدمة، جـ ١، ص ١٨، حديث ٤٨ .

(٣) النسائى: السنن كتاب الايمان، جـ ١، ص ١١٢ .

(٤) د . يحيى الزمزمى: الحوار فى ضوء الكتاب والسنة، ص ٢٥، ٢٦ .

وقوله: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]. وأن الأصل فى الجدل أنه مذموم ما لم يقيد. ولعل من المفيد أن نتعرف على الفرق بين الحوار والجدال؛ فالحوار والجدال يلتقيان فى أنهما حديث أو مناقشة بين طرفين. ولكنهما يفترقان بعد ذلك.

أما الجدال فهو فى الأغلب: اللدد فى الخصومة، وما يتصل بذلك. ولكن فى إطار التخاصم بالكلام. فالجدال والمجادلة والجدل. كل ذلك ينحو منحى الخصومة. ولو بمعنى العناد والتمسك بالرأى والتعصب له.

وأما الحوار، والمحاورة، فهو مراجعة الكلام والحديث بين طرفين. ينتقل من الأول إلى الثانى ثم يعود إلى الأول وهكذا. دون أن يكون بين هذين الطرفين ما يدل بالضرورة على وجوب الخصومة(١).

وفى القرآن الكريم ما يدل على الفرق بين الحوار والجدال. حيث نجد أن القرآن الكريم يستعمل الجدال فى المواضع غير المرضى عنها، أو غير المجدية كقوله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[العنكبوت:٤٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[الحج:٨]. أما المحاورة فقد وردت فى القرآن الكريم على أنها مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين.

والحوار يرد فى القرآن الكريم فى مواطن كثيرة جدا، وإن لم تستعمل مادة الحوار نفسها. فالحوار والجدال: مراجعة للكلام بين الطرفين. لكن الجدل فيه لدد وخصومة وشدة وتعصب للرأى، وإلزام للطرف الآخر، وعدم بحث عن الحق. بينما الحوار مجرد مراجعة للكلام بين طرفين دون وجود خصومة أو تعصب للرأى. فالحوار والجدال بينهما عموم وخصوص(٢).

وإذا كان الحوار تجاوبا بين الأضداد كالمجرد والمشخص، والمعقول والمحسوس سمى جدلا والجدل هو النقاش والخصومة. والحوار فى المنطق: قياس مؤلف من مقدمات البرهان(٣).

(١) الندوة العالمية للشباب: فى أصول الحوار، ص ١٢ .

(٢) سناء محمود: الحوار فى القرآن، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤٢٠هـ ص ٣٠ .

(٣) انظر: حسين حمادة، الحوار القرآنى، مجلة المعارك. ج، المجلد الأول، ع ٨، ص ٣٦، بيروت، سنة ١٤١٢هـ .

والجدل أصلا هو فن الحوار والمناقشة. قال أفلاطون: "الجدلى هو الذى يحسن السؤال والجواب، وغايته الارتقاء من تصور إلى تصور، ومن قول إلى قول للوصول إلى أعم التصورات، وأعلى المبادئ".

واقتبس المحدثون عن أفلاطون. فأطلقوا الجدل على الارتقاء من المدركات الحسية إلى المعانى العقلية، ومن المعانى الشخصية إلى الحقائق المجردة، ومن الأمور الجزئية إلى الأمور الكلية.

وقبل أفلاطون زعم سقراط: أن العلم لا يعلم، ولا يدون فى الكتب. بل يكشف بطرق الحوار[1]. ويذكر العلماء: أن قاعدة القواعد فى النظام الكونى هى حوار الكائنات -وإن جامدة- لتأخذ بعضها من بعض، وتعطى بعضها البعض كما هى طبيعة الحاجة، فيكون الانسجام والشد والعقد والاستمرار.

فالحوار ليس قصرا على الكلمات اللسانية المسموعة، إنما قد يتجاوز إلى الإشارة الموضحة، والبسمة المشرقة، والحس الخافق، والعمل الصالح، والموقف الصالح حتى السمت لا يبعد أحياناً أن يتأتى حوارا.

ومن البداهة القول: بأن الإنسان كائن عقل واجتماع. كائن علاقة وحاجة، ومن البداهة القول: أن هذه الأحوال أحوج حاجاتها: اللقاءات المتحاورة. ليكون المجتمع على بينة من أمر علاقاته، وعلى تناسق مؤتلف، وتفاهم واع، وترابط معقود[2]. وهذا هو أصل مفهوم الحوار.

---

(١) المصدر السابق، ع ٨، ص ٣٧، بتصرف واختصار.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٧.

المبحث الثانى
مشروعية الحوار

تعرضت آيات القرآن الكريم فى مواضع شتى للحوار بأساليب مختلفة، ففى بعض الآيات تظهر الدعوة إلى الحوار، أو إلى شىء من مستلزماته وأصوله، وفى نصوص أخرى حث على التزام آداب عامة للحوار، وفى قسم منها بيان آداب خاصة من آداب الحوار، وفى قسم منها نماذج وأمثلة للحوار.

فمن النصوص العامة التى وضعت مقومات الحوار، وأصوله، وشروط الانتفاع به قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[سبأ:٤٦].

تأتى هذه الآية ردا على المشركين الذين طعنوا فى النبى ﷺ دون تدبر أو تفكير فاتهموه بالكذب تارة، وبالسحر تارة أخرى، كما فى الآيات قبلها: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[سبأ:٤٣].

فأقام الله-عز وجل- هذه الموعظة العظيمة التى من أخذها بجميع مقوماتها فلابد أن يصل إلى الحق، وهذه المقومات هى:

١ ـ القيام لله تعالى: ﴿بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾[سبأ:٤٦]. .وهو الإخلاص والتجرد فى طلب الحق.

وهذا شرط أساسى لكل عمل، وبدونه يفسد العمل ولا يوفق فيه صاحبه ولا يبارك فيه، فالإخلاص فى البحث عن الحق والصدق فى طلبه شرط للوصول إلى ذلك الحق.

وعندما يغيب الإخلاص ينعدم الانقياد إلى الحق. ولو كان مثل فلق الصبح؛ لأن

من تعلق قصده بغير وجه ربه-عز وجل-، ثقل عليه الانقياد للحق، وقصرت همته عن بلوغه العمل به، وعندما يوجد الإخلاص فى القصد والصفاء فى النية والتجرد لاتباع الحق، يسهل على صاحبه الانقياد له عند ظهوره، ولو على لسان مخالفه؛ لأنه يعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل.

وهذا الأصل يدخل تحته عدد من الآداب مثل: تصحيح النية، وحسن الاستماع والتسليم بالخطأ،والرجوع إلى الحق والتواضع، وتجنب الكذب، والمراوغة، والأمانة، والإنصاف والعدل، والهدوء، وضبط النفس، وعدم الغضب، وتجنب الهزء، والسخرية بالطرف الآخر وغير ذلك[1].

٢ ـ مراجعة النفس على انفراد أو مع الآخرين: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ [سبأ:٤٦]، والالتزام بهذا الشرط يقضى على عامل مهم من العوامل التى تغطى الحق، أو تشوه وجهه، وذلك فى مثل الأجواء الجماعية والجماهير الجاهلة، والتى غالبا ما تتصف بالغوغائية والتقليد الأعمى، واتباع كل ناعق من رؤوس الضلال؛ مما يؤدى بطالب الحق المخلص إلى اتباع الأكثرية من الناس، متهما نفسه، ظانا أن الحق مع الأكثرية.

وهذا الأصل أيضا يدخل تحته عدة أمور تجب مراعاتها، مثل مراعاة الجو المحيط بالحوار، والظروف النفسية والاجتماعية للطرفين، والتعارف قبل الحوار، والتحدى والإقحام، والمحافظة على هدف الحوار والوصول إلى نتيجته .

٣ ـ التفكر فيما يقوله المخالف: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦]. وهذا الأصل هو الوسيلة الأساسية للوصول إلى الحق بعد الالتزام بالشرطين السابقين، فالتفكير والعلم وإمعان الرأى هو المتمم لهذا المنهج الإلهى للوصول إلى الحق، وتبين الهدى من الضلال، لأن أداة التفكير الأساسية هى العلم بحال القضية المختلف فيها ومعرفة ملابساتها.

---

(١) الدكتور أحمد السايح، معالم قرآنية ص٦٠ ،ط دار الندى . القاهرة .

والمقصود بالتفكر هو البحث عن الأدلة الشرعية العلمية والتحقق من ثبوتها ودلالاتها على المراد، والجاهل بذلك كله لا يستطيع الوصول إلى الحق فيوجه التقليد الأعمى دون فكر أو نظر.

ويدخل تحت هذا الأصل عدد من الآداب العلمية مثل البيان: وحسن العرض، والتثبت، والتوثيق، والبدء بمواطن الاتفاق، وطلب الدليل والمبادرة به، والتسليم بالحق والبدء بالأهم، وغير ذلك.

وتظهر أهمية تلك المقومات والأصول فى كلام علماء التفسير ـ رحمهم الله تعالى ـ عن هذه الآية ومن ذلك:

قال الطبرى -رحمه الله-: وقيل: إنما قيل: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ وتلك الواحدة أن تقوموا لله بالنصيحة، وترك الهوى ﴿مَثْنَىٰ﴾ يقول: يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان على المناظرة، هل علمتم بمحمد ﷺ جنونا قط، ثم ينفرد كل واحد منكم، فيفكر ويعتبر فردا هل كان ذلك به، فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم(١).

ويقول الزمخشرى: والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم، وهى لوجه الله خالصاً، متفرقين اثنين وواحداً ،ثم تتفكرون فى أمر محمد ﷺ وما جاء به.

أما الاثنان فيفكران ويعرض كل واحدة منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظرة متصادقين متناصفين، لا يميلان إلى اتباع الهوى، ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح، والنظر الصحيح، على جادة الحق وسننه، وكذلك الفرد يفكر فى نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجارى أحوالهم. والذى أوجب تفريقهم مثنى وفرادى: أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمى البصائر،

(١) الطبرى: (٢٢/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

ويمنع من الرؤية ويخلط القول، ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف ويثور عجاج الغضب ولا يسمع إلا نصرة المذهب.(١)

فظاهر من كلام الطبرى، وكذلك الزمخشرى: أن الآية فيها دعوى واشارة إلى المناظرة والمحاورة مع مراعاة الأصول والمقومات التى تحقق الهدف، وتثمر النتيجة، كما أشار غيرهما إلى المعنى نفسه. والمعنى: أن التى أعظكم بها: قيامكم وتشميركم لطلب الحق، وليس بالقيام على الأقدام، والمراد بقوله:" مثنى" أى يجتمع اثنان فيتناظران فى أمر رسول الله ﷺ والمراد" بفرادى" بأن يتفكر الرجل وحده.

ومعنى الكلام: ليتفكر الإنسان منكم وحده، وليخل بغيره وليتناظر وليستشير فيستدل بالمصنوعات على صانعها ويصدق الرسول على اتباعه.

والمراد هنا: أننى بخصلة واحده أشير عليكم بها، وانصح لكم فى سلوكها، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولى، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾ أى تنهضوا برحمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله، مجتمعين ومتباحثين فى ذلك، ومتناظرين فرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك حيث يدعوكم دعوه خالصه إلى منهج البحث عن الحق، ومعرفة الافتراء من الصدق، وتقدير الواقع الذى يواجهه من غير زيف ولا خلل:

(قل إنما أعظكم بواحدة .... الآية) إنها دعوى للقيام لله بعيداً عن الهوى، بعيداً عن المصلحة، بعيداً عن ملابسات الأرض، بعيداً عن الهواتف والدوافع التى تشتجر والتى فى القلب فتبعد به التأثر بالتيارات السائدة فى البيئة والمؤثرات الشائعة فى الجماعة .

دعوة إلى منطق الفكرة الهادئ الصافى، بعيداً عن الضجيج والخلط واللبس والرؤية المضطربة والغش الذى يحجب صفاء الحقيقة وهى فى الوقت ذاته منهج فى البحث عن الحقيقة، منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشى والمؤثرات وعلى مراقبة الله وتقواه.

(١) الإمام الزمخشرى: الكشاف (٢/ ٢٩٤) .

وهى واحدة إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق إلى الله .. لا لهوى ولا لمصلحه ولا لنتيجة ... التجرد .. والخلوص .. ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذى يواجهه القائمون لله المتجردون.

(أن تقوموا لله مثنى وفرادى) .. مثنى ليراجع أحدهما الآخر ويأخذ منه ويعطى فى غير تأثر بعقلية الجماهير التى تتبع الانفعال الطارئ ولا تلبث لتتبع الحجة فى هدوء .. وفرادى مع النفس وجهاً لوجه فى تمحيص هادئ عميق (ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنه) فما عرفتم منه إلا العقل والتدبر والرزانة وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده، إن هو إلا القول المحكم القوى المبين.[1]

وبعد هذه الأقوال من هؤلاء المفسرين- رحمهم الله- حول الآية الكريمة تبين أن القرآن عُنى بموضوع الحوار وأشار إليه ووضع أصوله ومقوماته العامة التى ينطلق من خلالها الباحث عن الحق.

وقريب من هذا ما قاله المفسرون فى قوله تعالى:﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[النحل:١٢٥] حيث قال الطبرى -رحمه الله-: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥]. يقول وخاصمهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى ولا تعصه فى القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك[2].

وقال الزمخشرى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف[3].

وقد بين الشوكانى -رحمه الله- أساليب الدعوة المذكورة فى الآية، حيث قال: ثم أمر سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يدعو أمته إلى الإسلام فقال:﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن الكريم (٥/ ٢٩١٤) .
(٢) الطبرى(١٤/ ٤٣٥) .
(٣) الكشاف: (٢/ ٤٣٥) .

رَبِّكَ﴾ وحذف المفعول لـلتعميم لكونه بعث إلى الناس كافة وسـبيل الله هو الإسلام (بالحكمة) أى بالمقالة المحكمـة الصحيحة. قـيل: هى الحجج القطعية المفيـدة لليقين(والموعظة الحسنة (وهى المقـالة المشتملة على الموعظة الحسنـة التى يستحسنهـا المستمع وتكون فى نفسه حسنة باعتبار انتفاع السامع بها.

قيل: الحـجج الظنية الإقناعيـة الموجبة للتـصديق بمقدمـات مقبـولة، وهما سبـيلا الدعوة ولكن الداعـى قد يحتـاج مع الخصم الألد إلى استـعمال المـعارضة والمناقـضة ونحو ذلك من الجدل ولهذا قـال سبحانه ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى بالطريق التى هى أحسن طرق المجـادلة، وإنما أمر سبحانـه بالمجادلة الحسنه لقول الداعى مـحقاً وغرضه صحيحاً وكان خصمه مبطلاً وغرضه فاسداً[1].

إذن لا تخلو هذه الآية من إشارة عامة إلى قضية الحوار وتنبيه على ضرورة مراعاة الأدب الحسن فيه.

وهنا يقول صـاحب الظلال فى بيان الآية ما نصه: والدعـوى بالحكمة والنظر فى أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذى يبينه لهم فى كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لهـا والطريقة التى يخاطبهم بها والتنوير فى هذه الطريقة حسب مقتضياتها فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة فى هذا كله وفى سواه وفى الموعـظة الحسنة التى تدخل إلى القلوب برفق وتتـعمق بلطف لا بالزجـر والتأنيب فى غـير مـوجب، ولا بفـضح الأخطاء التى قد تقع عن جـهل أو حسن نية فـإن الرفق والموعظة كثيراً ما يهدى القـلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة ويأتى بخـير من الزجر والتـأنيب والتوبيخ وبالجـدل بالتى هى أحسن بلا تحـامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح حتى يطمئن إلى الداعى ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدال ولكن الاقتناع والوصول إلى الحق.

فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها وهى لا تنزل عن الرأى الذى تدافع عنه إلا

(١) الإمام الشوكانى : فتح القدير(٣/ ٢٠٣) .

بالرفق حتى تشعر بالهزيمة وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتها هى عند الناس فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها.

والجدل بالحسنى هو الذى يشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة، وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة فى ذاتها، والاهتداء إليها فى سبيل الله لا فى سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمته الرأى الآخر(1).

خصائص الحوار القرآنى:

الحوار الجيد له شروط يجب تحققها بداية، ومنها:

١- شموله على أسلوب وصفى جيد.

٢- عدم الاستطراد فى تصوير الحوادث استطراداً مملاً بعيداً عن الواقع.

٣- التشويق الذى يدفع الباحث إلى متابعة الدراسة فى لهفة حتى النهاية.

والأسلوب الجيد يتطلب ذوقاً رفيعاً راقيا لمعانيه. ونحن فى حاجة إلى تطبيق هذه الشروط على الحوار القرآنى كى تتبين سماته وأهدافه.

فمن الثابت البين: أن من لم يحسن فهم القرآن فهماً صحيحاً لا تتم له فضائل هذا الدين(2).

فالمسلمون الأولون كانت سلائقهم قد سلمت. فمكنتهم أن يفهموا كلام الله فى يسر، وأن يدركوا ما وراء التراكيب من كوامن الأسرار، وأن يستشعروا سر إعجازه عند سماعه.

لقد اتجه العلماء إلى أن يربوا فى الناس قوة الحس البلاغى، وأن يعودوهم ذوق البيان حتى لا تستغلق عليهم أساليب القرآن(3).

(١) سيد قطب: الظلال (٤/ ٢٢٠٢).

(٢) الرافعى: إعجاز القرآن، ص١٠٤، ١٠٦.

(٣) الخطيب القزوينى: مقدمة الايضاح فى علوم البلاغه، ص٥.

وحوار القرآن يعتمد فى طريقة تعبيره عند تنسيق الحوادث على تصوير ابرز المواقف تاركاً بين المشاهد كثيراً من التفصيلات التى تعمل فيها الذاكرة أو يتصورها الخيال.

وقدرة القرآن الكريم على تجسيم المعانى وتصوير الخواطر وبراعته فى العرض والأداء إعجاز فى التعبير المركز القصير المشع بالإيحاءات تبعث الحياة فى الحوار وتحوله إلى صور حية وشخوص متحركة تنبض بالحياة[1].

فحوار القرآن واقعى وأسلوبه حقيقى وقد عرَّف عبد القاهر الجرجانى الحقيقة بأنها: كل كلمة أريد بها ما وضعت له[2] فى وضع واضح وإن شئت فقل فى مواضعه وقوعاً لا يستند إلى غيره. والأسلوب القرآنى- بعد هذا العرض لمعنى الحقيقة- أسلوب يعتمد على كثرة الحقائق وصحتها ووضوحها فالحقائق مع الكثرة والصحة والوضوح تتلون بلون الصورة وتشكل عنصراً من عناصر الصورة الأدبية .

فأسلوب القرآن فى الحوار أن يختار لقطات حية من الوقائع التاريخية ولا يثقلها بما هو تافه فى الجزيئات والتفاصيل التى تصرف الفكر عن التدبر والاعتبار كما يختار الرسام للمشاهد من الأشكال و الألوإن ومما يحقق له الانسجام إنه يروى بعض أحداث القصة بأسلوب يبعث فيها الحياة فتتخطى القرون ويجعلها كأنها مماثلة[3] كما فى قصة قوم لوط:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ

(١)محمد شديد: منهج القصة فى القرآن ، ص٤٤ .

(٢) الامام عبد القاهر: اسرار البلاغه ، ص٣٠٣

(٣) التهامى نقره: سيكولوجية القصة فى القرآن ، ص٨٧ .

أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[هود:٧٧-٨٣].

الشخصيات فى الحوار القرآنى

ويعتبر الحوار الوارد فى القرآن أروع وأعظم حوار على وجه الإطلاق، وبه من الإعجاز الفنى واللفظى والمعنوى ما أعجز البشر وخبراء لغة العرب على أن يأتوا بسورة من مثله.

وعند الحديث عن الشخصيات والأحداث فى القصص القرآنية. يجب أن نلاحظ أن العناصر المألوفة للقصة من أحداث وأشخاص وحوار وارتباط مكانى، وترتيب زمانى لا نجدها مجتمعه فى القصص غير القرآنية ولا موزعه توزيعاً بل لكل منها دور يختل بانعدامه توازن القصة، لأن المقاصد التى يوحى بها السياق - من قصص القرآن - هى التى توجه أسلوب العرض وتتحكم فى ترتيب الأحداث وتسلط الأضواء على العنصر المراد إبرازه[(١)].

فقد يكون القصد الإنذار والترهيب مثلاً، فيبرز عنصر الأحداث[(٢)]. قال تعالى:﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ

(١) سناء محمود عبد الله عابد: مرجع سابق، ص ٥٦ .

(٢) التهامى نقرة: سيكولوجية القصة فى القرآن، ص ٩٣ .

كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾[الحاقة:٧-٩].

وقد يكون القصد تثبيت الرسول والمؤمنين على الذى يدعون إليه. رغم ما يلقون فى سبيله من أهوال، فيبرز عنصر الأشخاص وتميزهم الأحداث التى ألمت بهم وما كانت من عاقبة يطمئن إليها المجاهدون.

قال تعالى: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[هود:٣١-٣٤].

وقد يكون القصد إقامه الحجة والإقناع بحكاية أقوال الخصم أو التعريف بشخصية ما والتعقيب عليها، فيبرز عنصر الحوار على طريقة الرواية للأقوال، ومن التعقيب على أقوال الخصم و محاجاتهم مثل الحوار الذى جرى بين نوح وقومه على نحو ما تقدم فى سورة هود: الآية ٣١-٣٤ .

وقد يأتى الحدث و الشخصية متساويين فى الأهمية فيكمل كل منهما الآخر: ويتناوبان على مركز الاهتمام[1] كما فى قصة موسى عليه السلام.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ

(١) التهامى نقرة: سيكولوجية القصة فى القرآن ، ص ٩٦ .

فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[القصص:٧-٩].

أما المكان والزمان: فهما عنصران مهمان فى الحوار بإلباسهما صورة من الواقع وتشخيصهما للأحداث فى جو البيئة التى جرت فيها، وكل ما يتصل بهذه البيئة من ظروف وعادات لها من التأثير فى أخلاق الأشخاص وتصرفاتهم.

إن الحوار القرآنى لا يعنيه من ذكر المكان إلا ما جعلت منه جمله الأحداث المهمة مسرحاً له مثل ذكر مصر فى حوار يوسف العزيز والملك، وفى غياهب السجن، وعلى عرش الحكم(١).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[يوسف:٢١]..

كما لا يعنيه من ذكر الزمان تحديد تاريخ الحادثة، ولا مدتها لكن قد يكون فى تعيينها أبعاد لقيمة الحادثة نفسها مثل المدة التى نامها أهل الكهف، قال تعالى:﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[الكهف:٢٥].

والمدة التى أمات الله فيها الرجل الذى مر على قرية. قال تعالى:﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾[البقرة:٢٥٩]

وقد نجد الحدث والشخصية مجتمعة مع بعضها أو موزعه:

فنرى عنصر الأحداث: هو العنصر البارز فى الحوار الذى يقصد به التخويف والإنذار كما فى قصة ثمود فى سورتى الشمس والقمر.

وعنصر الأشخاص هو العنصر البارز: إذا قصد الإيحاء أو تثبيت قلب النبى ﷺ فنلاحظ تعدد الشخصيات فى سورة الأعراف والشعراء.

(١) التهامى نقرة: سيكولوجية القصة فى القرآن، ص ٩٦ .

الشخصية:

ولا نقصد بها الإنسان إنما نقصد كل شخصية وقعت معها أحداث وصدرت عنها عبارات وأفكار أدت دوراً ايجابياً فى الحوار ومن الشخصيات: شخصية الملائكة والجن والحيوانات والناس .

أما الحيوانات والحشرات:

فقد ذكر منهم القرآن جمله مثل: الحمار، والكلب، والبقرة، والغراب. لكن الحوار لم يرد إلا فى بعض الطيور والحشرات مثل: الهدهد والنملة، ونرى أن القرآن عندما يتحدث عنهم يذكر أن الحيوانات تقوم بما يقوم به الشخص العادى، فقد تحدثت النملة، وتحدث الهدهد، كلٍ بلغته وفهمه سليمان؛ لأن الله قد علمه منطقهما.

والملائكة والجن:

يذكرهم الله سبحانه وتعالى أنهم يجيئون بصورة بشرية فهذا جبريل يأتى مريم بصورة بشر: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[مريم:١٦-١٨].

وهذه الملائكة تأتى لوطاً وإبراهيم أضيافاً أى فى صورة بشرية أيضاً، وفى كلا الحالتين يجهل لوطاً وإبراهيم حقيقة ضيوفهما.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[هود:٦٩-٧١].

وجاء الملك مريم فى زى البشر فاضطربت واستعاذت بالرحمن، وتدخل الملائكة على داود فيفزع ويقوم وهو فى المحراب. كذلك عند مجيئهم إلى إبراهيم ولوط .

جاءوا بصورة بشرية غير معلومة بالنسبة لمن يراهم، وهم يخبرون عن الهدف الذى جاءوا من أجله بصورة أشخاص بشرية[1].

أما الجن فمنهم مؤمن ومنهم غير مؤمن، يتحاورون مع الرسول ﷺ بما يخص الإيمان: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[الجن:١٤-١٧].

فهم يشبهون فى تصرفاتهم إلى حد كبير البشر لكنهم لا يظهرون عليهم.

الناس: فى الحوار القرآنى رسل وأنبياء وملوك ووزراء وأناس عاديون، والإنسان له صفات جسمية وله اسم يدل عليه فمن حيث الصفات الجسمية:

١- يشترك الناس جميعاً فى أن القرآن الكريم لم يقم وزناً لصفاتهم ومميزاتهم الحسية. فلا طول ولا عرض ولا لون ولا ملامح ولا قسمات من كل تلك التى تميز شخصية عن أخرى، نجدها بارزة فى الحوارات القرآنية، ولنأخذ مثال أصحاب القرية، قال تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[يس:١٣-٢١].

(١) د. أحمد السايح، حوارات قرآنية، تحت الطبع.

وفى بعض الأحيان فقط: نجد أن القرآن يذكر شيئاً من هذه السمات للضرورة كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٤٧].

٢- يهمل القرآن الأسماء إهمالاً تاماً فى الحوار الذى يراد به التخويف والذى يبرز فيه عنصر الحوادث ويخفى ما عداه.. كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:٢٥٩].

فهنا اختفى الاسم، اختفت سمات الشخصية، بينما التركيز على الحدث للعبرة، وهو حيناً آخر يذكر الأسماء ليتمكن القارئ من متابعة الأفكار والوقوف على مجرياتها :﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[الشعراء:١٠٦-١١٠].

فلا حاجة لذكر الأسماء إلا لتمييز أصحاب القصة عن غيرهم من أسماء الأقوام أو الأنبياء.

وعلى الجملة: فالذى نستطيع قوله فى مثل هذا الحوار الذى يقصد فيه إلى الآراء والأفكار، إن عنصر الشخصية فيه يكاد أن يختفى لولا بعض الأسماء وبعض الصفات، وإن العنصر القوى الذى يسير جنباً إلى جنب مع الحوار هو الحدث.

والحوار القرآنى يعتمد على تنسيق الحوادث وعلى إبراز المواقف والأحداث تاركاً من التفصيلات التى تعمل فى الذاكرة، أو يتصورها الخيال، وقدرة القرآن الكريم على تجسيم المعانى وتصوير الخواطر، وبراعته فى العرض و الأداء، وإعجازه فى التعبير المركز المشع بالإيحاءات وتحوله إلى صورة حية وشخوص متحركة، ومشاهد تنبض بالحياة[1] ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء:١٠-١٦].

قد تنزه حوار القرآن عن أن يقول أى شىء غير ذى بال، أو يساق لأى غرض يخالف الأخلاق بل هو مملوء بالعبر والمواعظ التى تقترن بالعرض لذا كان حواره تعليمياً. والحوار القرآنى حوار من نوع خاص. وهو ليس فناً خالصًا، إنما هو حوار صاغه الله -سبحانه وتعالى-؛ ليكون مثلاً للناس، وهنا يختلف المؤلفون البشر عما هو تنزيل من عزيز حكيم، فحوار القرآن الكريم بطبيعة الحال لابد أن يكون المثل الأرفع فى الخلق والإيمان فإذا نحينا جانب الموعظة التى يحملها القرآن ونظرنا إلى العرض الفنى فى الحوار القرآنى لوجدنا فى أغلب الأحيان عجباً، ولا عجب، فإنه تنزيل من عزيز حميد.

والحوار الوارد فى القصص القرآنى أعظم وأروع حوار على الإطلاق، وبه من الإعجاز الفنى واللفظى والمعنوى ما يجعل أعظم الباحثين يقف مشدوهاً من العجب والإعجاب.

---

(١) محمد شديد: منهج القصة فى القرآن، ص٤٤ .

ومما يمكن أن نصل إليه:

١ - أن حوار القرآن الكريم واقعى، يساق للعبرة ولم يأتى لمجرد التسلية أو المتعة[١]، وقد قرر تعالى هذه الحقيقة حيث قال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١].

٢ - أهمية الحوار فى توجيه الدعوة الإسلامية، ذلكم أن واقعية القرآن وجديته يجعلان توجيهاته وتقريراته تعين الدعوة الإسلامية على إصدار مواقف صحيحة ومدروسة تجاه ما تلاقيه. هذا ما كان يحدث عند نزول القرآن على رسول الله ﷺ فى مكة.

والقلة المؤمنة محصورة بين شعابها، والطريق شاق، طويل. فكان الحوار يكشف لهم نهاية الطريق ويبين لهم معالمه.

إن صدق الحوار فيما قصه الله تعالى من غيب مجهول للنبى ﷺ كان سببا فى إثبات الوحى والرسالة. فما نجده من حوار بين نوح وقومه، وإبراهيم وموسى - عليهم السلام - دليل على صدق الرسالة وإثبات الصلة بوحي الله ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود:٤٩].

٣- الحوار القرآنى دقيق فى رسمه الشخصيات فهو على قلة عدد الألفاظ المستخدمة فيه فإن فيه دقة فى رسم ملامح واختيار اللحظة الحاسمة لتوجيه القلب إلى العبرة.

نماذج من الحوار فى كتاب الله

من خلال القصص القرآنى الذى يشغل مساحة كبيرة من كتاب الله، ومن بين ما نتعلمه من هذا القصص، فضلا عما يرد فيه من تشريع معجز، يغفل عنه الكثير، نجد نماذج الحوار العف الكريم.. بين أنبياء الله وأقوامهم، وبين أهل الجنة وأهل النار،

(١) محمد أبو زهرة: انظر المعجزة الكبرى(القرآن)، ص ١٦٢-١٦٣ .

وبين أصحاب الحق وأصحاب الباطل. وسوف نختار من بين هذه النماذج العديدة نماذج ثلاثة، ونحيل القارئ إلى كتاب الله يستخرج منه غير ذلك، وما يزال كتاب الله سبحانه وتعالى معطاء على مر العصور، لا تبلى جدته، ولا يخلق على كثرة الرد.

النموذج الأول: بين نوح وقومه

نوح نبى الله ورسوله.. من أولى العزم من الرسل. جاء قومه يدعوهم إلى الله ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف:٥٩، المؤمنون: ٢٣] وهو هائمون فى الأصنام، وكان له جدال مع ابنه، كما كان لإبراهيم جدال مع أبيه.

* أما جدال نوح مع قومه: فنأخذ له نموذجا من سورة هود:

بدأ فدعاهم إلى التوحيد: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[هود:٢٥-٢٦]. ردوا عليه بتهم له ولمن اتبعوه.

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[هود:٢٧].

فرد عليهم نوح بأربع: أنه على بينة من ربه عـميت أبصارهم عنها، ولن يكرههم عليها، وأنه لن يسألهم أجرا؛ لأن أجره على الله، إنه لن يطرد الذين آمنوا، لأنه يخاف الله، ومن ينصره من الله، وأنه لن يقول لهم: لن يؤتيكم الله خيرا؛ إنه إن فعل ذلك كان ظالما، وأخيرا: أنه لا يملك خزائن الله، ولا يعلم الغيب، ولا يدعى أنه ملك[1].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا

(١) على جريشة: مرجع سابق، ص ١٣٦ .

تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[هود:٢٨-٣١].

قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[هود:٣٢-٣٣].

فيرد نوح على ذلك: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾[هود:٣٣-٣٥].

وتأتى العاقبة فى النهاية بعد استهزائهم منه وهو يصنع الفلك..

وقبل أن نشير إلى العاقبة نشير إلى حواره مع ابنه، ويليه حواره مع ربه. أما حواره مع ابنه فقد قال له: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾[هود:٤٢].

فكان رد ابنه الجاهل أنه سيعتصم بالجبل ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾[هود: ٤٣]، فجاء رد الوالد الناصح الأمين : ﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾[هود:٤٣]. ولم يستطع الابن جوابا فقد تاه جوابه مع أمر الله الذى جاء ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[هود:٤٣].

وانتهى المشهد الأليم للأب يشهد مصرع ابنه فتأخذ الشفقة بولده ويخاطب ربه.

حواره مع ربه

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ

الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[هود:٤٥-٤٦].

﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[هود:٤٨].

وهنا يعود العبد الأواب إلى ربه يسأله المغفرة والرحمة فى تذلل وخضوع: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[هود:٤٧].

النموذج الثانى: أهل الجنة والنار

فى الحوار أطراف ثلاثة: أهل الجنة، أهل النار، أصحاب الأعراف "على اختلاف فى كنههم".

- يبدأ الحوار بأصحاب الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف:٤٣].

- ثم يتوجهون إلى أصحاب النار: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[الأعراف:٤٤].

وهنا يظهر صوت أصحاب الأعراف متوجهين لأصحاب الجنة: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾[الأعراف:٤٦].

- ثم ينتقل الحوار إلى أصحاب النار: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ

النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[الأعراف:٤٧-٤٩]..

- ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[الأعراف:٥٠].

ويأتى التبكيت -من أهل الجنة- مع الحرمان أليما أليما أليما أليما.. ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[الأعراف:٥١].

النموذج الثالث: مؤمن آل فرعون

وهو نموذج يتكرر إذ فرعون يتكرر.. ومؤمن آل فرعون قائم لله بحجة، لا يخشى فى الله لومة لائم يكتم إيمانه.. حتى إذا وجد الباطل يهم أن يبطش بالحق صار سكوته إثما وصار أمره ونهيه وقوله الحق واجبا.

يبدأ فرعون فيتهم "موسى عليه السلام" بالسحر والكذب، ويأمر بقتل الأبناء، واستحياء النساء، ثم يمضى إلى موسى نفسه، فيأمر بقتله لأنه يخشى أن يبدل قومه أو أن يظهر فى الأرض الفساد".

ويستعيذ موسى بربه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

ويهم فرعون اللعين بالتنفيذ، فينهض المؤمن الذى يكتم إيمانه ليلقنهم دروسا، وليقول كلمة الحق، وليجادلهم... ولنستمع إلى الآيات:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ

آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[غافر:٢٣-٣٣].

وكانت النتيجة بعـد هذا الحوار الكريم الطيبوكلمة الحق: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[غافر:٤٦].

❊ ❊ ❊

المبحث الثالث
أهمية الحوار

ليس من العجيب أن ينزل "الحوار" منزلة الحقيقة.

فكما أن الأصل فى الكلام من جهة مضمونه هو الحقيقة، فكذلك الأصل فيه من جهة قائلة هو الحوار.

وكما أنه على المتكلم الشاهد خصوصا أن يقول الحقيقة، فكذلك على المتكلم العادى عموما أن يمارس الحوار[1].

- **وبيان هذه الحقيقة الحوارية من الوجوه الثلاثة:**

أولها: أن طريق الوصول إلى الحق ليس واحدا لا ثانى له، وإنما طرق شتى لا حد لها. لأن الحق هو نفسه على خلاف الرأى السائد. ليس ثابتا لا يتغير، بل أصله أن يتغير ويتجدد، وما كان فى أصله متجددا، فلابد أن يكون الطريق الموصل إليه متعددا، وحيثما وجد المتعدد فى الطرق، فثمة حاجة إلى قيام حوار بين المتوسلين بها.

والوجه الثانى: أن تواصل الحوار بين الأطراف المختلفة فئات أو أفرادا؛ يفضى مع مرور الزمن إلى أن هذا الطرف أو ذاك، قد يأخذ فى الانصراف عن رأيه متى تبين له -عند مقارعة الحجة بالحجة- ضعف أدلته عليه؛ ثم يتجه تدريجيا إلى القول برأى من يخالفه أو يأخذ على العكس من ذلك، فى تقوية أدلته متى تبينت له قوة رأيه، مستجليا مزيدا من الاهتمام به من لون مخالفه، حتى ينتهى هذا المخالف إلى قبوله والتسليم به وهكذا. فإذا أنزل الخلاف منزلة الداء الذى يفرق فإن الحوار ينزل منزلة الدواء الذى يشفى منه.

والوجه الثالث: أن الحوار يسهم فى توسيع العقل، وتعميق مداركه، بما لا

(١) د. طه عبد الرحمن: حوارات من أجل المستقبل، ط جريدة الزمن، الرباط . المغرب، د.ت، ص ٤ .

يوسعه ولا يعمقه النظر الذى لا حوار معه، إذ الحوار هو بمنزلة نظر من جانبين اثنين: وليس النظر من جانب واحد. كالنظر من جانبين اثنين.

فمعلوم أن العقل يقلب النظر فى الأشياء، وأنه على قدر تقلبه يكون توسعه وتعمقه، والعقل الذى لا يتقلب ليس بعقل حى على الإطلاق.

والعقل الذى يبلغ النهاية فى التقلب؛ فذلكم هو العقل الحى الكامل.

وإذا كان الأمر كذلك، لزم أن يكون تقلب العقل فى حالة النظر من جانبين: ضعف تقلبه فى حالة النظر من جانب واحد. فيكون عقلا أوسع وأعمق، وإلا فإن تقلبه أكثر من هذا متى علمنا أن أدلة الجانبين لا يجتمع بعضها إلى بعض فحسب، بل يزدوج بعضها ببعض، ومعلوم أن فى الازدواج من الكثرة ما ليس فى الاجتماع، بحيث تزداد سعة العقل وعمقه، ودرجات كثيرة فى حالة الازدواج عنها فى حالة الاجتماع[(١)].

إذن حاجة الإنسانية تقتضى ضرورة الحوار، ولعلنا ندرك أنه منذ وقت قريب شاع تخصص يتصل بشكل أو بآخر بالحوار، هو فن العلاقات العامة، وأنشئت لدى الدوائر والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية أجهزة خاصة بالعلاقات العامة، تجدها لدى دوائر الحكومات ولدى الشركات، ولدى دور النشر والصحافة.

ويمكن أن توصف المسئولية الأساسية لهذه الأجهزة بأنها حسن الاتصال بالآخرين للإقناع برأى، أو ترويج سلعة، أو تصحيح فكرة أو التمهيد لقضية.

ونظرا لأهمية هذا الفن، والتركيز عليه؛ يمكن أن نقول: إن الحوار أمر قديم لكنه أخذ شكلا أكثر تحديدا أو تخصيصا ودقة، وبذلك فهو وصف جديد لحقيقة قديمة، نستطيع إبراز أهميتها فيما يلى[(٢)]:

أولا: كثرة استعمال الحوار فى الكتاب والسنة، وكثرة وقوعه من الأنبياء، بل تكراره واستخدامه فى التاريخ كله فلا يخلو منه زمان، ولم يستغن عنه نبى ولا عالم

(١) المرجع السابق، ص ٤، ٥ .

(٢) الندوة العالمية للشباب: فى أصول الحوار، ص ٩ .

ولا داعية، وكما هو واقع فى الدنيا فهو موجود فى الآخرة كذلك، بل فى الجنة والنار، ففيهما حوار وجدال ومحاجة ومخاصمة.

ويكفى دليـلا على هذه الكثرة: أن هناك أكـثر من مائتى نص من الـقرآن والسنة، تعرض نماذج مختلفة من الحوار.

ومن أمثلة ما يبين كـثرة وقوعه من الأنبياء: إنكار قـوم نوح -عليه السلام- عليه حين قـالوا ما ذكـره الله عنهم فى قوله تـعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾[هود:٣٢]. كما ينبـغى أن يعلم: أن الحوار يرد كثيرا وإن لم تستـعمل مادته . وإنما قـد تستـعمل كلمـة "قال" ومـشتـقاتهـا التى وردت فى القرآن سـبعـا وعشـرين وخمـسمـائة مرة[1]. ونحوها من الـكلمات الدالة على وجـود الحوار، ولا بأس من الإشارة إلى بعض نماذجـه فى القرآن، وباختصـار وبدون ذكره الآيات لأن كثيـرا منها سيأتى إن شاء الله تعالى.

ومن نماذجه ما دار بين الله تعالى وملائكتـه فى موضوع خلق آدم -عليه السلام- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[البقرة:٣٠-٣٢].

ومنها ما دار بين مـوسى ـ عليه السلام ـ وقومـه فى ذبح البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا

(١) الندوة العالمية للشباب أصول الحوار: ص ٩ .

مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[البقرة:٦٧-٧١].

ومنها ما دار بين الله سبحانه وتعالى وإبراهيم -عليه السلام- حين طلب أن يريه كيف يحيى الموتى[١]، ومنها قصة موسى عليه السلام وطلبه رؤية ربه-عز وجل-[٢]، وقصة عيسى ـ عليه السلام ـ مع الحواريين فى طلبهم المائدة[٣].

ومنها حوار صاحب الجنتين فى سورة الكهف[٤]، وقصة موسى عليه السلام مع الخضر فى السورة نفسها[٥]، وقصة قارون مع قومه[٦]، وقصة داود مع الخصمين[٧].

وحكاية بلقيس مع قومها ومع سليمان -عليه السلام-[٨] إضافة إلى حوار نوح وإبراهيم وهود وشعيب وغيرهم عليهم السلام مع أقوامهم، كما فى سورة الأعراف وهود والأنبياء والشعراء ونوح وغيرها. والأمثلة كثيرا جدا فى الكتاب والسنة، وكلها تدل على أهمية الحوار وخطورته[٩].

وإضافة إلى كثرة استعمال الحوار كما تقدم، فإن أثره الإيجابى فى الواقع أكبر دليل على أهميته ودوره، فكم من أناس قد اقتنعوا عن طريق الحوار.

ومن ذلك: الحوار الذى كان سببا فى إسلام عمر بن الخطاب، والحوار الذى كان سببا فى إسلام عمير بن وهب، وحوار ابن عباس مع الخوارج الذى كان سببا فى رجوع ألفين منهم عن بدعتهم.

(١) انظر: البقرة ٢٦٠ .
(٢) انظر: الأعراف ١٤٣ .
(٣) انظر: المائدة ١١٢ ـ ١١٣ .
(٤) الكهف: ٣٢ ـ ٤٣ .
(٥) الكهف: ٦٦ ـ ٨٢ .
(٦) القصص: ٧٦ .
(٧) ص: ٢١ .
(٨) النمل: ٢٨ .
(٩) الندوة العالمية للشباب أصول الحوار، ص ١٠ .

ومن ذلك الحوارات المصيرية الحاسمة الكثيرة التى كانت سببا فى كبت الفتن، وتوحيد الكلمة، وإنهاء النزاع والخلاف، مثل الحوار الذى كان بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة، والذى انتهى بمبايعة أبى بكر -رضى الله عنه- بالخلافة. والحوارات التى كانت بين عبد الرحمن بن عوف وأصحاب الشورى بعد وفاة عمر -رضى الله عنه-، وحوار أبى بكر وعمر فى قتال المرتدين، وكذا حوارهما فى جمع القرآن وغيرها.

وهذا عدا المناظرات العلمية الكثيرة التى كانت تجرى بين الصحابة أو بين العلماء فى مسائل مختلفة، والتى بينت أرجح الأقوال فى كثير من تلك المسائل كمناظرة ابن عباس وابن الزبير فى حكم المتعة، ومحاورة عائشة وعروة فى رؤية النبى ﷺ لربه، ومثل مناظرة الشافعى وإسحاق فى كراء منازل مكة، وكذا مناظرتهما فى طهارة جلود الميتة بعد دبغها، ومناظرة الإمام أحمد فى خلق القرآن.

وعلى كل حال: فإن أثر هذه الحوارات والمناظرات أكثر من أن يحصر، وهذا يدل على أهمية الحوار وضرورته والحاجة إلى طرح هذا الموضوع(1).

ثانيا: إن أقوال علماء الأمة فى أهمية المناظرة، وضرورة استخدامها، له صلة كبيرة بموضوع الحوار، إذ إن المناظرة قريبة من الحوار، وتشترك معه فى الغاية منها وهو الوصول إلى الحق، وإظهار الصواب؛ لذلك تدل كلمات الأئمة على أهمية الحوار وضرورته.

ثالثا: إن هذا الموضوع له تعلق كبير بفنون أخرى مستقلة مثل "فن الجدال" وفن "البحث والمناظرة"، وقد ذكر العلماء آدابا لتلك الفنون مما يستفاد منه فى الحوار، ويحتاج إلى جمع وترتيب من جديد.

كما أنه قد شاع فى العصر الحديث تخصص يتصل بهذا الموضوع، وهو فن العلاقات العامة، وأنشئت لدى الدوائر والمؤسسات أجهزة خاصة بالعلاقات العامة،

---

(1) د. يحيى زمزمى: الحوار آدابه وضوابطه فى ضوء الكتاب والسنة، مرجع سابق، ص ٣٥.

المسئولية الأسـاسية لهذه الأجهزة هى حسن الاتصال بالآخـرين لإقناعهم بآراء معينة، أو تصحيح أفكارهم نحو قضية أو غير ذلك، وعلى أهمية هذا الفن والتركيز عليه فى العصر الحديث، وتأليف كتب خاصة به، يمكن أن يقال إنه فن قديم، لكنه أخذ شكلا أكثر تحديدا أو تخصيصا ودقة.

ولذلك فـالحوار، يسـاعد فى إثراء العلوم، وفى إحـياء مـا اندثر من تلك الآداب التى تمثلها الأنبياء والـعلماء، ومحاولة السير على نهجـهم فيها: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠].

* * *

المبحث الرابع
أهـداف الحـوار

إن معرفـة أهداف الحوار، لها أهميـة كبيرة فى دراسـة هذا الموضوع، إذ إن هدف الحوار هو ثمـرته المطلوبة، وأن الهدف من الحـوار يحدد موضـوعاته وأساليبه وآدابه. وعليه فإن الحكم على الحوار، إنما يكون بمعرفة أهدافـه، لأن الأمور بمقاصدها، كما أن معرفة الأهداف هى التى تحـدد مدى نجاح الحوار؛ لأن نجاح كل شىء متعلق بتحـقيقه لأهدافه المحددة، إضافة إلى أن تحـديد الأهداف هو الخطوة الأولى فى كل عملية يريد أن يقوم بها الإنسان.

لذلك فلابد من تحـديد أهداف الحوار، ومعرفـة الغاية منه، والأهداف التى يمكن تحديدها للحوار فيما يلى:

١.الدعـوة

أى دعوة الآخرين وإقناعهم، سواء دعـوة غير المسلمين إلى الإسلام، وهو هدف وغاية مطلوبة، أو دعوة الجاهلين إلى تعاليم الإسلام، أو دعوة غيرهم إلى الحق. وأقل ما يتـحقق من هذا الهدف هو إقـامة الحجـة على الخصم، وإبراء الذمة أمـام الله -عز وجل-؛ لذلك فـإن الله -سبـحانه وتعالـى- قد ذكر الجـدال بالتى هى أحسـن ضمن وسـائل الدعـوة حيث قـال: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥].

قال ابن كثير: (أى من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب)[١].

وعليـه فالحـوار الهـادئ المراعى فيـه الأدب، يمكن أن يكون مـفـتاحـا للقلوب،

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٩١).

وطريقًا إلى الأفئدة، ومحققا لنتائج كثيرة، قد يخسرها الشخص إذ لم يسلك سبيل الحوار، أو إذا لم يراع فيه الضوابط والآداب.

وبالنظر إلى تاريخ الدعوة والدعاة من الأنبياء والصحابة والعلماء. ومن سار على نهجهم، فإن الحوار قد حقق أهداف الدعوة، وكانت له آثاره الجيدة، من دخول الناس فى دين الله-عز وجل-، أو رجوع الضالين عن ضلالهم، وغير ذلك، فحقق الغايتين: استجابة الناس وتقواهم، والاعتذار إلى الله-عز وجل-، وهما الغايتان المذكورتان فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الأعراف:١٦٤].

ومن المعلوم: أن مهمة الداعية هى بذل الأسباب فى هداية الناس، ودلالتهم إلى الخير، ولابد أن يواجه فى ذلك التواءات النفوس، وخلافهم معه فى الرأى، فإذا لم يكن لديه من الإلمام بآداب الحوار والاختلاف الشىء الكافى لكى يصبر ويستمر فى دعوته، ابتعد الناس منه، وهو يسعى لجمعهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم.

والخلاصة: أنه إذا كانت للداعية مجموعة من الطرق والوسائل يسعى من خلالها إلى نشر دعوته بين الناس، فإن عليه أن يتذكر دائما أن أداته الأولى المقدمة على ما سواها: هى الحوار.

٢.الوصول إلى الحق

من أهداف الحوار الوصول إلى الحق، وترجيح أحد الآراء المطروح، وتضييق هوة الخلاف، وتقريب وجهات النظر، فإننا نعيش فى عصر كثرت فيه الخلافات؛ مصداقا لقوله ﷺ: "فإن من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا"[١]، وليست المشكلة فى وجود الخلاف، فإن وجوده أمر طبعى كما قال-عز وجل-: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود:١١٨-١١٩]، ولكن المشكلة فيما يؤدى إليه

(١) الترمذى: كتاب العلم (٥/ ٤٤) رقم ٢٦٧٦ .

الخلاف من فرقة، وتباغض، وتناحر، وتضارب، عندما يعجز المختلفون عن التفاهم بالمحاورة، أو يغفلون عن ضرورة الالتقاء لتقريب وجهات النظر، أو يقللون من قيمة الحوار، ويرون ألا فائدة منه أصلا، وهو خطأ يقع فيه كثير من المختصمين والمختلفين، ذلك هو أن يتصور كل واحد منهم أنه لابد من إقناع الخصم بالرأى الذى يتبناه، أو لابد من ترجيح رأيه وتخطئة رأى محاوره، وإلا فلا جدوى من الحوار ولا داعى له.

ولا يتصور أن الحوار إذا لم يحسم قضية الخلاف بترجيح رأى معين فإنه يقرب وجهات النظر، ويضيق هوة الخلاف، بل يحدد الخلاف ويحصره فى حيز ضيق، ويساعد فى تقارب القلوب، وتفهم الأفكار، مما يكون له أثر فى التماس العذر للطرف الآخر فى حمله لرأيه.

وكما أن الحوار يعتبر ناجحا إذا انتهى أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر واتفقا على موقف موحد، فكذلك يعتبر الحوار ناجحا أيضا إذا توصل الطرفان إلى أن كلا القولين صحيح وسائغ، أو هو فى الإطار الذى يسعه الخلاف وعندها يمكن أن يقال (اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية).

وكذلك فإن كشف الشبهات، وتفنيد الأباطيل، يزيل الغشاوة التى ربما تكون على الأعين.

وكذلك فإن كثيرا من المختلفين يمنعهم من التسليم بالحق والرجوع إلى الصواب شبهات وشكوك وأباطيل، تحتاج إلى جواب وتفنيد وإبطال، والحوار يحقق هذا الهدف؛ فبه يمكن إزالة كل شبهة، وتفنيد كل باطل.

٣- تحقيق أهداف أخرى مشروعة

وهناك مصالح أخرى، وأهداف كثيرة. يمكن تحقيقها عن طريق الحوار، وهى ليست رئيسة ثابتة، ولكن تتنوع وتختلف باختلاف القضايا والمحاورين والعلاقات الإنسانية.

* * *

الفصل الخامس
الإسلام والتفاعل الحضارى

المبحث الأول: مفهوم الحضارة

المبحث الثانى: الإسلام والحضارة

المبحث الثالث: التفاعل الحضارى

المبحث الأول
مفهـــوم الحضـــارة

أما الحضـارة؛ فمأخوذة من الحضـر، والحضر خلاف البدو؛ والحـاضر خلاف البـادي؛ وفي الحـديث: "لا يبع حـاضـر لباد" الحـاضـر المقيم في المدن والقـرى؛ والبـادي المقيم بالبـادية. ويقال: فـلان من أهل الحاضـرة، وفلان من أهل البـادية، والحضارة ـ بكسـر الحاء ـ الإقامة فى الحـضر. وكان الأصمعى يقـول: الحضارة ـ بالفتح ـ قال القطامى:

فمن تكن الحضارة أعجبته فأى رجـــال باديـــة تـــرانـــا

والحضـر والحاضرة؛ خلاف البـادية. وهى المدن والقرى والريف. سـميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار، وسكنوا الديار التى يكون لهم بها قرار[1].

إذن أهل الحضـر يوصفـون بأنهم أهل القرار كـما يقـال: قرارى للحـضرى الذى لا ينتجـع ولا يتنقل طلباً للكلأ فى مـواضعه، كـذلك يوصف أهل الحضـر بأنهم "أهل المدر" وهو قطع الطين المتمـاسك، أو أهل الحجر، لأنهم يسكنون بيـوتاً متينة ثابتة، خـلافاً لأهل الوبر، الذين يسكنون الخيام، من وبر الإبل، أو صوف الغنم، أو شعر الماعز[2].

ومفهوم كلمة "الحضارة" مفهوم تطور مع الزمن لا سيما فى تاريخ الحياة العربية. ولقد عرف العـرب الفارق بين حياة البـادية وحياة الحضر، منذ كـانت بادية ومنذ كان حضر. ولكن أول من تصدى لهذا التمييز على أساس الدراسة الواعية هو العلامة عبد الرحمن بن خلدون[3].

ويرى:أن الحضارة هى النمط من الحـياة المستقرة والذى يـناقض البداوة، ويضفى

(١) ابن منظور، لسان العرب، الجزء الأول، ص ٦٥٨ .

(٢) د. محمد فتحى عثمان: القيم الحضارية فى رسالة الإسلام، ص ٩، ط: دار السعودية، ١٤٠٢هـ.

(٣) عبد الرحمن بن خلدون، توفى سنة ٨٠٨هـ ـ ١٤٠٦م.

على حياة أصحابها فنوناً منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة، وإدارة شئون الحياة والحكم، وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية[1].

والحضارة فى فكر ابن خلدون "طور طبيعى أو جيل من أجيال طبيعية، فى حياة المجتمعات المختلفة، وأنها غاية العمران"[2].

ويقول: "إن الحضارة فى الأمصار من قبل الدول، وأنها ترسخ باتصال الدول ورسوخها. إنها أحوال زائدة على الضرورى من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه، وتفاوت الأمم فى القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر، ويقع فيها عند كثرة التفنن فى أنواعها وأصنافها، فتكون بمنزلة الصنائع[3].

والباحث يجد أن مفهوم الحضارة فى العصور المتأخرة قد امتد إلى ألوان من المعنى هى أبعد وأوسع مما رآه ابن خلدون فى عصره وفى البيئة العربية، وفى انتقالها الاجتماعى والسياسى والمدنى من البادية إلى الحضر.

إن لفظ الحضارة فى مفهومه العام والحديث المعاصر بصفة خاصة، قد أصبح أكثر اتساعاً مما يدل عليه اللفظ فى مفهومه اللغوى التقليدى..

ولذا جاء فى المعاجم الحديثة: أن الحضارة هى الرقى العلمى، والفنى، والأدبى، والاجتماعى، والاقتصادى فى الحضر. وبعبارة أخرى أكثر شمولاً هى: الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة والفكر، ومجموع الحياة فى أنماطها المادية والمعنوية.

ولهذا كانت الحضارة هى الخطة العريضة ـ كماً وكيفاً ـ التى يسير فيها تاريخ أمة من الأمم، ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة، ومنها الأطوار الحضارية الكبرى التى تصور انتقال الإنسان أو الجماعات من مرحلة إلى مرحلة[4].

---

(١) الدكتور أحمد السايح: أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ١٧، ط: دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، جـ ١، ص ٢١٠-٢١٣، ط: دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٦٧م.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، جـ ١، ص ٦٥٦-٦٥٧ .

(٤) أضواء على الحضارة الإسلامية، ص ١٨ .

فالحضارة بكل بساطة، معناها: بذل المجهود بوصف الناس كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنسانى وتحقيق التقدم من أى نوع كان فى أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعى.

إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزماً واضحاً صادقاً على بلوغ التقدم، ويكرسون أنفسهم تبعاً لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم[١].

والحضارة باختصار شديد: هى جملة المظاهر المعنوية التى يخلفها التاريخ والتى تبقى فى المجتمع على مر الأيام دليلاً على القدرات الذهنية المميزة، وتعبيراً عن روح هذا المجتمع والشعب الذى يمثله.

ولاشك أن المظاهر المعنوية تأخذ قوالب مادية مختلفة تتجسم فيها تلك المعنويات، وتشكل المظاهر المعنوية فى صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم والمعارف. ومجموع ما ينتج عن ذلك كله من تسجيلات ومشاهد فى الآثار والعمائر وأسلوب الحياة، وآداب المعاش اليومى[٢].

لقد عرف العلماء الحضارة تعاريف متباينة، وتحدثوا عنها من وجهات نظر مختلفة. ولما كانت الحضارة إنسانية النشأة؛ كان علينا أن نختار من تعريفات الحضارة المتعددة تعريفاً ذكره العلامة الفرنسى "جورج باستيد" جاء فيه: أن الحضارة هى التدخل الإنسانى الإيجابى لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوباً مع إرادة التحرر فى الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر فى إرضاء حاجاته ورغباته، وانقاصاً للعناء البشرى[٣].

فالسلوك الإنسانى الذى ينتج الحضارة هو استجابة لتحد من ظروف الطبيعة يكون هو المثير والدافع والحافز للإنسان. كى يتغلب على ما يواجهه، ومن ذلك

---

(١) البرت اشفيشر: فلسفة الحضارة، ترجمة عن الألمانية الدكتور عبد الرحمن بدوى، ص٥، ط: دار الأندلس، بيروت.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨ .

(٣) جورج باستيد: كتاب المدنية، ترجمة: عادل العوا، ص ١٢، ط: دمشق.

عوامل فى طبيعة الإنسان نفسها مثل حاجاته للطعام، والشراب، والدفء، والاستقرار، والأمن؛ وهناك منافسة الإنسان الآخر له على ذلك؛ ثم ما يكون من قصور ظروف بيئته المادية عن تلبية هذه الحاجات(١).

فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية فى جوانبها المتعددة، المتقابلة المتكاملة، جسدية، وعقلية، ونفسية، وروحية؛ والسلوك الحضارى هو: جواب الإنسان على التحدى المواجه له؛ تحدى الطبيعة المادية من جهة؛ وتحدى حاجاته هو من جهة أخرى، وتحدى الإنسان الآخر أو المجتمع من جهة ثالثة؛ ويأتى هذا الجواب الإنسانى على التحدى فى صور نشاط متعدد الجوانب؛ كما تشمل أيضاً صور الإنتاج المادى من عمائر وطرق وجسور وقناطر وغيرها.

ومن مجالات الحضارة: العقائد والعوائد والأدب الشعبى، وأدب الخاصة أو الأدب الرفيع والنظم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية. كما لا يخرج عنها تخطيط المدن والعمارة ووسائل النقل، وأساليب المأكل والمشرب والزينة والترفيه(٢).

والحضارة على أى حال تمثل كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشرى. وغالباً ما يحدوها سلوك الإنسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة. ولذا كان من الطبيعى أن تختلف كل حضارة فى مظاهرها عن الحضارات الأخرى، فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها مظاهر مميزة(٣).

والعقل البشرى استطاع بما اكتسب من خبرة، ودربة، ومرانة، أن يصنف المعارف الإنسانية، وأن يحكم ما بينها من وشائج، وأن يستفيد بما بينها من صلات وروابط. والنتائج العلمية متصلة بعضها ببعض، ويعتمد بعضها على بعض. والحضارات الإنسانية ليست ملكاً لأمة بعينها، ولا هى وقف على جماعة من الناس؛ لأنها صرح

---

(١) انظر المصدر السابق، ص ١١٧، والدكتور محمد فتحى عثمان: القيم الحضارية فى رسالة الإسلام، ص ١٦ .

(٢) انظر الدكتور محمد فتحى عثمان: القيم الحضارية فى رسالة الإسلام، ص ١٧ .

(٣) انظر الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور: معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، ص ٢، ط: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.

هائل قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب. والحضارات الإنسانية قد تتشابه فى مظاهرها، وفى عناصرها، وفى أسلوبها، ولا سيما إذا تعايشت فى جهات متقاربة. والحضارات الإنسانية سلسلة محكمة متينة الحلقات يؤثر سابقها فى لاحقها، ويتأثر حاضرها بماضيها؛ وينتفع بعضها من بعض[١].

ولقد تواجدت حضارات مختلفة فى الزمان والمكان، وانتفعت من بعضها انتفاعاً أدى إلى تقدمها فى مجتمعات كثيرة.

وتشكل الحضارة مجموع الصفات، والمزايا المشتركة لمجتمع، أو لمجموعة من المجتمعات، وهى تتجاوز الثقافة وتغلفها. وهذه الصفات تمثل مجموع الحلول التى أوجدها أو تبنتها مجموعة اجتماعية ما، تندمج بشكل عام، فى جو واسع جداً، ومكان جغرافى طويل جداً من التاريخ.

وتستخدم هذه الأساليب المادية، والتقنية، والمفاهيم لحل جميع المشكلات التى يطرحها وجود هذه المجموعة: الاتصالات، وإصلاح وتوزيع الأراضى، واستثمار الثروات، وكذلك الحياة الاقتصادية، والفكرية، والسياسية، والدينية.

وكل المجموعات البشرية تعمر صدورها الرغبة بالحياة والخلود. وهذا العامل عنصر غير مادى، وهو ضرورى لكل حضارة، لكى تولد، وتحيا، وتتطور. وجميع العناصر المكونة للحضارة متفاعلة فيما بينها باستمرار، وتتطور بوتائر متفاوتة بين السرعة والبطء.

وإن أول ما يسترعى انتباه المراقب، الذى ينظر للحضارة من الخارج، هو صفاتها الجمالية. وإدراكها للجمال بشكل عام والأساليب الفنية المعبرة عنه. ولا يخفى أن الحوار الحضارى يتم من أجل الصفات الجمالية فى الحضارة.

وتعتبر المنشآت المادية، والأدوات والكتابات، ذات أهمية خاصة بالنسبة لمفاهيم الجمال فى كل حضارة. ويأتى بعد علم الجمال كل ما له علاقة بالحياة المادية كفن

(١) أضواء على الحضارة الإسلامية، مرجع سابق ص ١٨ .

الطبخ، وطريقة التغذية، وصناعة الفخار، والأوانى، والأدوات المنزلية، والمفروشات، والمنشآت، والأدوات والآلات والأسلحة، حيث يتم الجمع بين الفائدة المباشرة، والصفة الجمالية.

والفاحص المدقق: يجد أن تيار الفكر الحضارى الإنسانى، يتخذ طابعاً واحداً. لا ينحو كثيراً عن تاريخ الإنسان نفسه. فالحضارات والثقافات المختلفة، تتفاعل مع بعضها فتنتج للإنسان ما يشبع حاجاته الفكرية والمادية.. وبذا فإن الحضارات الإنسانية على مر العصور، تكون بناءً متماسكاً يترابط بنيانه العضوى كحلقات السلسلة الواحدة، التى لا تنفصم الواحدة عن الأخرى.

ولا يمكن أن تكون كل حضارة نشأت بمعزل عن غيرها من الحضارات الأخرى، أو أنها لم تتفاعل معها. ونظرتنا الأساسية تقوم على أن الحضارات تأخذ وتعطى. تأخذ ما يتفق مع طبيعة البنيان العقلى والفكرى للأمة. وتعطى ما تجود به نوعيتها ونشاطها الفعال. وبطبيعة الحال، فإن هذا التفسير أقرب إلى فهم روح الفكر، والنشاط الإنسانى المتصل الذى بدأ تاريخه ومسيرته مع بداية الإنسان على هذه الأرض[1].

ولا يخفى أن النشاط العقلى، والإنتاج الحضارى، لابد وأن يستند إلى أدلة ملموسة، والأدلة فى هذه الحالة إما مادية مثل: النقوش والمعابد والآثار والمنشآت. وكل شكل الإنتاج التكنولوجى. وإما فكرية مثل: الوثائق والمؤلفات والكتب والنظريات العلمية، والآراء المدونة كتابة.

أما فيما يتصل بالأدلة المادية، فإنها ميدان اهتمام التاريخ وباحثيه، وعلماء الآثار، ودارسيها. فدراسة هؤلاء لتفسير الحضارة الإنسانية بالأدلة المادية تميز حضارة من الحضارات عن غيرها، على حين أن الفلاسفة ومؤرخى العلم يهتمون بصورة أساسية بالنشاط الفكرى، والنظريات والآراء وتطور الأفكار التى يقومون على تحليلها ونقدها ومحاولة تفسيرها من خلال عملية التركيب المنطقى للوقوف على الفلسفة الكامنة فى باطن الفكرة نفسها.

(١) الدكتور ماهر عبد القادر محمد: المشكاة، ص ١٦٦، ط: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م.

المبحث الثانى
الإسلام والحضارة

إن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه خليفة فى الأرض. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠].

وقد فضل الله الإنسان وكرمه، كما وضح ذلك فى قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[الإسراء:٧٠].

وهذه الكرامة التى اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة، فهى حماية إلهية للإنسان تنطوى على احترام حريته، وعقله، وفكره، وإرادته.

وهذه الكرامة تعنى فى النهاية الحرية الحقيقية، وهى تلك الحرية الواعية المسئولة التى تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسئولية التى أشار إليها القرآن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾[الأحزاب:٧٢].

وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكريم، وجعله مكلفاً ومسئولاً. فإنه من ناحية أخرى قد خلق الله له هذا الكون بما فيه ليمارس نشاطاته المادية والروحية على السواء.

يقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الجاثية:١٣].

والتفكير الذى تنص عليه الآية هنا أمر جوهرى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان(١).

---

(١) الدكتور محمود حمدى زقزوق: "دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى" ص ٩، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة.

و إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون، فلا يجوز له أن يقف منه موقفاً لا مبالاة فيه، بل ينبغى عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابياً، وإيجابيته تتمثل فى درسه والنظر فيه للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير.

والاستفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون، لا تكون إلا بالعلم والدراسة والفهم، والنظر فى ملكوت السموات والأرض على هذا النحو سيؤدى إلى الرقى المادى وفى الوقت نفسه إلى الرقى الروحى[1] والحضارى.

والحضارة الإسلامية هى عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها: إنسانياً، وخلقياً، وعلمياً، وأدبياً، وفنياً، واجتماعياً، وفق منهج الله وشريعته.

وبناء على هذا المفهوم فإن المجتمع ـ الذى يقوم على القيم الإنسانية فى كل جوانب الحياة ـ هو مجتمع متحضر[2]، وهو الذى تكون القيم الإنسانية، والأخلاق الإنسانية هى السائدة فيه. وهذه القيم هى التى تنمى خصائص إنسانية الإنسان، وهى التى تميزه عن غيره من المخلوقات[3].

وهذه القيم إنما هى قيم إنسانية ذات ميزان ثابت. وهى مقررة فى الشريعة الإسلامية منذ جاءت، وما على الإنسان إلا أن يمضى فى بنائها وصيانتها فى كل المجتمعات التى يقيمها حضرية كانت أم بدوية؛ صناعية كانت أم زراعية.

فالمهم فى كل الأحوال هو الارتقاء الصاعد بالخصائص الإنسانية وحراستها من النكسة إلى الحيوانية التى تؤدى إلى التخلف.

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم، وبهذه الأخلاق، فى كل مكان، وفى كل بيئة. أما أشكالها وصورها المادية، فهى كثيرة، ومتنوعة. لأنها فى كل بيئة تستخدم

(١) الدكتور محمود حمدى زقزوق: "دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى" ص ٩، ط: مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) الدكتور على أحمد مدكور: "الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى" مجلة الدارة،ع٤، ص ٥٢، السنة ١٤، السعودية ١٤٠٩ هـ.

(٣) سيد قطب: "معالم فى الطريق" ص ١٣١ ـ ١٣٣ .

المقدرات والمعطيات الموجودة بها فعلاً، وتنميـها وفقاً لميزان الله الثابت، وقيم الإنسان المقررة فى شريعة الله[١].

فالإسـلام حين يدخل المجتـمعات البدائيـة ينشئ الحضارة المناسـبة لهذا المجـتمع وحين يدخل المجتـمعات المتقدمـة صناعياً أو زراعيـاً أوغير ذلك فإنه يستـخدم كل ما لديها من معطيات ويقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيداً مما لديها.

وإذا كان هذا هو مفـهوم الحضارة الإسلاميـة، فإن التخلف الحقيقى فى ـ مـفهوم المجتمع الإسلامى المتحضر ـ هو تحويل منجـزات العلم الهائلة إلى قوى باغية للتدمير والتسلط وتسخـير إمكانات العـلم غيـر المحدودة فى نشـر الفوضى والعـادات غيـر الخلقية، والتى لا بد من استخدامها فـى إعلاء القيم الإنسانية وفى خدمة الإنسان دون بغى أو ظلم أو تحكم أو إبادة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[إبراهيم:٢٨].

إن مهمة العلم فى مفهوم المجتمع المتحضـر ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها بل التلطف مع الطبيعة والجد فى اكتشاف قوانين الله فيها[٢].

وإذا كان هذا هو عمل الإسلام حينما ينشئ حـضارة. فإن هذه الحضارة التى دعا إليـها الإسـلام تتمـيز بأنهـا منفـتحـة الحدود الفكريـة والنفسـية والمادية، والنصـوص الإسلامية التى تعلن هذه الحقائق كثيرة:

عن أبى هريرة. رضى الله عنه أن النبـى ﷺ قال: "ومن سلك طريقـا يلتمس فـيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة"[٣].

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عـنه ـ قال رسـول الله ﷺ: "إذا مـات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"[٤].

(١) سيد قطب "معالم فى الطريق" ص ١٣١ .

(٢) الدكتور على أحمـد مدكور: "الثقافة والحضارة فى التصـور الإسلامى" مجلـة الدارة، عدد ٤، ص ٩٩، ١٤٠

(٣) رواه مسلم. (٤) رواه مسلم.

وعن ابن مسعود. قال: قال رسول الله ﷺ : "لا حسد إلا فى اثنتين: رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها"[١].

وقال رسول الله ﷺ: "الحكمة: الإصابة فى غير النبوة"[٢].

وقال رسول الله ﷺ: "الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها"[٣].

ولا يخفى: أن الباحث الذى يسبر أغوار المواريث الفكرية لهذه الأمم ويتتبع خيوط هذا التمايز الحضارى يجد أنها تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ حيث كان البابليون والآشوريون والفينيقيون والمصريون وغيرهم ممن أسهموا فى الفكر الإنسانى وكان لهم تمايز حضارى[٤].

ولعل نظرة فاحصة إلى أمم مثل الفرس والصين والهند واليابان.. ستفضى بالباحثين إلى الاجتماع، على حقيقة تميز الشخصيات القومية، والمواريث الحضارية وطرق العيش والفلسفة والحياة وفى النظرة للكون وتصوره لدى شعوب وأمم هذه الحضارة.

وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية منذ اليونان وحتى نهضتها الحديثة والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لاندماج المواريث القديمة للشعوب التى دخلت الإسلام ـ بعد الإحياء لهذه المواريث ـ كثمرة لاندماج هذه المواريث فى الفكر الإسلامى الذى استصفاها وطورها وفقاً لمعاييره[٥]، حيث لم يكن المسلمون مجرد نقلة، ولكن إضافاتهم للأصول التى نقلوا عنها تشهد بأنهم زادوا وابتكروا لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الحضارات التى أخذوا عنها وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية[٦].

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه البخارى. (٣) رواه الترمذى وابن ماجة.

(٤) انظر: "أضواء على الحضارة الإسلامية" ص ٧٨ .

(٥) انظر الدكتور محمد عمارة: "الغزو الفكرى وهم أم حقيقة" ص ٩ بتصرف.

(٦) انظر الدكتور توفيق الطويل: "الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية" ص ١٥١، ط: مكتبة التراث الإسلامى، مصر ١٩٩٠م.

إذن: لابد من التصور الذى يقوم على أن الفكر إذا نظرنا إليه على المستوى العالمى الإنسانى وجدنا أن فيه: "ما هو مشترك إنسانى عام" لا يختص بحضارة بذاتها وفى هذا الفكر أيضا ما يتميز بالخصوصية والاختصاص.

والتميز فى الفكر بين ما هو مشترك إنسانى وبين ما هو خصوصية حضارية، إنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية.

فكل العلوم التى تكون الطبيعة موضوعها وظواهرها المادة وخصائصها. هى من قبيل الفكر الذى هو مشترك إنسانى عام؛ وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمى.

ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هى السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم. تلك الحقائق التى هى بنت الدليل، والتى لا تختلف باختلاف مذاهب وعقائد وأجناس وفلسفات المكتشفين. ومن ثم فهى لا تتغاير بتغاير القوميات والحضارات بل هى واحدة على المستوى الإنسانى، كما أن موضوعاتها المادة وظواهرها واحدة هى الأخرى لا تختلف ولا تتغاير باختلاف وتغاير الحضارات، فعلوم مثل الرياضيات بفروعها ومثل الكيمياء والطبيعة والطب والجيولوجيا لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الحضارات. وقد تتمايز وظائف استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها لكن حقائق علومها أى: "فكرها العلمى" سيظل واحداً مهما اختلفت المذاهب والعقائد والحضارات[1].

ويلحق بهذه المنظومة -من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها على نحو ما، وإلى حد كبير- العديد من ثمرات التجارب الإنسانية فى الوسائل والنظم والمؤسسات والخبرات التى ترشد أداء الإنسان وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات.

فعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل، فإن تجارب الإنسانية فى الوسائل

---

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: "الغزو الفكرى وهم أم حقيقة" ص ١٦ .

والنظم والمؤسسات قد تكون صالحة فى أحيان كثيرة للاقتباس - مع التطويع، والتمثيل، والاستلهام.

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية لا تستغنى عنها أى حضارة مهما سمت وارتقت إنها تمتزج لتكون وإياها صيغة جوهرية تختلف من تراث إلى آخر، وهذه العناصر الخارجية تأتى بطريق الاقتباس الإرادى المباشر المقصود. والاقتباس والنقل عملة متداولة بين الشعوب قاطبة فكل حضارة أبدعت، ونقلت، وأخذت وأعطت ولم توجد قط حضارة أبدعت ولم تنقل، فالنقل ليس وباءً وإنما هو غذاء، والاستعارة ليست عاراً وإنما هى فخار.

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هى ظاهرة صحية طبيعية سليمة، لا خطر فيها ولا خوف منها[1].

والعرب هم وارثو الحضارات القديمة إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة. فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم.

ففى الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين وحضارات الإغريق والكنعانيين والآراميين وجزر بحر إيجه.

وفى الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفى الشرق كانت الحضارة الفارسية ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخرى، وفى الجنوب كانت حضارة اليمن.

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضارات عند أطراف الصحراء تنقل البضائع والسلع، وكان لابد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع وأن تختلط هذه الثقافات وتتزاوج فى حركة بطيئة، ولكنها ثابتة مستمرة،

---

(١) انظر الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: "أصالة الفكر العربى" ص ١٥٢، ط: عويرات ١٩٨٢ م بيروت، فرنسا.

وأن يؤدى كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعارف وتقدمها تبعاً لهذا الاختلاط والتزاوج[1].

فى هذا الجو جاء الإسلام، إنه لم ينتشر فى فراغ، فالأمم التى صادفها أو اتصل بها فى حركة المد الكبيرة أو تلك التى اعتنقته ودانت به، أمم عرفت حضارات شتى، وثقافات متنوعة، ومرت بتجارب روحية، وخبرات مادية متعددة.

وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب ومعارك أولاً، ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك. ومن هنا كان التأثير والتأثر. ومن هنا كان التفاعل والإخصاب وكان الأخذ والعطاء وتبادل الأفكار والآراء.

وبذلك فقد عرب العرب حضارة الهند، وحكمة فارس، وفلسفة اليونان، واختلط المسلمون بأقوام تنوعت عقائدهم وتشعبت آراؤهم وصادفوا مئات المفكرين والباحثين والمثقفين، واتصلوا بأصناف من الأفراد والجماعات لا تدخل تحت حصر، وشاع التزاوج والإصهار، وتفاعلت العادات والتقاليد والآراء والأفكار والمذاهب والمواقف والعلاقات، وجاءت وحدة الدين لتعطى هذا التفاعل صيغة فريدة. ونتج عن ذلك كله مزاج فكرى واجتماعى وروحى جديد أعطى الحضارة الإسلامية معناها ومبناها[2].

وكلما ذهبنا نبحث فى حضارات الأمم وجدنا أن اللقاء والتفاعل الحضارى الذى عرفه التاريخ بين الحضارات العريقة المالكة لما هو: "مشترك ولما هو خاص قد تم وفق: أن هناك ما هو مشترك إنسانى عام" وهناك ما هو خاص.

فالتقاء الحضارات ـ وهو معلم من معالم التاريخ الحضارى للإنسانية وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقى . هو قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه. لكنه دائماً وأبداً

(١) انظر الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: "أصالة الفكر العربى" ص ١٦٤ .

(٢) المصدر السابق.

تم وفق هذا القانون الحاكم. التمييز بين ما هو مشترك إنسانى عام تفتح له الأبواب والنوافذ، بل ويطلبه العقلاء ويجدون السعى فى تحصيله، وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون فى حذر - قبل استلهامه وتمثله، ويعرضونه على معايير هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية(1).

لقاء الإسلام بحضارات الأمم

ويستطيع الباحث فى الحضارات، أن يضرب مثالين على تفاعل الحضارات والتقائها فى أخذ وعطاء وفق "ما هو مشترك إنسانى عام"، وما هو "خصوصية حضارية".

المثال الأول: لقاء الحضارة الإسلامية بالحضارة الفارسية، والهندية، واليونانية.

المثال الثانى: لقاء الحضارة الغربية إبان نهضتها بالحضارة الإسلامية.

أما المثال الأول الذى يقوم على لقاء الحضارة الإسلامية وتفاعلها مع الحضارة الفارسية، واليونانية، والهندية، فإن المدرك لأبعاد هذا اللقاء والتفاعل، يلحظ بوضوح: أن المسلمين لم يكونوا يومئذ أخلاء من أى تفتح عقلى، إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت، كما كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة أمدهم بها القرآن، فكانت بمثابة العمود الفقرى لكل تفكير عقلى، وتحرك عملى وعلمى.

ولهذا أقبل المسلمون على حضارات الأمم يمتصون بسرعة فائقة ما خلفه الفرس من حكم وآداب وخبرات سياسية، وما خلفه اليونان الإغريق من علوم فلسفية وعقلية، وما كان لدى مختلف الأمم التى التقت مع المسلمين، لقاء مودة، أو لقاء خصام.

لقد قام المسلمون بتحرير هذه العلوم، وتنقيتها من الشوائب، وتطويرها، وتنميتها، وصقلها، وإصلاح فاسدها، مسترشدين بالمنهج العلمى العام، الذى رسمه للمسلمين مصدراً التشريع الإسلامى العظيمان: القرآن والسنة.. كل ذلك فيما لم

(1) الدكتور محمد عمارة: "الغزو الفكرى، وهم أم حقيقة، ص205 بتصرف، ط: الأزهر 1988م.

يكن من خصائص الشريعة الإسلامية بيانه، وتحديد أصوله وفروعه، كأصول الاعتقاد، وأحكام العبادات، وأحكام المعاملات، ونظم الحياة الفردية والاجتماعية التى رسم الإسلام للناس طريقها، وأوضح لهم الصراط المستقيم(١).

إن الدولة الإسلامية الجديدة التى عملت على نشر الإسلام فى الممالك المختلفة، والتقت بحضارات الأمم لم تأخذ من الحضارات إلا لكى تعطى.. إنها لم تقبل التراث الفكرى اليونانى وغير اليونانى، إلا لكى تهضمه بعقليتها الجديدة، وتتمثله بمنطق تفكيرها، وروح عقيدتها، وبكل أصالة تاريخها وخصبه، وترده بعد ذلك أضعافاً مضاعفة.

فقد أقبل المسلمون على علوم اليونان، والهنود، وأصحاب الحضارات القديمة، يغترفون منها ماكان فى وسعهم أن يغترفوا، لكن تلك العناصر التى التهموها قد تحولت على أيديهم لتكون غذاء جديداً(٢).

إن العلماء المسلمين وهم يستوعبون نتاج الحضارات القديمة والمذاهب والأفكار، ويستعينون بها فى عملية البناء، كان رائدهم فى ذلك البحث عن الحقيقة لذاتها، و"الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها".

لقد أخذ المسلمون ما أخذوا لأنه طلاب حقيقة وهذا حسبهم، إنهم لم يقدموا على النقل والاقتباس للتجمل والزينة، وليباهوا الناس بكثرة الأحجار الكريمة، والأساور والعقود، والخلاخيل، بل لبناء الذات، واستدراك ما فات، واستكمال أسباب الحياة.

لقد كان المسلمون ينظرون فى كل شىء ويبحثون فى كل فج، ويستفيدون بكل حديث وقديم، ينقبون عن كل علم، ويسيرون وراء كل حكمة، ويأخذون العبرة من

---

(١) عبد الرحمن حنبكة الميدانى: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، ص ١٢٢، ط: دار القلم، دمشق، بيروت ١٤٠٠هـ.

(٢) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربى، ص ١٦٧ .

الماضى، وينطلقون للمستقبل، يستفيدون من القديم، ويبنون الجديد، وكانت لهم جولات وجولات فى كل ناحية من نواحى الحياة، فى العلم، وفى الحكمة، وفى الأخلاق، وفى الفلسفة، وفى الطب، وفى الهندسة، وفى الجغرافيا، وفى الفلك، وفى الصناعة، وفى الكيمياء، وفى الصيدلة، وفى الزراعة، وفى التاريخ، وفى القصص، وفى اللغة، وفى الحيوان، وفى الفيزياء، وفى الأحجار، وفى البحار، والمعادن[١].

ولم يدخر المسلمون جهداً فى البحث عن تراث الأمم السابقة، واضطلع المسلمون رغم ما عانوه من جهد بالتعرف على اليونانية القديمة، والفارسية، والهندية، وغيرها من الثقافات التى نما إلى علمهم أنها موجودة فى أى صقع أو قطر[٢].

لقد امتصت العقلية الإسلامية الغذاء الذى قدمه ميراث العالم القديم الضخم بعد أن أصبح متوفراً باللغة العربية، فأدى ذلك إلى قيام مدارس الفلسفة، والعلوم، والفنون المختلفة، التى سيطرت على أفق الحضارة الإسلامية نتيجة لتطبيق مبادئ الإسلام على أشكال المعرفة المختلفة، التى ورثها المسلمون عن الشعوب ذات الحضارات العريقة[٣].

لقاء الإسلام بالحضارة الفارسية:

وليس هناك شك فى أن الفتح الإسلامى للإمبراطورية الفارسية، ودخول الفرس بمواريثهم الحضارية الغنية فى إطار الدولة الإسلامية قد أتاح أوسع الفرص لتفاعل حضارى واسع وعميق وخلاق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامى[٤].

لكن الراصد لهذا التفاعل بين الفكر الإسلامى إبان تبلور حضارته وبين الميراث الفارسى يستطيع أن يميز بين ما "قبل" وبين ما "رفض" من هذا الميراث.

(١) انظر: الدكتور توفيق الواعى: الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٣٨٩ .
(٢) المصدر السابق، ص ٣٩ .
(٣) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا: أصالة الفكر العربى، ص ٢٢١ .
(٤) الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٢٠٦ .

لقد فـتحت فارس عـلى عهد الخليـفة عمـر بن الخطاب وكذلك فـتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى فى الدولة الإسلامية: النيل، ودجلة والفرات. ولم يتردد عمر ابن الخطاب فى تبنى النظام الفـارسى فى ضريبة الأرض الـزراعية والذى كـان يسمى "وضائع كسرى" وظل سائداً ومعمولاً به حتى فى ظل الدولة العباسية.

فـأنت ترى أنه فى عهـد عمـر بن الخطاب، تم استـلهام خـبرة وتجـربة حضـارية فـارسيـة فى طرق تقـدير الضريبـة على الأرض الزراعـية. ولكن المسـلمين الناشـرين للإسلام، فى فـارس كانوا حذرين كل الحـذر وشديدى الرفض والمقاومـة لكل ما هو "خصـوصيـة حضارية" فـارسيـة، تتعارض مع مـعاييـر الإسلام، وجوهر مـعتـقداته، وخصائصه الحضارية المتميزة.

لقـد رفضت الخـلافة الإسـلاميـة ـ وهى نمط مـتمـيـز ـ فى الحكم ـ ما تميـزت به مواريث الحضـارة الفارسية فى نظام الحكم وفلسـفته السياسـية التى كانت ترى رأس الدولة "كـسرى" ابناً للإله "هورا، مـزدا" يحكم باسمـه، ونيابة عنه زاعـماً أن لقـانونه وتنفيذه قداسة الإله والدين(١).

كـذلك رفضت الحـضارة الإسـلامـية مـيراث الفـرس فى النظام الطبـقى المغلق؛ لتعارضه الجذرى مع فلسفة الإسلام، فى المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات.

والذين يقرأون مصنفات علمـاء الإسلام فى الملل والنحل وصراعهم الفكرى مع الفرق والمذاهب غير الإسلامية، يدركـون المقاومة الباسلة، التى واجه الفكر الإسلامى بها مذاهب الفرس وعقائدهم وفلسفاتهم(٢).

فعلى حـين فتحت الأبواب للتـجارب الإنسانيـة العلمية ولعلوم التـمدن العلمى كان الحـذر بل والمقاومـة للفلسفـات والمعتـقدات المخـالفة للمـعاييـر الإسلامـية، فى السياسة أو فى الاجتماع أو فى الدين(٣).

---

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٢٠٧ـ٢٠٨ .

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٨ .

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٩ .

لقاء الإسلام بحضارة الشام، ومصر، وبلاد الشمال الإفريقى

لقد أخذ المسلمون ينشرون الإسلام خارج الجزيرة العربية بين الشعوب التى كانت تنتظر الإسلام، ونشأت الحضارة الإسلامية فى كنف القرآن الكريم، والسنة النبوية، وكانت الأمم الداخلة فى الإسلام ذات حضارات مزدهرة، فنشأ بين حضاراتها والإسلام مزج وتفاعل ولقاء، وبدت أعظم مظاهر هذا المزج فى النظم الاجتماعية، والآراء العقلية. واشترك الدعاة إلى الإسلام بأهل البلاد التى فتحت صدرها للإسلام، فى الحركة الاجتماعية والاقتصادية.

وبهذا كله امتزجت أمور أخرى كثيرة، وتأثرت بهذا الامتزاج كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية، والطبائع العقلية، وكانت الأمم المفتوحة للإسلام أرقى من العرب مدنية؛ ولهذا أسهمت فى نشأة الحضارة الإسلامية.

وحضارة مصر والشام والشمال الإفريقى. كانت ذات ميراث بيزنطى. استفادت منها حضارة الإسلام فى "تدوين الدواوين" وهو خبرة إدارية بيزنطية.

ويخبرنا التاريخ: أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية، سعى إلى مدرسة الإسكندرية يتعرف على ما فيها من تراث.

وقد كتب إلى أبيه معاوية، يبشره بنجاح سعيه وبلوغ ما أراد، فكتب قصيدة أرسلها إلى أبيه فى هذا الشأن، يقول فيها:

أيا راكبًا نحو الشـــام عشية ... يؤم دمشقاً قف فحمــل كتابياً

وبلغ يزيد حين يتلو رسالتى ... وقل خـــالداً قـد نـــال ما كان

ألا قد ملكت الشمس والبدر ... راجيا وحزتهما من بعد طـــول

وخالد بن يزيد يقصد بالشمس الذهب، وبالبدر الفضة، وكانت صناعة الكيمياء آنئذ قائمة على أساس تحويل المعادن الخسيسة إلى الفضة والذهب[1].

(١) انظر: أضواء على الحضارة الإسلامية، مرجع سابق ص ٨١ .

وبهذا بدأت حركة الترجـمة للعلوم الطبيعية والتجريبـية، وفنون التمدن العلمى، والتى سميت بعلوم الصنعة.

وإذا كانت الحضـارة الإسلامية تفـاعلت مع حضارة مصر والشـام، وتبنت ما فى هذه المجتمـعات من المعـارف والعلوم والتجـارب الإنسانيـة. فإنهـا فى الوقت نفسه حاربت "الغنوصيـة" والهلينية فى الفلسفة، وعـارضت عقائد ومذاهب المسيـحية التى أخرجتها الروح الهلينية، عن نقاء عقيدة التوحيد.

لقاء الإسلام بالحضارة الهندية

الهند قـارة تسكنهـا مجـموعـة شـعوب مـختلفـة الأجناس، والمذاهب الدينيـة، والفكرية، والاجـتمـاعيـة. وجهـود الهند فى التـعليم قديمـة جداً. وأكـثر نتـاج الهند الفكرى، كـتب باللغة السنسكريتـية. وهى مـعروفة الأصـول، مما ساعـد على معـرفة جميع نواحى الثقافة الهندية.

والباحث فى الحـضارة الهندية سـوف يجد أن الهنود أسهـموا فى جـميع العلوم القديمة. وأشهر علوم الهند:

• **الفلك والرياضيـات:** وأقدم الرسائل الـفلكية هى كتاب "السد هـانتا" حوالى ٤٢٥ق.م. ثم أبحـاث "أريابـهـاتا" أعظم الفلكيـين والرياضـيين الهـنود الذى علل الكسوف والخسـوف فى حركة الأرض حول الشـمس. أى قال بدوران الأرض حول الشـمس، وشرح كرويـة الأرض فى دورتها الحـيوية حـول محورهـا كما عـرف هذا الرياضى النظام العشرى.

• **الفـيـزياء والكيـمـيـاء:** وجـدت فى الهند مذاهب فـيزيائيـة مخـتلفة. وقـال بعضـهم: إن الضوء والحرارة ظاهرتان مـختلفتان لعـنصر واحد، وأن الشمس مـصدر الحرارة فى العالم. وفسر آخر الضوء بأنه مؤلف من ذرات صغيرة، تنبعث من الأشياء وتطرق العين. أما الكيـمياء فتقدمت مع تقـدم الطب الهندى والصناعة الهندية، وكان

الرومـان ينظرون إلى الهند، كأمـهر أمـة فى الصناعـات الكيمـيائيـة مثل: الصـباغـة، والدباغة، والصابون، والزجاج، ونوع من الأسمنت.

● **الطب**: وأشـهـر ما اشـتـهـر به الهنود الطب، وكـان أطبـاء الهنود منذ القـرن السادس قبل الميلاد، يعرفون الأوعية الدموية، والأنسـجة الدهنية، والضفائر العصبية، والجهاز اللمـفاوى، وأنواع العضلات وحـركاتها، ويعرفـون تجبير العظام، ويفـهمون عملية الهضم، وتطور الجنين، ويشرعون فى ضرورة فحص الزوجين قبل الزواج[١].

ولاشك أن تفاعلاً حضارياً فى مخـتلف العلوم والفنون، قد أخذ دوره فى محيط الحـضـارة الإسلامـيـة من واقع تأثرات الـتـمـازج والمخـالطة. فـعـرف المسلمـون من الرياضيـات الهندية كتاب: "السـد هانتا" السند هند[٢]. وفى أيام أبو جعـفر المنصور، قدم كثـير من علماء الهند، وكان معـهـم "السد هانتا" السند هند باللغة الـسنسكريتية. وقد كلف أبـو جعفـر العلامة أبـا إسحاق بن حـبيب الفـزارى بتعريبـه، ففـعل، وقام الخوارزمى بتـصحـيحه ومـراجعـته[٣]. والمسلمون اسـتفادوا من الأرقـام عند الهنود، فهذبوها وكونوا منها سلسلتين عرفت إحـداهما بالأرقام الهندية وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية[٤].

فعندما التقى الإسلام بمواريث الحضـارة الهندية، أخذ ما يتناسب معه، وترك مالا يتـفق مع مبـادئ الإسلام، مما هو خـصوصـية حـضارية. فـالبيـرونى ٣٦٢ـ٤٤٠هـ / ٩٧٣-١٠٤٨ م الذى نهض بمهـام وأعباء البـعثـة العلمية عـندما عاش بالهنـد أربعين عـامـاً عقب الـفتح الغـزنوى لبـعض أقـاليـمـهـا، والذى درس تاريخ الهند وتراثهـا وحضارتها دراسة العبقرى المتفرد..

البيرونى هذا يعلمنا أن أسلافنا ميزوا بين العلوم الطبيـعية، والعملية، والتجريبية،

(١) أنور الرفاعى: الإسلام فى حضارته ونظمه، ص ٥١١-٥١٢، ط: دار الفكر ١٣٩٣هـ.

(٢) الدكتور مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية، ص ١٣، ط: دار العلم للملايين، بيروت.

(٣) فيليب طرازى: خزائن الكتب العربية فى الخافقين، جـ ١، ص ٥٠، ط: بيروت.

(٤) أضواء على الحضارة الإسلامية، مرجع سابق ص ٩٤ .

التى أخـذوها وطوروها، وبين ديانات الهـند ومذاهبـهـا وفلسـفـاتها التى رفـضـوها لتعارضها مع التوحيد الإسلامى، ومع إلهية المصدر الدينى فى الإسلام[1].

لقاء الإسلام بالحضارة اليونانية

يكاد يكون مـعـروفاً أنه: ليـس فى الحضـارات القـديمة حـضـارة تثـير الدهشـة والإعجـاب كالحضارة اليـونانية، لأن هذه الحضارة جـمعت آثار الحضارات البـابلية، والمصرية، والفـينيقية، والفـارسية، ثم أضافت إلـيها آثاراً فنية رائعـة، ومذاهب فكرية مبتكرة، ومبادئ خلقية سامية، يتجلى فيها الإبداع بأقوى مظاهره.

ولاشك أن للعوامل التاريخية، والجغرافية، والاقـتصادية، والاجتماعية، تأثيراً فى تكوين الحضارات. ولكن هذه الأسبـاب لا تكفى لتفسير ما تميـزت به حضارة اليونان من قوة الإبداع والابتكار.

لقد غربل اليونانيون آثار الحضارات القديمة، ومحّصوها أعمق تمحيص، فحذفوا منها ما حذفوا، واستبقوا منها ما اسـتبقوا، ولكن حضارتهم ليست حصيلة الحضارات السابقـة فحسب، وإنما هى حـضارة متـميزة، أطـلقت حرية العقل، وجـاوزت حدود الزمان والمكان[2].

ويذكر العلماء: أن الحـضارة اليونانية، عـرفت باسم الحضارة الهيلينيـة، نسبة إلى "هيلين" الجد الأكبر الخرافى للشعب اليونانى. وقد انتشرت هذه الحضارة الهيلينية مع امتـداد نفـوذ الإغريق التـجارى الاسـتعـمارى، ولما فـتح الإسكندر المقدونى الـشرق امتزجت الثقافة اليونانية بروح الشرق[3].

فنشأت حضارة مـزيجة عرفت بالهيلينية، وأخصبت عدة مـراكز فى الشرق، ولما جاء

(١) انظر: البيرونى: تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة، ص ٨٠ بتصرف.

(٢) الدكتور جميل صليبا: تاريخ الفلسفة العربية، ط: دار الكتاب اللبنانى، ١٩٨٦م.

(٣) انظر: أنور الرفاعى: الإسلام فى حضارته ونظمه، ص ٥٠٠ .

الإسلام وجد فى هذه المراكز حضارة يونانية فى الإسكندرية، وفى إنطاكية وغيرهما، وكان لابد لهذه الحضارة الإغريقية أن تظهر على مسرح الوجود، عنواناً على حضارة هذه الأمة الآرية، التى علمت الإنسانية جمعاء الكثير من أنماط الفكر وسياقاته..

ولكن كان لها النسق الخاص بها، والخاص بها وحدها، المتصل ببيئة المجتمع اليونانى.. ولذلك حين قام الإسلام بوضع فلسفته، المعبرة عن حضارته كان لابد من اختلاف عنيف، ومن جدل قاس، وتعارض فى المنهج، وفى المادة، بينه وبين الفلسفة اليونانية[1].

لقد سعى المسلمون إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية، آخذين إياها من مصادرها الشرقية فى البلاد التى فتحوها، فترجموا تراث اليونان فى: الطب، والكيمياء، والهندسة، والرياضيات، والزراعة، والمناظر، والحساب، والمنطق، وغيرها من العلوم الطبيعية، والعلمية، والتجريبية.

ولكن المسلمين زهدوا، بل انصرفوا عن نقل الآداب اليونانية لأنها كانت وثنية تتحدث عن الآلهة التى كان يصارع بعضها بعضاً، وفيها فوق هذا كله نقائض البشر.

فهناك ميادين فى المعتقدات، والإنسانيات اليونانية، قد نفر منها المسلمون، فضربوا عنها صفحاً ولم يترجموها، ولا حتى للمتخصصين من العلماء، وذلك مثل عقائد الوثنية اليونانية، وأساطير آلهتها، وآداب اليونان وفنونها[2].

إذن استفاد المسلمون من الحضارة اليونانية فى حدود "قانون التفاعل الحضارى" الذى يميز دائماً وأبداً بين ما هو "خصوصية حضارية" وبين ما هو "مشترك إنسانى عام".

(١) الدكتور على سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، ج، ١، ص ١٠٢، ط: دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

(٢) انظر الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٢١٢ .

وإذا كان الأمر ـ كما ذكرت ـ فلماذا أعطى المسلمـون وزناً كبيراً لفلسفة اليونان، ترجمة وشرحـاً، حتى تضخمت آثارها، فى تراث المسلمين الحـضارى. علماً بأن هذه الفلسـفـة اليـونانيـة، لا تدخل فى قـانون التـفاعل الحـضـارى، ولا تناسب العـقـائد الإسلامية.

إن الباحث يجد أن المسلمين حين انفتحـوا على الحضارة اليونانية، أخذوا منها ما يتفق مع خـصوصـيتهم الحـضارية، ثم واجهـوا ما عند اليـونان من النمط الهلينى. فى النظر والفكر والتى كانت "الغنوصية" أبرز مذاهبه فى نظريات المعرفة.

كانت "الهـيلينية" كـما وجدها المسلمـون فى البلاد التى فتـحوها هى: "اليـونانية الشرقـية" التى امتـزج فيهـا الفكـر الفلسفى الـيونانى، بروحانيـة الشـــرق، ومـــع هـــــذه "الهيلينية" كانت أولى معارك الإسلام الفكرية..

حيث إن المسلمين الذين أبدعوا عقلانيتهم الإسلامية المتميزة، فأنشأوا علم الكلام الإسلامى، الممثل لفلسفة الإسلام المتميزة منذ النصف الثانى من القرن الهجرى الأول، ثم اتجـهوا بعـد ذلك إلى ترجمـة الفلسـفة اليـونانية، وترجـمة عـقلانيـة أرسطو أولاً وبالتحديد، لا ليتخذوا منها فلسفة لهم وللإسلام، وإنما ليردوا بها كسلاح يونانى على الهلينية وثمرتها "الغنوصية" التى هى تأثيرات يونانية مزجت بباطنية الشرق، وروحانية الشرقيين.

وأنصار الغنوصـية كانوا ـ كـمتغربى هذا الزمـان من أبناء الأمة الإسلامـية ـ أثراً يونانياً فى الشـرق، وامتداداً شرقيـاً لفكراليونان. فعمـد العلماء إلى ترجمة العـقلانية اليـونانيـة، ليـردوا بهـا على أنصـار اليـونان، وكـأنهم أرادوا أن يقـولوا لهم: إنكم لا تحترمون إلا ما هو وافد، ومسـتورد، ويونانى الصنع. فها نحن نجابهكم بأرسطو المعلم الأول عند اليونان، وأبرز عقولهم الفـلسفية بإطلاق، نجابهكم بالعقلية اليـونانية نقضاً لغنوصية الأفلاطونية المحدثة اليونانية، استخداماً للأسلحة التى تحترمون وتعظمون[1].

---

(١) انظر: الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٢١٣ بتصرف.

ولا يخفى أن هذه الرؤية العقلية، التى توضح سبب اهتمام المسلمين بالفلسفة اليونانية تنهض الأدلة المختلفة لتأييدها فى قوة.

فلقد كانت الهلينية و "الغنوصية" الباطنية هى تغريب ذلك العصر، والغزو الفكرى الذى أصاب الغرب اليونانى الشرق، منذ انتصار الإسكندر الأكبر (٣٥٦ق.م ـ ٣٢٣ ق.م) على الدولة الفارسية (٣٣٣ ق.م) وبنائة امبراطوريته الشرقية الأولى، فلما ظهر الإسلام خاضت ضده المعارك فى البلاد التى فتحها المسلمون.

لكن الإسلام بعد أن بلور عقلانيته المتميزة. تقدم فاستعان بالعقلانية الأرسطية فى نضاله ضد الهلينية والغنوص، فكانت ترجمة الفلسفة اليونانية، استعانة بحقيقة الفكر اليونانى على هزيمة صورته الشرقية المهجنة، وبسلاح معترف به من الغنوصيين[١].

ويقول المستشرق الألمانى بكر كارل هينرش ١٨٧٦ـ١٩٣٩: "إننا نرى كفاح المسيحية من أجل استقلالها، وتوكيد ذاتها بإزاء الروح اليونانية المجسدة فى "الغنوص" يتكرر من جديد فى الإسلام فى القرون الأولى تحت أسماء أخرى.

فكما كانت المسيحية الأولى معادية للروح الهلينية، كان الإسلام فى الصدر الأول على العموم معادياً هو الآخر للروح الهلينية. والميزة الرئيسية للقرآن هى أنه كان يؤثر تأثيراً مضاداً للروح الهلينية، فى عصر تغلغلت فيه الهلينية، وفى اللحظة التى تخطى بها الإسلام حدود مهده الأول، بدأ الصراع والتصادم.

إن المانوية والزرادشتية كانتا بالنسبة للإسلام عدوتين خطيرتين كالمسيحية، وإن "غنوص" المانوية، والمذاهب الشبيهة بها كانت خطرة على الإسلام خطراً مباشراً، لذلك نرى أن أول مدرسة كلامية فى الإسلام، ونعنى بها مدرسة المعتزلة قد استفادت بعضاً من أصولها، ومسائل بحثها عن طريق كفاحها ضد المانوية.

وفى كل هذه الألوان من الكفاح، تكونت جبهة كفاح فريدة فى بابها، فالدولة

(١) الدكتور محمد عمارة، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٢١٤ بتصرف. .

والمذهب الدينى الرسمى، يسيران هنا كما يسيران فى كل مكان، جنباً إلى جنب، وفى صف واحد، لكنهما فى كفاحهما ضد "الغنوص" الذى لا يعترف لأحد بسلطان يهيبان بالروح اليونانية الحقيقية (الفلسفة اليونانية) كى تساعدهما.

لقد كان الغنوص، يحارب الإسلام دينياً وسياسياً، وفى هذا النضال استعان الإسلام بالفلسفة اليونانية، وعنى بإيجاد عالم من العلوم العقلية.

فالإسلام قد تحالف مع التفكير اليونانى والفلسفة اليونانية ضد "الغنوص" الذى كان خليطاً من المذاهب القائمة على النظر والمنطق وعلى مذاهب الخلاص الباطنية، ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون للعمل على ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية.

وقد اعتاد الناس أن يفسروا هذا بإرجاعه إلى ميل المأمون إلى العلم وحبه له، لكن إذا كانت الرغبة فى ترجمة كتب الأطباء القدماء، قد نشأت عما اشتهرت به المدارس الطبية الكبرى من حاجة عملية إلى هذه الكتب، فلعل ترجمة كتب "أرسطو" أن تكون قد نشأت بالضرورة عن حاجة عملية كذلك.

وإلا فإنه إذا كانت المسألة مسألة حماسه للعلم، ورغبة خالصة فى تحصيله فحسب، لكان "هوميروس" أو أصحاب المآسى من بين من ترجمت كتبهم أيضا، لكن الواقع هو أن الناس لم يحفلوا بها، ولم يشعروا بحاجة ما إليها"[1].

لقاء الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية

إن الباحث فى انفتاح الغرب على الحضارة الإسلامية، يجد أن هذا الانفتاح قد تحقق من خلال:

١ - نقل التراث الإسلامى فى صقلية:

ولا يخفى أن المسلمين قضوا فى حكم جزيرة صقلية قرابة ثلاثة قرون، وخلال

(١) بكر كارل هينرش: التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية، ص ٧-٩، ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى، ط: القاهرة ١٩٦٥م.

ذلك كانت الحضارة الإسلامية مزدهرة ازدهاراً شد انتباه غير المسلمين. فلما استولى الأوروبيون على صقلية ترجموا إلى لغاتهم تراث المسلمين الحضارى المزدهر فى جزيرة صقلية، مما كان له أثر واضح فى النهضة الأوروبية الحديثة.

٢ - نقل التراث الإسلامى فى بلاد الأندلس:

إن المسلمين استطاعوا فى قوة أن يقيموا حضارة الإسلام فى بلاد الأندلس، وأصبحت بلاد الأندلس فى ظل الحكم الإسلامى، بلاد الحضارة والعلم. مما جعل علماء أوربا يذهبون إليها ليتلقوا العلم على يد علمائها، ويترجمون تراثها من العربية إلى اللاتينية.

لقد كانت قرطبة فى عهد عبد الرحمن الثانى، مركزاً رائعاً للجمال المادى والنشاط الفكرى.. ونما ذلك فى عهد عبد الرحمن الثالث. وكان شديد العناية بالعلوم والآداب، وتزايدت هذه النهضة فى عهد ابن الحكم الثانى الذى كان إلى جانب عمله يرسل مندوبين إلى جميع بقاع العالم الإسلامى لابتياع الكتب أو استنساخها. ووفق بذلك إلى إنشاء مكتبة تضم آلاف الكتب.

وإذا كانت قرطبة، وغرناطة وغيرهما من مدن حضارية قد سقطت فى أيدى غير المسلمين فإن العلوم والآداب الإسلامية والحضارة واصلت ازدهارها فى ظل النقل والترجمة والإبداع.

٣ - نقل التراث الإسلامى أثناء الحروب الصليبية:

كانت الحروب الصليبية صراعاً بين الكنيسة والشرق الإسلامى، وهدف هذه الحروب تخليص الأراضى المقدسة من المسلمين، وقد استمرت قرنين من الزمان. ومن المؤرخين من يرى أن هذه الحروب هى العامل الوحيد فى تقدم أوربا، حيث تم نقل الصناعات والفنون الإسلامية. ويرى بعض العلماء: أن الشرق الإسلامى قد أثر فى الغرب المسيحى إبان الحروب الصليبية من أربع نواح هى:

١ ـ فى الكنيسة البابوية، إذ قامت فى بيت المقدس عام ١١٠٠م مملكة دنيوية بدلاً من "الثيوقراطية" الدينية التى كان يحلم بها البابا.

٢ ـ كما أثرت الحروب فى الحياة الداخلية والاقتصادية، فى جميع الممالك إذ نشأ نوع جديد من الضرائب على ممتلكات الأشخاص، كما ساعدت تلك الحروب على الإقلال من أراضى الأشراف.

٣ ـ كما أثرت الحروب فى العلاقات الخارجية للدول ونظام أوروبا، بتأثيرها فى الكنيسة من ناحية، وبإيجاد رابطة جديدة للوحدة الأوربية من ناحية أخرى.

٤ ـ كما أثرت تلك الحروب فى العلاقات القائمة بين أوربا وآسيا، فنهضت حركة الارتياد والرغبة فى الاستزادة من المعلومات(١).

لقد اختلط الأوربيون بمن هم أرقى منهم فاستفادوا من الحضارة الإسلامية فساعد هذا على قيام النهضة الأوربية الحديثة.

إن أوربا استطاعت أن تتفاعل مع الحضارة الإسلامية، وتأخذ عنها، وتستفيد منها فيما هو "مشترك إنسانى عام"، أما ما كان من خصوصية للحضارة الإسلامية، فقد رفضها الغرب.

لقد أقبل الغرب بنهم على امتلاك رصيد الحضارة الإسلامية من العلوم الطبيعية: علوم المادة وظواهرها، وخصائصها.. وعلوم التمدن المدنى والعلمى، مثل: علوم الطب، والصيدلة، وقواعد النظافة العامة والخاصة، وعلوم الزراعة، والنباتات، والحيوان، والفنون، وعلوم الحرف، والصناعات، والتجارة، والمواصلات، ووسائل الاتصال، وفنون القتال، واستخدامات الحرب، وطبقات الأرض وأنواعها، والمعادن، والبصريات، والمناظر، والكيمياء، والفلك والرياضيات، من جبر، وهندسة، وحساب، والجغرافيا، والرحلات، وعلوم البحار، والملاحة فيها.. وغير ذلك من علوم وفنون(٢).

لقد أخذ الغرب، ما سبق أن أخذه المسلمون عن أسلافهم اليونان، وغيرهم من

---

(١) انظر الدكتور توفيق الطويل: الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، ص ١٦٧، ١٦٨ بتصرف.

(٢) انظر الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٢٤٨ .

الفرس والهنود، وما أخذه المسلمون من مدرسة الإسكندرية من علوم الصنعة، مضافاً إليه إبداع المسلمين.

لقد أخذ الغرب، من الحضارة الإسلامية، ما هو "مشترك إنسانى عام" وترك من الحضارة الإسلامية، ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

" لقد أجمعت تيارات فكر النهضة الغربية على رفض أبرز خصائص الحضارة الإسلامية، وهى خصيصة "التوحيد" وخصيصة" الوسطية" وخصائص أخرى كثيرة تتصل بالإسلام، وعقائده.

ورفض الغرب لهذه الخصائص الإسلامية، هو الذى ميز الحضارة الغربية بطابعها الأصيل: الطابع المادى.

* فالحضارة الإسلامية قامت بعملية "توفيق" ما بين الحكمة والشريعة، ولكن الحضارة الغربية تميزت بإخراج الدين من إطار العقل، كما أخرجت الدنيا والدولة وعلوم التمدن من إطار الدين.

* والحضارة الإسلامية ربطت بين الدين والدولة، والحاكم والمحكوم، والحضارة الغربية فصلت بين الدين والدولة فى خصوصية حضارية فكانت العلمانية.

* الحضارة الإسلامية وفقت بين الفرد والمجموع فى ربط متناسق، أما الحضارة الغربية فقد انحازت للفرد فى "ليبرالية" واضحة.

* والحضارة الإسلامية ربطت الأعمال بالحكمة منها، والوسائل بأخلاقيات الغايات المبتغاة من ورائها. أما الحضارة الغربية، فكان اهتمامها قائماً على اللذة واللحظة. وكانت سياسة الحضارة الغربية تعنى "بالميكيافيلية": "فن الممكن من الواقع بصرف النظر عن الأخلاق".

* الحضارة الإسلامية وازنت بين سيادة الله وحاكميته، وبين سلطان الأمة وسلطاتها، فى حين كانت الحضارة الغربية تقوم على أن الإنسان سيد الكون يفعل ما يشاء[1].

(١) انظر الدكتور محمد عمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص ٢٤٩-٢٥٠ بتصرف.

إذن وبكل تأكيد: هناك ما هو "مشترك إنسانى عام" تأخذه الحضارات من بعضها، وتساهم فيه كل حضارة بالعطاء المتجدد، الذى يزيده قوة وفائدة.

وهناك ما هو خصوصية حضارية، لا تقبل الحضارات الآخذة أن يكون ضمن المأخوذ، ونجد ذلك واضحاً فى أعمال أوربا الناهضة، فحينما ترجمت أعمال الفيلسوف المسلم ابن رشد أخذت من هذه الأعمال ما يتصل بالفلسفة اليونانية، ورفضت أخذ ما هو خصوصية حضارية إسلامية.

فالرشدية اللاتينية التى أخذتها أوروبا هى شروح ابن رشد على أرسطو حكيم اليونان، أما إبداع ابن رشد الفيلسوف المسلم والمتكلم والقاضى والفقيه والذى تمثل فى مؤلفاته: "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال"، و"تهافت التهافت"، و "مناهج الأدلة"، فقد رفضته أوروبا رفضاً تاماً.

ويقول الفريد جيوم: "إن علينا أن نضع حداً فاصلاً بين ابن رشد كفيلسوف وابن رشد كشارح لأرسطو"[1].

وإن كانت الحضارة الغربية قد رفضت منذ البداية الرشدية الإسلامية، كما تمثلت فى مؤلفات ابن رشد الإبداعية، فإن الحضارة الغربية قد رفضت أيضاً إضافات ابن رشد التى تخللت شروحه على أعمال أرسطو. ونهض بهذه المهمة القديس "توماس الأكوينى" (١٢٢٥ـ ١٢٧٤م)، ولذا نرى الجامعات الغربية تتبنى أرسطو فى ذات الوقت الذى تحرم فيه فكر ابن رشد، وتحكم بالكفر على مائتين وتسع عشرة مسألة تمثل إضافات ابن رشد على الشروح التى قدمها لأعمال حكيم اليونان[2].

ومما لا يحتاج إلى بيان أنه كلما استلهمت الحضارات "ما هو مشترك إنسانى عام"، تقدمت الحضارات، واستفادت، وازدهرت، وانتشر الأمن.

❊ ❊ ❊

---

(١) الفريد جيوم، الفلسفة وعلم الكلام، ص ٣٩٤ بحث منشور ضمن تراث الإسلام.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦٠، ٣٩٤.

المبحث الثالث
التفاعل الحضارى

التفاعل الحضارى ضرورة إنسانية لابد منها لقيام الحضارات، وتقدم الإنسان فى كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع فى المجتمعات الإنسانية السلام والأمن.

وإذا تأملنا فى حال الأمة الإسلامية وجدنا أنها ـ من وجهة نظرنا ـ محاصرة بين غربتين: غربة زمان، وغربة مكان.

أما غربة الزمان، فهى: بعد الأمة عن ماض حضارى مشرق، لم تعد تربطها به عوامل الثقافة الفاعلة أو البانية.

وأما غربة المكان، فهى: بعد الأمة عن واقع حضارى معاصر، تجهل عنه كل شئ. مما مثل فجوات حضارية كبرى ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها.

ولذلك إذا كان لابد لهذه الأمة، أن تعود إلى التفاعل الحضارى، وتستفيد من حضارات الإنسانية، كان لابد من خروج الأمة الإسلامية من الاغتراب الزمانى والاغتراب المكانى. وذلك بالربط بين الواقع والثوابت الحضارية الإسلامية، وبين مصادر وعوامل التقدم المعاصر.

وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين، والعلم، والحياة، فى إطار من حرية الفكر، وسياسة عقلانية للتقدم، وتسامح مستنير(١). فإن فعلت الأمة ذلك كان ذلك بداية فى طريق حضارى.

وإن التقدم البشرى فى مختلف المراحل والمجالات ليس إلا حصيلة الإبداع الفكرى والتعاون، والاحتكاك بين المجتمعات.

---

(١) الدكتور محمود قمبر: "هدفية العلم فى الإسلام"، مجلة حولية كلية التربية، عدد رقم ٨، ص ٦٣ سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، كلية التربية، جامعة قطر.

ولا عيب أن نأخذ من حضارات الأمم مـا يفيدنا، ولكن العيب أن نظل عالة على أمم الأرض نأخذ منها ولا نعطى.

ويجـدر بنا أن ندرك أن الانغـلاق ليس بالموقـف اللائق بالعـقـلاء، ولا التبـعيـة الحضارية بمفيدة. أو ملائمة لمن يمتلكون خصوصية حضارية إسلامية.

والعـزلة الحضـارية والجـهل صنوان، كلاهمـا تخلف، وكـلاهمـا حجـاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة فى طريق التطور والتقدم.

ويكاد يكون مؤكداً: أنه لا توجد حـضارة قامت بذاتها، واكتفت بذاتها مـستغنية عن غيرها، وإنما هى نتيجة تطور حضارى دائم وتفاعل بين حضارات أخرى تفاعلت هى بدورها وغيرها من الحضارات فى الزمان والمكان.

والنمو الحضارى إنما يعتمد على التـجارب الحضارية الأخرى. وكلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل بين الحضارات ازدادت فرص الحياة والنمو والاكتساب والتعلم.

والأمة الإسلاميـة وهى تتطلع إلى مستقبل مشرق، لابد وأن تخـوض معركة بناء الذات وتجديدها مسوقة بقيم وأفكار ومواريث لها فى وعيها فاعليتها القوية.

ولا يخفى أن الأمـة الإسلاميـة تملك رصيـداً ضخمـاً من القيم الهـادفة وتوجيـهات الإسلام، وهذه القيم كفـيلة عند استثمارها بأن تجعل الأمة الإسلامـية فى وضع يسمح لها بأن تنمى فلسفتها الحضارية الإنسانية، وتتسابق مع أمم الأرض فى بناء حضارة إنسانية.

ومما هو مـعـروف أنه ليس كـل عمـل يصـدر من الإنسـان يسـهم فى الحـضـارة الإنسانية، وإنما ذلك العمل الذى ينمى الحضارة وينطلق من الإنسان للإنسان.

وقد يـكون معلومـاً لدى العقـلاء: أن الصراع لا يصنع الأفـضل لكل الأطراف. وهنا يجب أن نحترم أمانة التاريخ. وأن نقرأ الأمور بجدية أكثر، وربما كانت مجموعة القـوى الغربيـة المفضلة لهـذا الصـراع تركض وراء الوهم، أو تفضل مـشاهدة نشـوة الغرور.

إن الغرب حين يتصرف كقوى مستبدة، فإنه يقول للآخرين يجب أن تتصرفوا كمستبدين أقوياء. وهذه مصادرة لمنطق الفضيلة والعقل[١].

وفى سياق الحملة التى يتعرض لها المسلمون، وبالتالى الدين الإسلامى. فى جميع أنحاء العالم. تصدر أصوات عدة تتهم الإسلام بأنه: دين التعصب، والتزمت، ورفض الحوار مع الآخر، أو التعايش مع الجماعات المختلفة عنه.

ومما يزيد فى أوار هذه الحملة. أن ثمة ممارسات ومواقف تتخذها أطراف محسوبة على المسلمين، لكنها تصب فى خانه أعداء الله، وأعداء الأمة الإسلامية.

وتعتبر فكرة التعايش بين الأديان والأمم والشعوب المختلفة، مسألة محورية فى التفكير المعاصر فى الشرق كما فى الغرب.

وتركزت أصوات غربية كثيرة على هذا الجانب فى حوارها أو سجالها مع الإسلام والمسلمين، مطالبة بالكشف عن المفاهيم الإسلامية الحاكمة لمبدأ العلاقة مع الآخر، سواء كان هذا الآخر من دين مختلف، أو مذهب مغاير، أو عرق متمايز، وما شابه [٢].

وبداية يحسن أن نعرف: أن الحوار بين البشر ليس مفهوماً جديداً أو مبدأ مستحدثاً، بل هو فكرة ووسيلة لطالما استخدمت فى مختلف مراحل التاريخ البشرى، وبدرجات متفاوتة من الوعى والتجسيم، فاتخذ أشكال المعاهدات، والاتفاقات، وتجسد فى مختلف مظاهر التعاون والتواصل بين الشعوب والحضارات.

ومع تزايد التهديدات التى لحقت بالأمن والسلام الدوليين، وكان سببها الغرب وليس العرب أو المسلمون، وانتشار مظاهر العنف واستخدام القوة خلال القرن الماضى، مما أدى إلى سقوط ما يقارب من مائتى مليون من الضحايا، تنادى العديد من الأصوات الإنسانية، ممثلة فى اتجاهات فكرية، ومنظمات، ودول، وأفراد، إلى حماية ما يهدد البشرية من صراعات وحروب.

---

(١) سلمان فهد العودة، الإسلام والغرب، جريدة الحياة صـ ١٠ بتاريخ ١٨/ ١/ ٢٠٠٢ .

(٢) سمير رزق الله، الإسلام دين التسامح، جريدة الحياة صـ ٢١ بتاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٩٦ .

فتأسست المنظمات الدولية والإقليمية صوناً للسلام، وتحقيقاً للتعاون، وبرزت الحاجة فى السنوات الأخيرة إلى تكريس الحوار بين الثقافات، وبين الحضارات ووضع مرتكزا ته وتصور آليات لقيامه.

ولم يكن من العسير على الثقافة العربية الإسلامية، أن تندرج فى هذه الدعوة إلى الحوار، فهى ثقافة زاخرة بقيم التسامح، مليئة بمبادئ التضامن والتعاون(١).

وقد لا يخفى: أن موضوع الحوار، له تعلق كبير بفنون أخرى مستقلة كـ(فن الجدل) وفن(البحث والمناظرة) ، وقد ذكر العلماء آداباً لتلك الفنون، مما يستفاد منه فى الحوار، ويحتاج إلى جمع وترتيب من جديد.

كما أنه قد شاع فى العصر الحديث تخصص يتصل بهذا الموضوع، وهو فن العلاقات العامة، وأنشئت لدى الدوائر والمؤسسات أجهزة خاصة بالعلاقات العامة، المسئولية الأساسية لهذه الأجهزة، هى حسن الاتصال بالآخرين لإقناعهم بآراء معينه، أو تصحيح أفكارهم نحو قضية أو غير ذلك.

وعلى أهمية هذا الفن والتركيز عليه فى العصر الحديث، وتأليف كتب خاصة به، يمكن أن يقال: أنه فن قديم لكنه أخذ شكلاً أكثر تحديداً أو تخصيصاً ودقة(٢).

ولذلك فالاهتمام بموضوع الحوار، يساعد فى إثراء هذه العلوم، وفى إحياء ما اندثر من تلك الآداب، التى تمثلها الأنبياء والعلماء، ومحاولة السير على نهجهم فيها: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠].

والله سبحانه وتعالى قد ذكر الجدال بالتى هى احسن فى ضمن وسائل الدعوة حيث قال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥].

---

(١) انظر المنجى بوسنينة، جريدة الحياة صـ٩ ز ٢١٢/ ٢٠٠١م.

(٢) الندوة العالمية للشباب ، فى أصول الحوار ص٥ الرياض. السعودية.

قال ابن كثير: أى من نحتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب [1].

وعليه فالحوار الهادئ المراعى فيه الأدب الرفيع، يمكن أن يكون مفتاحاً للقلوب، وطريقاً إلى الأفئدة، ومحققاً لنتائج كثيرة، قد يخسرها الشخص إذا لم يسلك سبيل الحوار أو إذا لم يراع فيه الضوابط والآداب.

وبالنظر إلى تاريخ الدعوة والدعاة من الأنبياء والصحابة والعلماء ومن سار على نهجهم، فإن الحوار قد حقق أهداف الدعوة وكانت له أثاره الجيدة.

ومن أهم أهداف الحوار: الوصول إلى الحق، وترجيح أحد الآراء المطروحة، وتضييق هوه الخلاف، وتقريب وجهات النظر، فإننا نعيش فى عصر كثرت فيه الخلافات، مصداقاً لقوله ﷺ:(فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً)[2].

وليست المشكلة فى وجود الخلاف، فإن وجوده أمر طبيعى، كما قال تعالى:﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود:١١٨-١١٩].

ولكن المشكلة فى ما يؤدى إليه الخلاف من فرقة، وتباغض، وتناحر، وتضارب، عندما يعجز المختلفون عن التفاهم بالمحاورة، أو يغفلون عن ضرورة الالتقاء لتقريب وجهات النظر، ويقللون من قيمة الحوار، ويرون أن لا فائدة منه أصلاً، وهو خطأ يقع فيه كثير من المختصمين والمتخلفين[3].

وذلك أن يتصور كل واحد منهم أنه لابد من إقناع الخصم بالرأى الذى يتبناه، أو لابد من ترجيح رأيه وتخطئة رأى محاوره، وإلا فلا جدوى من الحوار ولا داعى له، ولا يتصور أن الحوار إذا لم يحسم قضية الخلاف بترجيح رأى معين، فإنه يقرب وجهات النظر، ويضيق هوة الخلاف، بل يحدد الخلاف ويحصره فى حيز ضيق،

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص٥٩١ .

(٢) رواه أبو داود، كتاب ألسنه جـ ٤، ص ٢٠٠، رقم ٤٦٧٠، والترمذى كتاب العلم جـ٥، ص ٤٤، رقم ٧٦ .

(٣) الدكتور يحيى الزمزمى، الحوار آدابه وضوابطه ص٤٤ ط. التربية والتراث. مكة المكرمة ١٤١٤ هـ.

ويساعد فى تقارب القلوب، وتفهم الأفكار، مما يكون له أثر فى التماس العذر للطرف الآخر فى حمله لرأيه.

وخاصة إذا كان الخلاف بين المسلمين وغيرهم من أمم الأرض، فإن تفهم هذه الأمور يؤدى إلى تحقيق الاقتراب من المطلوب، وكما أن الحوار يعتبر ناجحاً إذا انتهى أحد الطرفين إلى قول الطرف الآخر، واتفقا على موقف واحد، فكذلك يعتبر الحوار ناجحاً أيضا إذا توصل الطرفان إلى أن كلاً القولين صحيح وسائغ، أو هو فى الإطار الذى يسعه الخلاف، وعندها يمكن أن يقال: إن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية[1].

وكذلك فأن كثيراً من المختلفين يمنعهم من التسليم بالحق والرجوع إلى الصواب، شبهات وشكوك، تحتاج إلى جواب وتنفيذ. والحوار يحقق هذا الهدف، فبه يمكن إزالة كل شبهه، لذلك قد اهتم القرآن الكريم بهذا الهدف فذكر كثيراً من قضايا مختلفة ورد عليها بأوضح برهان وأقوى حجة، بل تكفل الله بالإتيان بالحق الواضح البين أمام كل شبهه يأتى بها هؤلاء، كما قال تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[الفرقان:٣٣].

قال بن كثير -رحمه الله-: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ أى حجه وشبهه، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أى ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق فى نفس الأمر، وأبين وأوضح، وأفصح من مقالتهم[2].

والشاهد أن من الأهداف التى يحققها الحوار: كشف الزيف، واستبانة سبيل المجرمين، وكذلك الرد على الشبهة والأباطيل، إسكاتاً للطاغيين، وبياناً للحائرين[3].

والحوار يعمل على تحقيق أهداف أخرى مشروعة: فهناك مصالح أخرى،

---

(١) الدكتور يحيى الزمزمى، الحوار آدابه وضوابطه ص٤٤ ط، التربية والتراث. مكة المكرمة ١٤١٤ هـ.

(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ج ٣ ص٣١٧ - ٣١٨ .

(٣) انظر الدكتور يحيى الزمزمى ، الحوار: آدابه وضوابطه ص ٤٦ .

وأهداف كثيرة، يمكن تحقيقها عن طريق الحوار، وهى ليست ثابتة ولكن تتنوع وتختلف باختلاف القضايا والمحاورين.

وليس من العجيب أن ينزل"الحوار" منزلة الحقيقة. فكما أن الأصل فى الكلام من جهه مضمونه هو الحقيقة، فكذلك الأصل فيه من جهة قائله هو الحوار، كما أنه على المتكلم الشاهد خصوصاً. أن يقول الحقيقة، فكذلك على المتكلم العادى، عموماً، أن يمارس الحوار.

وكما أنه على الأول أن يقول الحقيقة وحدها، فكذلك على الثانى أن يمارس الحوار وحده، وكما أنه على الأول أن لا يقول شيئاً غير الحقيقة، فكذلك على الثانى أن لا يمارس شيئاً غير الحوار.

وبيان هذه الحقيقة الحوارية من الوجوه الثلاثة التالية:

أولها: أن الطريق إلى الحق ليس واحداً لا ثانى له، وإنما طرقاً شتى لا حد لها، لأن الحق هو نفسه- على خلاف الرأى السائد- ليس ثابتاً لا يتغير، بل أصله أن يتغير ويتجدد، وما كان فى أصله متجدداً، فلابد أن يكون الطريق الموصل إليه متعدداً.

وحيثما وجد التعدد فى الطرق، فثمة حاجه إلى قيام حوار بين المتوسلين بها.

الوجه الثانى: أن تواصل الحوار بين الأطراف المختلفة، فئات أو أفراداً، يفضى مع مرور الزمن إلى تقلص شقه الخلاف بينهم، وذلك لدخول هذه الأطراف فى استفادة بعضها من بعض، حيث إن هذا الطرف أو ذاك، قد يأخذ فى الانصراف عن رأيه متى تبين له، عند مقارنه الحجة بالحجة، وضعف أدلته عليه، ثم يتجه تدريجياً إلى القول برأى من يخالفه، أو يأخذ على العكس من ذلك فى تقوية أدلته. متى تبينت له قوه رأيه مستجلباً مزيداً من الاهتمام به من لدن مخالفه، حتى ينتهى هذا المخالف إلى قبوله والتسليم به، وهكذا، فإذا أنزل الخلاف منزلة الداء الذى يفرق، فإن الحوار ينزل منزله الدواء الذى يشفى منه.

الوجه الثالث: أن الحوار يسهم فى توسيع العقل وتعميق مداركه بما لا يوسعه ولا يعمقه النظر الذى لا حوار معه، إذ الحوار هو بمنزلة نظر من جانبين اثنين، وليس النظر من جانب واحد، كالنظر من جانبين اثنين..

فمعلوم أن العقل يتقلب بتقلب النظر فى الأشياء، وأنه على الرغم من تقلبه، لا يكون توسعه وتعمقه، والعقل الذى يتقلب ليس بعقل حى على الإطلاق. والعقل الذى يبلغ النهاية فى التقلب، فذلكم هو العقل الحى الكامل.

وإذا كان الأمر كذلك، لزم أن يكون تقلب العقل فى حالة النظر من الجانبين ضعف تقلبه فى حاله النظر من جانب واحد، فيكون عقلاً أوسع وأعمق، وإلا فإن تقلبه أكثر من هذا متى علمنا أن الجانبين لا يجتمع بعضهما إلى بعض فحسب، بل يزدوج بعضها ببعض.

ومعلوم أن فى الازدواج من الكثرة ما ليس فى الاجتماع، بحيث تزداد سعه العقل وعمقه درجات كثيرة فى حالة الازدواج عنهما فى حالة الاجتماع [1].

ولكل هذه الاعتبارات التى تجعل من الحوار: حياه العقل، ينبغى أن يكون اهتمام الأمة الإسلامية فى انطلاقها.

ولا يخفى: أن الذى يغلق باب الحوار، أو يخل بأدبه، يميت فى نفسه روح العقلانية النافعة، والعقلانية النافعة هى تلك التى تكون ثمرة الامتحان بواسطة الأدلة من جانبين أثنين على الأقل، ومن يميت هذه الروح يقطع الأوردة التى تحمل إليه هذه المعرفة الممتحنة، فيحرم نفسه من إمكان تصحيح آرائه، وتوسيع مداركه، فيضيق نطاق عقله ويتسع نطاق هواه.

وحينئذ، لا يفيد علمه، وان سولت له نفسه أن يستفيد منه، ولا بالأولى يفيد

---

(١) انظر الدكتور طه عبد الرحمن حوارات من أجل المستقبل ص ٤، ٥ ط منشورات جريده الزمن . المغرب ١٩٩٩م .

غيره، بل أنه يضر نفسه ويضر غيره، وليس هذا فحسب، بل إنه يميت فى نفسه وفى غيره روح الجماعة الصالحة.

والجماعة الصالحة هى تلك التى يكون أمرها على هدى من الشورى القائمة بين أفرادها، ولو كانوا لا يزيدون عن اثنين، ومن يميت هذه الروح يسد المسالك التى تنقل إليه العمل المشترك، فيحرم نفسه من تقويم أفعاله، وتهذيب أخلاقه، فتقوى دواعى الاستئثار فى نفسه، وتضعف دواعى التعاون فيها.

وحينئذ لا يصلح عمله، وإن توهم أنه يصلح به، ولا بالأولى يصلح غيره، بل يفسده ويفسد غيره .

ولعلنا ندرك- أن الأمة الإسلامية فى هذا العصر- لا تحتاج إلى شىء. قدر احتياجها إلى الروحين المتكاملين:"الروح العقلانية النافعة" و"الروح الجماعية الصالحة "اللتين تتورثهما الممارسة الحوارية[1] ".

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن نعجل بوضع حوارات متعددة، وشاملة توفر لمجتمعات المسلمين تكويناً متيناً فى منهجيات الحوار وأخلاقياته وخاصة أن الأمة لها فى تراثها وتاريخها الكثير مما يفيدنا فى تأصيل هذه الحوارات، وتسهيل انتشارها بين الفئات والأفراد.

فقد ترك لنا العلماء، والخلفاء، تقليداً راسخاً فى المجالس والمناظرات لانجد له شبيهاً عند الأمم التى ترقت إلى رتبة عالية فى مجال التحضر المادى، فضلاً عن غزير إنتاج علماء الأمة الذى يدور حول مسألة الحوار، تأريخاً، ووصفاً، وضبطاً، وتنسيقاً[2].

وقد لا يخفى على أحد أن الأمة الإسلامية تمتلك رصيداً ضخماً من القيم الهادفة، يمكن استثماره فيما يفيد الإنسانية.

(١) انظر الدكتور طه عبد الرحمن حوارات من أجل المستقبل ص ٦, ٧ ط منشورات جريده الزمن . المغرب ١٩٩٩م ..

(٢) انظر الدكتور طه عبد الرحمن حوارات من أجل المستقبل ص ٨، ط منشورات جريده الزمن . المغرب ١٩٩٩م

أولاً: أن حوار الحضارات الذى ندعو إليه ينبغى أن يجنب الأمة عمليات فرض التجارب والنماذج الوافدة من بلدان وحضارات معينة، والتى يتم اسقاطها على واقع مغاير للواقع الذى بعثت فيه.

وإن نقل التجارب ونشر المفاهيم التى أفرزتها سياقات تاريخية واجتماعية معينة وتصدير البرامج لا يمكن أن ينجح إلا فى سياق تواصلى، ومناخ تفاعلى، ورؤية تبادلية تحترم خصوصية الآخر، وذاتيته الحضارية والثقافية.

وذلك أن قيم الديموقراطية وحقوق الإنسان التى تركز عليها الحضارة الغربية اليوم لا تنفك تجد فى سياسات المسلمين وبرامجهم الصدى الواسع والإيمان العميق. لكننا بالقدر ذاته لا نطلبها ولا نجسدها إلا فى سياق خصوصيات وتجارب الأمة الإسلامية، منطلقين من قيم الحضارة الإسلامية وأساليبها فى التربية والتنشئة المنبثقة عنها.

وفى هذا الإطار نحن نؤكد على أهمية الترابط الإنسانى، ونرفض عمليات إسقاط المفاهيم على واقع مختلف التضاريس. كما نرفض تعليب القيم، وإملاء التجارب .

ثانياً: كما أن مفهوم المسلمين للحوار الحضارى لا ينفصل عن الأبعاد الخلقية للقيم الثقافية والدينية عموماً، فثقافة المسلمين الإسلامية انبثقت تاريخياً عبر منظومة القيم التى كانت ولا تزال تمثل جزءاً من رصيد الأمة الحضارى، وهى منظومة تميز نسيج الأمة الاجتماعى بمختلف خلاياه.

وأن إبراز البعد الخلقى فى الحوار نابع من إحساس المسلمين وقلقهم مما يهدد وجودهم الحضارى من انحرافات تجسدها المنافسة الشرسة التى باتت محكومة بمنطق الربح والخسارة، فضلاً عن الكثير من الظواهر التى أبرزتها ظروف العصر، وباتت تهدد المجتمع، ومع هذه المحاذير يتعين كذلك تبين طبيعة المعوقات التى تعترض طريق هذا الحوار، خصوصاً الحوار الإسلامى- الغربى، وفى مقدمتها ما يشوب الصور الشخصية من سلبيات وتشويهات ليس المسلمون مسؤولين عنها.

ثالثاً: لقد أصبحت وسائل الإعلام والاتصال فى الأيام الراهنة هى المسؤول الأول عن عملية نقل صور الشعوب وثقافاتها وصياغة المواقف منها وحولها. ولا يخفى على أحد أهمية الدور وخطورته فى آن واحد، فالإعلام يبلور السياسات ويكون الاتجاهات ويوجه القرارات، لدى الدول والجماهير فى الوقت نفسه. خصوصاً مواقف التعاطف أو النفور.

إن صورة المسلمين الحضارية فى غالبية وسائل الإعلام الغربية لا تعكس صورة المسلمين الحضارية، كما أن الأحكام المعيارية حولها لا تستند إلى موضوعية موثوقة.

لقد شكلت صورة الشخصية العربية والإسلامية فى سياق سلبى لدى الرأى العام، فغلب على ملامحها الانغلاق والتعصب والجهل والعدوانية، إنها الصورة القاتمة، للأسف فى ذهن الإنسان الغربى العادى. الذى يتلقى معلوماته عن العرب والإسلام من وسائل إعلام موجهة فى غالبيتها من مراكز وقوى ضغط ليست محايدة[1].

ويمثل اعتماد السماع إلى الآخر فرصة لإجلاء صورة الثقافة والحضارة الإسلامية لدى الغرب الذى نطمح إلى تطوير علاقة المسلمين معه وتدعيمها، لكن المشكل يتجسد فى كيفية تبليغ المسلمين الحقيقة والتعريف بأنفسهم.

لقد آن الأوان للكف عن النظر إلى الحوار الحضارى باعتباره وسيلة إلى تحقيق المنافع، واكتساب الأسواق، كما آن الأوان للكف عن ربطه بالنزعة الأمنية، فنحن لا نمثل مصدر تهديد، ولا منطقه خطر بالنسبة إلى الغرب.

رابعاً: لقد بات من الضرورى تصحيح صورة الحضارة الإسلامية المشوهة والمنقوصة لدى العالم الغربى، ويجب أن نعترف بوجود جهل بنا أو تجاهل لنا، على رغم أننا نعرف تاريخ الغرب وحضارته ولغاته أكثر مما يعرف هو عن المسلمين حتى أبناؤنا المهاجرون، على رغم أهميتهم الحضارية فى بعض المجتمعات الغربية، لا يحظون فى مجتمعات المهجر بالقدر الكافى من تعليم اللغة العربية، وكثيراً مما يؤدى التهميش اللغوى والقيود إلى إبعاد الأجيال الجديدة فى بعض الجاليات العربية والإسلامية

(١) انظر المنجى بوسنينة ، جريدة الحياة ص٩ يوم ٢/ ١٢/ ٢٠٠١م.

عن جوهر القيم الإسلامية الحقيقية، مما يفسح المجال أما التغرير بالتنظيمات المتطرفة وتضليلها وتشجيع (إسلام الكهوف) كما قيل عوضاً عن إسلام النور.

ولا شك كذلك فى أن هناك بعض جوانب الخلل فى بعض المجتمعات، فيجب أن يعترف المسلمون بأنهم مقصرون فى فهم الغرب أحياناً بما سمح بتسرب بعض الأخطاء فى مواقفهم وتقديراتهم. فلابد من تعميق النظر فيما حولهم، ولكنهم بحاجة إلى المساعدة على اقتحام القرن الجديد فى مجالات التكنولوجيا الحديثة، وفى مجال التعرف على التجارب الرائدة فى التنمية، لقد بات من الضرورى مضاعفة الجهد لدعم حركة التعريف بثقافة المسلمين[١].

وفى الختام: فإن الحوار بين الحضارات يتطلب استمرار بذل الجهود والمحاولات، لأنه مهدد باستمرار ببعض المخاطر والمنزلقات، فالحوار ليس فى مأمن من التوتر والتأزم والتعثر والركود.

والحوار عملية تفاعلية، لا يمكن أن تعلب أو تفرض. لكن المهم هو الوعى والاقتناع بأن ما يعترى الحوار الحضارى أحياناً من الانتكاسات إنما هو أمر مرحلى وعادى، ومن المفروض أن يدفعنا إلى مزيد العمل من أجل صيانته وحمايته عبر قيام منظومة المرتكزات التى تسندها فى ذلك مؤسسات المجتمع المدنى[٢].

إن الحوار الحقيقى بين الحضارات يشكل أبرز التحديات التى يواجهها العالم اليوم، فهو شرط أساسى من شروط التعايش السلمى بين الشعوب.

ونحن نعتقد أن الحضارة العربية الإسلامية قادرة فى ظل التحولات الدولية والتحديات المستجدة بفضل رصيدها التاريخى، والثقافى، وتجاربها الثرية، على أن تلعب دوراً إيجابياً فى تعميق مبادئ الحوار بين الأمم والشعوب، وتحقيق معانى التفاهم والسلام الدوليين.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر المنجى بوسنينة ، جريدة الحياة ص٩ يوم ٢/ ١٢/ ٢٠٠١م.

(٢) المصدر السابق.

الفصل السادس

نموذج للحوار

الحوار فى انجلترا



لقاءات وحوارات على الجانب الآخر (*)

تم التفكير فى إرسال وفود إلى الدول الكبرى لشرح حقائق الإسلام والرد على الأباطيل التى شوهت صورته فى الغرب بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م على وجه الخصوص، وقد شاركت - كأمين عام لرابطة الجامعات الإسلامية - فى العديد من الرحلات التى نظمتها رابطة العالم الإسلامى ورابطة الجامعات الإسلامية إلى العواصم الرئيسية للعالم فى عامى ٢٠٠٢ ، ٢٠٠٣م.

وقد اهتم الأستاذ الدكتور محمود زقزوق وزير الأوقاف بفكرة إرسال الوفود لعواصم العالم لنفس الغرض وعقدت عدة اجتماعات بمقر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مثلت فيها وزارة الخارجية، وتم مناقشة تشكيل الوفود، ومن الذى يمكنه أن يقوم بهذه المهمة سواء من الأكاديميين أو من الخبراء، وتم تحديد العواصم الرئيسية التى يجب أن تذهب إليها الوفود أو القوافل، وكذلك تم تحديد الأجندة التى ستتم مناقشتها وكلفت اللجنة بتقديم كتابات ودراسات تتضمن مضمون ما يجب أن يقال وإن ترك لأعضاء القوافل الحرية الكاملة فى اختيار ما يريدون الحديث عنه.

وفد لندن

وقد اختار فضيلة وزير الأوقاف أعضاء الوفد، الذى سيسافر إلى لندن، وهى المحطة الأولى التى تم الاتفاق على إعطائها الأولوية فى اللجنة المعنية فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وكان الوفد برئاسة أ.د. على جمعة ، وعضوية أ.د. جعفر عبد السلام ، أ.د. زغلول النجار، أ.د. محمد أبو ليلة رئيس قسم الدراسات الإسلامية باللغة الإنجليزية بكلية اللغات والترجمة جامعة الأزهر، وقامت السفارة المصرية بلندن بوضع برنامج الزيارة.

(*) نص تقرير أ.د/ جعفر عبد السلام، الأمين العام لرابطة الجامعات الإسلامية، عن زيارته للمملكة المتحدة فى الفترة من ٧ إلى ١٤ يونيو ٢٠٠٤م، ضمن الوفد المشكل من وزارتى الأوقاف والخارجية، لتصحيح صورة الإسلام.

ويمكن أن نقسم الجهات التى تمت زيارتها إلى أربعة أقسام :

القسم الأول: مؤسسات وكليات أكاديمية تهتم كلياً أو جزئياً بالدراسات الإسلامية وهى الكلية الإسلامية بلندن والتى يديرها المصرى النشط أ.د. زكى بدوى والذى له نشاط علمى بارز فى بريطانيا استحق أن يمنح بسببه لقب "سير"، ومركز أكسفورد للدراسات الإسلامية وهو مركز أنشئ فى مدينة أكسفورد، ورغم أن له وضعاً مستقلاً، إلا أنه مرتبط بجامعة أكسفورد، والدراسات التى تتم فيه تعتبر جزءاً من دراسات جامعة أكسفورد ويديره صديق قديم باكستانى، هو الدكتور فرحان أحمد نظامى، ثم معهد لندن للشرق الأوسط التابع لكلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، الذى يطلق عليه اصطلاحاً SOAS، ورئيس قسم الدراسات الإسلامية فيه أحد المصريين وهو: الدكتور محمد عبد الحليم.

أما القسم الثانى من الزيارة فيشمل الكنيستين الرئيسيين فى بريطانيا، والأكثر أهمية فيها بالطبع هى الكنيسة الإنجليكانية البريطانية، والكنيسة الثانية هى الكنيسة الكاثوليكية ، ويكمل ذلك الالتقاء بمنتدى الأديان الثلاثة.

والقسم الثالث: فى الزيارة يرتبط بالجاليات الإسلامية والمساجد والمراكز الإسلامية، وهو يتضمن اللقاء بالجالية المصرية بالمكتب الثقافى المصرى، ولقاء بالمسلمين فى المركز الإسلامى بلندن، ولقاء آخر بالمسلمين الشيعة فى مؤسسة الإمام الخوكى الخيرية،.

أما القسم الأخير فى الزيارة ، فهو زيارة لجهات رسمية بريطانية هى وزارة الخارجية، ولقاء مع البارونة سايموز وزيرة الدولة للشئون الخارجية المكلفة بملفات الشرق الأوسط.

القضايا الحيوية المشتركة فى العلاقات الإسلامية الغربية

اجتهد الوفد المصرى فى بيان أهمية الزيارة، والغرض منها خاصة لقاءات وزارة الخارجية البريطانية ، وهى لقاءات تمت مع كبار المسئولين عن ملفات الشرق الأوسط

والعالم الإسلامى، ويمكن أن ألخص أهم القضايا التى تم مناقشتها فى هذه اللقاءات على النحو التالى:

قضية تشويه الصورة الذهنية للمسلمين فى الغرب

هذا التشويه يرجع أساساً إلى الإعلام الذى يربط بين المسلمين وأى عمل إرهابى، ولا يذكر أى دين آخر على مساحة أعمال العنف والإرهاب التى تعانى منها بريطانيا منذ زمن طويل بسبب الصراع الدينى، ومع ذلك يتم التركيز على الإسلام عند قيام أعمال إرهابية وقبل التحقق من الأشخاص الذين قاموا بها، وأعرب الوفد عن عدم قدرة دولنا على المنافسة فى المجال الإعلامى، وطالب المسئولين البريطانيين بالتدخل لحماية الإسلام والمسلمين من هذه الدعاوى الظالمة بواسطة النشر الصحيح عن الإسلام.

وأفاض أ.د. على جمعة فى شرح الحقائق الرئيسية التى يقوم عليها الإسلام؛ فمثلاً حدد فضيلته أهداف الإسلام فى ثلاثة مرتكزات:

١ - عبادة خالق الكون.

٢- عمارة الأرض - ليس تعميراً مادياً فحسب ولكنه تعمير معنوى أيضاً.

٣- إصلاح المجتمع.

كذلك شرح فضيلته فكرة الإيمان بكل الرسالات كشرط للإسلام وعرض هنا قضية التفرقة بين مبادئ الإسلام، والأعمال التى يقوم بها أتباع الدين - بسبب الجهل - أو وقوع الشخص تحت وطأة ظروف خاصة والتى تخالف المبادئ وأوضح أن مبادئ الإسلام، هى المرجع لحل الخلافات حول الصحيح وغير الصحيح وبين ما يفعله الأشخاص، المهم هو الرجوع إلى مصادر وهى: القرآن - السنة - الاجتهاد - وركز فضيلة المفتى على التفرقة بين الشريعة والفقه الإسلامى - فالفقه نتاج بشرى - يراعى الاختلاف وفقاً لظروف الزمان والمكان.

وعرض لمقاصد الشريعة وهى: حفظ النفس، والعقل، والمال، الدين، كرامة الإنسان وحقوقه، وهو النظام العام للقانون فى كل الدنيا.

لقاء الجالية المصرية

نظم المستشار الثقافى الدكتور علاء الجندى الذى يعمل أستاذاً بكلية الهندسة جامعة حلوان، والملحق الثقافى وهو أستاذ مساعد بكلية التجارة جامعة حلوان هذا اللقاء مساء الخميس ٩/ ٦/ ٢٠٠٤م وكان لقاءً طيباً جمع ما يقرب من مائة شخص من المصريين المقيمين فى بريطانيا وعلى رأسهم الدكتور أشرف مروان رئيس الجالية وزوج ابنة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وقد لاحظت أن أفراد الجالية متنوعى الثقافة والعمل ، وإن غلب عليهم أنهم جالية متعلمة، ويقظة لمشكلات مجتمعها، وأستطيع أن أقول، إنها على الأقل مهتمة بأمر دينها، وقد تكفل أحدهم بوجبة العشاء لكل الحاضرين ومعهم الوفد بالطبع، وقد وجه الوفد كلمات افتتاحية عبروا فيها عن سعادتهم بلقاء الجالية، وأنا شخصياً نبهت إلى أهمية القدوة فى انتشار الإسلام، وكيف أثر السلوك الطيب للمسلمين فى الناس مما جعلهم يعتنقون الإسلام فى كثير من المناطق، كما عبرت عن رغبتى فى أن تكون الجالية جسراً للتواصل بين مصر وبريطانيا لتنمية مختلف العلاقات الاقتصادية والسياسية ، وكذا النقل التكنولوجى من العالم الغربى المتقدم إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى.

وكانت أهم القضايا التى أثيرت هى التغطية الإعلامية عن الوفد فى الإعلام البريطانى، وكان الكثير من الحاضرين من العاملين فى الصحافة ومحطات إعلامية عربية، وهى كثيرة فى بريطانيا حيث تسود حرية الفكر بشكل أكثر مما تتواجد عليه فى بلادنا، وقد عبروا جميعاً عن رغبتهم فى عمل لقاء مع جمعية الصحفيين الأجانب لتحقيق نشر اللقاء فى كل وسائل الإعلام فى العالم، ولكن لم يوجد ذلك فى البرنامج، وكان هناك أكثر من تساؤل عن ضرورة تفعيل لقاءات الوفد فى لندن

ونشرها بكافة الوسائل والاستفادة منها فى تدعيم العلاقات مع الغرب، مع ملاحظة أن هناك مكتباً فنياً إعلامياً تنفق عليه الدولة.

وقد تحدث أكثر من شخص عن أن المكتبة الغربية خاوية تماماً من للكتابات التى تتحدث بإنصاف عن الثقافة الإسلامية، وقال أحد المتحدثين إن الجالية تريد مشروع "الألف كتاب" الذى أعدته مصر قديماً لينشر فى الغرب، ويجيب عن تساؤلات المسلمين فى المشكلات التى تواجههم فى حياتهم فى الغرب، ويسد الفراغ الواضح فى الثقافة الإسلامية هناك خاصة باللغة الإنجليزية.

ومن الانتقادات التى وجهت إلى تنظيم البرنامج، انتقاد يتصل بأنه اقتصر على اللقاء بالنخب ولم ينزل إلى الشارع ليعرف كيف يفكر عامة الناس من المسلمين وغيرهم، ونبهوا إلى ضرورة مراعاة ذلك مستقبلاً.

وكان من الطبيعى أن تثار قضايا صورة الإسلام فى بريطانيا، وكيف أنها سيئة، وكيف أن الإعلام يربط الإرهاب بالإسلام، على خلاف الحقيقة وأنه يجب بذل جهد كبير مع الحكومة البريطانية لمنع كل ما يسئ إلى الإسلام والمسلمين ، فالإسلام فى نظر أفراد الجالية دين قوى، وينتشر فى كل مكان، فى حين أن الكنيسة لا توجد فى الشارع الإنجليزى، وأن الكثير من الكنائس تتحول إلى مساجد حيث يشتريها المسلمون، لذا يجب إعطاء اهتمام أكثر بالبعد الدينى فى التعامل السياسى.

وأخيراً أظهر الكثير من المتحدثين حالة الضعف التى تعيشها الجالية فى بريطانيا والغرب وأن لديهم إحساساً قوياً بأنهم لا يفعلون شيئاً من أجل الإسلام، "نريد أن نفعل شيئاً"، كان هذا بمثابة النداء الذى جلجل فى قاعة المركز التى تتوسط مساكن وعمارات وسط لندن وشارع أكسفورد.

والواقع أن اللقاء فى وزارة الخارجية كان طيباً سواء فى الحديث الذى دار على مائدة الغذاء، أو فى اللقاء الموسع الذى جرى بين عناصر من المنظمات والمؤسسات الإسلامية فى لندن، إلى جانب بعض الرسميين العاملين فى وزارة الخارجية.

لقد طرح فضيلة المفتى مجموعة من الأفكار تم التركيز عليها فى اللقاءات الرسمية أهمها فكرة وضع بروتوكول لحياة المسلم فى الغرب، يتضمن القواعد التى يجب أن يسير عليها المسلم فى الغرب وليكون بمثابة عقد اجتماعى للمسلمين الصالحين حيث يسمح باندماجهم فى الحياة، دون أن يفقدوا ثوابتهم كما عرض فضيلته فكرة المرجعية الدينية، الممثلة فى الأزهر الذى يجب أن يؤدى دوراً فى اختيار الأئمة وفى إجازتهم للخطبة والإفتاء ، حتى لا يعتلى المنابر المتطرفون أمثال أبو حمزة المصرى واقترحت أنا إرسال علماء من الأزهر للعمل فى المساجد وفى مختلف الأمور الدينية، وقلت أن لدينا طابوراً جاهزاً من حملة الشهادات فى الدراسات الإسلامية، وممن يجيدون اللغة الإنجليزية حيث خرجهم الأزهر الشريف فى السنوات الأخيرة.

كذلك لم ننس أن نطالب الإنجليز بتوفير العدالة فى العلاقات الخارجية، وأشرنا إلى أن بريطانيا مسئولة تاريخياً عن كثير من المظالم التى تحيط بنا، فى فلسطين، وفى العراق، ووصفت ما يتم هناك من أعمال القتل والتعذيب اليومى الذى فاق كل الحدود، بأنها جرائم حرب، وللأسف لا يتفقون معنا فى هذه الأمور، عموماً كنا نقول دائماً إننا نسعى إلى تحقيق السلام الدائم الذى لا يمكن أن يقوم إلا إذا كان عادلاً، فإن العدل مفقود الآن فى العلاقات الخارجية للدول الكبرى، هناك دائماً من جانبهم إلقاء المسئولية على أمريكا.

أما أهم القضايا التى أثيرت فى هذا اللقاء فهى:

ضرورة السيطرة على مصادر تشويه الصورة، وأهمها ما يرد فى الكتب الدراسية عن الإسلام، والإعلام وما ينشره عن الإسلام، وضرورة إزالة القوانين الجائرة ضد المسلمين، واعتماد الأزهر الشريف كمرجعية دينية.

كما أثيرت قضايا: أهمية الحوار بين الفصائل الإسلامية المختلفة الذى يحقق اتفاق بين السنة والشيعة على مواجهة الخطر المشترك ضد الإسلام، والإلحاح على

التغيير السياسى ووجوب تطبيقه فى مصر وتحقيق التقدم فى تطبيق الديموقراطية، وضرورة تعليم الجالية وفهمها الصحيح للإسلام، وأهمية قيام حوار بين العلماء والشباب، وضرورة تطوير المناهج الدراسية لدينا، كما أثيرت قضايا تطبيق الحدود، ووضع المرأة فى الإسلام.

وكان من أهم القضايا التى أثيرت فى اجتماع جامعة لندن على وجه الخصوص، قضية الإصلاح فى الشرق الأوسط وأهمية المشروع الأمريكى فى هذا الشأن، وقد عنيت شخصياً بالرد على هذا السؤال الذى قدمه أحد الأستاذة الأمريكيين وأشخاصاً آخرين من دول الشرق الأقصى، وأكدت أحكام ميثاق الأمم المتحدة المادة ٢/ ٧ التى لا تجيز لأحد ولا حتى المنظمة الدولية الكبرى (الأمم المتحدة)، التدخل فى المسائل التى تدخل فى صميم السلطان الداخلى للدول الأعضاء، مع التسليم الكامل بأننا نحتاج إلى التعديل والإصلاح، وإنما من داخل المؤسسات الداخلية، وكذلك المنظمات الدولية بين الدول العربية والإسلامية كمنظمة المؤتمر الإسلامى وجامعة الدول العربية، وقلت إن الديموقراطية ليست صيغة واحدة جاهزة يمكن تطبيقها فى كافة الدول؛ وإنما تطبق فى كل دولة حسب ظروف الزمان والمكان والفكر والفلسفة السائدة فى كل دولة، كما أكدتُ على أن الشريعة الإسلامية تضع الشورى كأساس للحكم فى دولة الإسلام، ولكن تطبيق الشورى ووسائلها وأدواتها وآلياتها ليست واحدة، ويمكن لكل دولة إسلامية أن تطبقها بطريقتها، مع ضرورة احترام المبدأ والوصول إلى إرادة المحكومين وإشراكهم فى تسيير أمورهم، فالمجالس التمثيلية لا تمانع الشريعة فى تطبيقها بضوابط إسلامية واضحة.

وأشار الدكتور زكى بدوى إلى ضرورة مقاطعة الطبعة الأخيرة من القاموس الإنجليزى "وبستر" لأنه تضمن تعريفاً لليهودية يسوى فيه بين الصهيونية واليهودية، لذا ينبغى مقاطعته وعدم الاعتراف به، وأثيرت العديد من قضايا الترجمة من العربية إلى الإنجليزية، وكيف أنها صارت سيئة ويجب على الجهات المعنية فى دولنا

الإسلامية أن تهتم بجودة الترجمة، وأن تترجم العديد من الكتب المهمة لملء الفراغ فى مكتبات الغرب التى لا تعرف الآن شيئاً عن الإسلام سوى الصور المغلوطة والكتابات الخاطئة، وهنا تحدث بعض المترجمين الحاضرين عن شروط الترجمة الصحيحة وكيف أن المترجم لا ينبغى أن يتقن اللغتين فحسب؛ بل من الواجب عليه أن يفهم الواقع الذى يترجم إليه، والظروف التى يعيش فيها الناس.

وفى هذا اللقاء الذى امتد إلى ساعات طويلة تم التعرض لأهم القضايا التى تشغل بال القادة والحكومة وأهمها القضاء على الإرهاب، لأن الشخص العادى أصبح فى خوف من أن يصبح أو يمسى فيجد حوادث اعتداء عليه مثلما حدث فى ١١ سبتمبر، أو فى حادثة القطار التى جرت فى أسبانيا، كذلك قضية اندماج المسلمين فى بريطانيا مع قطع كافة العلاقات مع أوطانهم الأصلية، كذلك تم التركيز على جانب العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الإسلام والغرب وما ينبغى أن يقوم به الطرفان فى هذا الجانب.

وقد أثير فى هذا اللقاء كذلك وجود طبعات من المصحف الشريف، طبعتها الولايات المتحدة وإسرائيل حرفت فيها الكثير من الآيات أو حذفتها كلية، وكنت أتمنى أن أرى هذه الطبعات لنقوم بما ينبغى من تصحيح أو تنبيه.

وكان من أهم القضايا التى عرضت فى اللقاءات هى قضية التركيز على مرجعية الأزهر لحسم أى خلاف يثار فى إنجلترا بين المسلمين، وقد أوضح المتحدثون - وهم طائفة من ممثلى الكثير من الهيئات والمؤسسات الإسلامية فى بريطانيا - خطورة الفتوى وخطورة من يعتلون المنابر فى مساجد بريطانيا، وكيف أنهم جهلة ومندفعون وكيف أنهم يشجعون التطرف والإرهاب، وإن كان من الصعب إقرار مرجعية الأزهر، وقد اقترح المفتى أن يجيز الأزهر من يعتلون المنابر، ووافقه على ذلك د. زكى بدوى، وإن لم يوضح أى منهما كيف يتحقق ذلك عملياً.

كذلك أثيرت قضية ترتبط بالأزهر وضرورة أن يتغير قانونه بحيث يمثل فى مجمع البحوث الإسلامية، كافة العلماء من مختلف دول العالم حتى تتحقق صفة العالمية والمرجعية وتمثيل مختلف المسلمين فى العالم.

وتطرق الحديث عن أهم المشكلات المتصلة بالأقليات المسلمة فى الغرب، وكيف أنها أصبحت موصومة بالإرهاب والتطرف، والواقع أن هذه التهمة باطلة وإن كان الإعلام يروج دائماً لها، ويعمل على رسم هذه الصورة فى الكتابات التقليدية عن الإسلام وتشويه الصورة فى ذهن الطلاب منذ صغرهم فينشأون على كراهية الإسلام، وكذلك من سلوك بعض المسلمين فى الغرب، خاصة هؤلاء القادة غير الواعيين وغير الملتزمين والذين يتحدثون عن الجهاد، وضرورة أن يتحقق حتى فى البلاد التى يقيمون فيها فى الخارج، أى فى إنجلترا أو غيرها من الدول الغربية.

وتطرق الحديث عن قضايا تدريس الإسلام فى الغرب والمؤسسات التى تقوم به، وأثيرت قضايا "فقه الأقلية".

هذا وكانت من أهم الزيارات زيارة مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية ومدينة أكسفورد وجامعة أكسفورد لها ذكريات عديدة فى حياتنا ومجتمعاتنا العربية والإسلامية بسبب أهميتها الدولية، وقد رأينا فى البداية مبنى جديداً يقام فى المدينة لكى يكون المبنى الجديد للمركز وقد تبرع بنفقات البناء الملك فهد وأمير الكويت وبعض الدول البترولية الأخرى، وسيكون المبنى منارة مهمة فى أكسفورد للدراسات الإسلامية، وهذا أعطى الجميع انطباعاً بأنه ليس كل شئ هنا سيئ ، لأنه عندما تسمح الدولة بإقامة هذا المبنى الجديد ويحمل اسم الدراسات الإسلامية، فإن ذلك له مدلوله المهم فى قبول الإسلام فى الغرب، وقد يكون ذلك بسبب أن الإسلام والمسلمين أصبحوا أمراً واقعاً وظاهرة موجودة بقوة فى البلاد ومن ثم يجب التعامل معها لتخفيض خطورتها ولاستيعابها فى الحياة، وقد دللت الأسئلة والتعليقات التى وجهت إلى الوفد على صدق ذلك، حيث سأل الناس عن ضرورة إيجاد فقه

للأقليات يراعى الظروف التى يعيش فيـها المسلمون فى الغرب. وتلقى الناس رداً من المفتى بأن هذا ما تم البدء فيه وإن كان لا يحبذ المصطلح، وإنما هى أحكام فقهية عادية تقوم على الرخص وتراعى ظروف الزمـان والمكان، وهو أمر جائز، بعيـداً عن المساس بثوابت الإسلام وهى العبـادات أساساً وقليل من التشريعات. كـما وجهت أسئلة عن حكم تغيير الدين وهل هو جائز فى الإسلام ، وأجـاب المفتى بأن الحرية الدينية مقررة فى الإسلام، والقرآن الكريم يعبر عن ذلك فى الكثير من الآيات مثل قولـه تعالى: "لا إِكْـرَاهَ فِـى الدِّينِ﴾ [البـقـرة:٢٥٦]، وقــولـه: "فَـمَنْ شَـاءَ فَلْيُـؤْمِنْ وَمَـنْ شَـاءَ فَلْيَكْفُرْ"﴾[الكهف:٢٧].

وسئل المفتى عن الحـجاب وشرعيتـه ، فأجاب بأن الحجاب فـرض على المسلمة، وأن الضرورة إذا اقتضت أن يخلع فليخلع، ووجه أحـد الحاضرين اعتراضاً على رأى شـيخ الأزهر فى إعطاء فـرنسـا الحق فى الأمر بـخلع الحجـاب، لأن المسلمـين كـانوا يتوقـعون أن يقوم الأزهر بمناصرتهم وأن يحـث فرنسا على عدم التـدخل فى حريات المسلمين، ولكن ذلك لم يحدث.

وتم توجيـه سؤال عن التشـرذم والتفكك فى العـالم الإسلامى، وأسبـابه وكيف يمكن أن تتحقق وحدة الشعوب.

والواقع أنه من الصـعب أن نقـيّم بأنفسنا أهمـيـة هذه الزيارة ودورها فى تحسـين صـورة الإسـلام والمسلميـن فى بريطانيـا، ولكننا نسـتطيع أن نسـوق مـجمـوعـة من المؤشرات التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار بالنسبة لتقييم الزيارة وقياس آثارها:

أولاً : شملت الزيارة مراكز مهمة فى صناعة القرار البريطانى هى وزارة الخارجية وبعض أعضاء الحكومة ومجلس اللوردات، وكـانت الانطباعات عن الزيارة إيجابية، وكافة الآراء والمقتـرحات التى جاءت من قبل الوفد الرسمى لاقت ترحيبـاً واستعداداً كاملاً للدراسة والتعاون معها، وهذا يدل على تجاوب جيد مع مهمة الوفد.

ثانياً : كانت زيارات المؤسسات التعليمية الإسـلامية فى بريطانيا مهمة ومؤثرة،

وأجابت على كثير من التساؤلات التى وجهت إلى الوفد، كما طلبت أن يقوم التعاون الفعال بينها وبين الأزهر عن طريق توقيع بروتوكولات للتعاون وضرورة تنفيذها.

ثالثاً : طرحت أفكار مرجعية الأزهر فى الشئون الدينية فى بريطانيا وإجازة من يتقدمون للخطابة والإفتاء، ولاقت ترحيباً كبيراً.

رابعاً : شعرت الجالية المصرية باهتمام الدولة بها لأنها أرسلت هذا الوفد ليلتقى بها ويعرف مطالبها ويكون حلقة وصل بينها وبين وطنها الأم.

خامساً : شعرت النخبة فى بريطانيا بالوفد المصرى وبدوره المهم على صعيد "تصحيح الصورة السيئة المتبادلة بين الإسلام والغرب" وضرورة تحسينها.

سادساً : السلبيات مع ذلك فى نظرى ليست قليلة، منها طول المدة التى بقى فيها الوفد فى لندن والتكلفة الباهظة التى تدفعها الدولة، وعدم بذل جهد لاقتسام النفقات بين الجهة الموفدة والجهة المستقبلة، مع أن الوفد مفيد للجهتين، كذلك لم يقم الوفد بزيارة جامعات إنجليزية عدا جامعتى لندن وأكسفورد، واقتصرت الزيارة على أقسام للدراسات الإسلامية، وبالتالى لم يلتق الوفد وكل أفراده من الأكاديميين بمجموعات أكاديمية غربية ذات بال، والواقع أنه لو نظمت ندوة عامة مشتركة بين الوفد المصرى وإحدى الجامعات البريطانية لكان الأثر أفضل.

سابعاً : التغطية الإعلامية لم تكن مناسبة على الإطلاق، النشر عن الوفد ومهمته كانت فى أضيق الحدود.

ثامناً : لابد أن أوضح أن تجمع الوفد لزيارة الأماكن التى نظمتها الخارجية معاً كان خطئاً كبيراً ، فكان يكفى أحد أفراده للحديث لا كل الوفد، وكان الأفضل أن يقوم كل عضو بمجموعة من اللقاءات على انفراد حتى يعظم الأثر.

وفى النهاية يجب التركيز على تنفيذ مجموعة من المهام وهى:

١ - فكرة مرجعية الأزهر العالمية فى الشئون الدينية: وهى فكرة تلقى قبولاً من

الجاليات الإسلامية بشكل عام، ولكن ينبغى أن تناقش على كافة المستويات .. كيف نحقق هذه المرجعية عملاً، لابد أن يشارك فى البحث كل من: الأزهر، والخارجية، والسفارات المصرية فى الدول الكبرى، وسيحتاج ذلك إلى إجراء اللقاءات مع الحكومات المعنية بالطبع ويجب البدء بإعداد ورقة عمل تصلح للمناقشة.

٢- يجب عمل مشروع يشارك فيه الأزهر ووزارة الثقافة، ورابطة الجامعات الإسلامية بسد الفراغ القائم فى كتب الثقافة الإسلامية والعقيدة والفقه الإسلامى باللغات الأخرى، وعلى رأسها اللغة الإنجليزية.

٣- الاهتمام بإيفاد مجموعة كبيرة من خريجى الأزهر من يجيدون اللغة الإنجليزية، والاتفاق مع وزارة الخارجية البريطانية على تحمل نفقاتهم ، وعلى الأماكن التى يجب أن يكونوا فيها خاصة داخل الوزارة نفسها فضلاً عن المراكز الإسلامية والمساجد وغيرها ويجب أن يكون الاختيار على أسس ومعايير علمية دقيقة، مع تدريبهم تدريباً تحويلياً على نحو ما قامت به الوزارة مع مجموعات عديدة، ويجب الاتصال بالمؤسسات والمنظمات الشعبية فى هذه الدول لتعاون الحكومة المصرية فى أداء هذه المهمة.

٤- أظهرت اللقاءات بعض المسائل المطلوب عملها بشكل سريع، أهمها تعديل المناهج الدراسية الموجهة إلى الأطفال وكذلك الشباب هنا عن الدين الإسلامى، وهناك مؤتمر سيعقد فى القاهرة بهذا الخصوص فى شهر سبتمبر ، وهناك مجهودات أخرى قام بها المرحوم عبد الجواد فلاطورى، وكلها جهود يجب أن تحظى باهتمام خاص، وقد يقتضى ذلك تشكيل لجنة علمية متخصصة لإعداد مناهج أخرى صحيحة عن الإسلام وتقديمها لمختلف الدول.

٥- يجب عمل قوة ضغط "لوبى عربى إسلامى"، يجمع العناصر النشطة فى إطار

تنظيـمي، يمكن أن يـكون بداية فى المكتب الثـقـافى المصـرى، الذى لا يجـد مـا يفعله، رغم الإنفـاق الضخم الذى يقوم به، وهو يحـتاج إلى اختـيار شخصـيات معدة إعداداً علمـياً ودينياً وفكرياً لهذه المهمة، وقـد كنت حزيناً عندما رأيت هذه القوة الضـخمة فى الجـالية كمّاً وكـيفاً لكن لا يكاد يربط بـينها رابط، وبالطبع لا ترتبط بدولتـها بما يعـود بالنفع المشتـرك بين الجـانبين، إن هذا اللوبى يسـتطيع أن يفعل الكثـير فى الإعـلام والثقافـة وفى تنمية العـلاقات الاقـتصادية والتـجارية، ويجب الاعتماد عليه دائماً فى تطوير الأنظمة والقوانين والإدارة بشكل عام.

إن مصر بلد كـبير أمامى وأمام كل الناس، لأن لـه تاريخـاً يرتبط بكل حضارات الأرض، ومع ذلك فالأداء البشرى والحكومى لا يتناسب أبداً مع قوته وقدراته.

٦- حرص المفتى فى كافة أحاديثه على عـمل بروتوكول ينظم العلاقة بين المسلم والمجتمع الذى يعيش فـيه فى هذه البـلاد، والواقع أننا يمكن أن نستـخدم مصطـلحاً آخر غـير البروتوكول كميثاق شرف أو عقد اجـتماعى يبين فيه الحقوق والواجبات التى يجب أن يعيش عليها المـسلم فى المجتمعات الخارجيـة، وفى تصورى أنه يمكن أن يكتسب قوة كبيرة بقدر الإعداد الجيـد له، وعرضه على النخب المسلمة التى تعيش فى الغرب وتحريكه بينها بعد إقراره منها ومن المؤسسات الحاكمة فى الغرب.

٧- أخيراً - وهذا اقتراح سبق أن قدمته لمعالى وزير الأوقاف - يجب عمل لجنة دائمة للحـوار الإسلامى مع الغـرب تأخذ وتعطى، تسـتضـيف الوفود والشـخصـيات العلمـيـة والسـياسـيـة المؤثرة فى العـالـم تجـمع من مـصـر وممن درس فى الدول الأخرى، وتستعين بهم فى رسم تلك السياسات، وعمل خطة قوية وواضحة فى سبيل تقـوية وتحسين علاقـتنا بالخارج، وهى خطوة جريئـة بدأتها وزارة الأوقاف بهذا الإيفـاد وبما نقوم به كل عام فى تنظيم مـؤتمر كبير، يبـقى الاهتمام بالتفـعيل أكثر وبالاستفادة من الجهود التى تبذل بشكل أكبر.

وحبـذا لو شاركت وزارة التـعليم العالـى والجامعـات فى هذه اللقاءات داخـلياً وخارجياً، لأن الفكر الأكاديمى هو الأنضج دائمـاً وهو السبيل إلى فهم الإسلام بشكل أفضل وتصحيح الصورة بشكل أسرع.

٨- تبين للوفد كذلك أن إسهـام الإعلام يجب أن يكون واضحاً فى هذه الوفود، داخلياً وخارجيـاً، فالأبواب المغلقة للاجتماعات لا يعرف مـا يدور فيها، ثم إن الرأى العام مهم جداً خاصة فى بلد مثل إنجلترا.

والله ولى التوفيق،،

* * *

القسم الثالث

الـــوثـائق

بيعة العقبة الأولى(*)

خرج رسـول الله ﷺ فى الموسم الذى لقى فيه النفـر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم. فبينما هو عند العقبة، لقى رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيراً... فدعـاهم إلى الله -عز وجل-، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فأجابوه فيما دعـا إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم؛ وعسى أن يجمع الله بك. فسنقـدم عليهم فندعوهـم إلى أمرك، ونعـرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين. فـإن يجمعهم اللـه عليه، فلا رجل أعز منك. ثم انصـرفوا.. وهم، فيما ذكر لى، ستة نفر من الخزرج. ولم يكن هناك وثيقة مكتوبة، بل بيعة.

بيعة العقبة الثانية

فلما قدموا -أى الذين بايعـوا فى العقبة الأولى- [المدينة إلى قومهم، ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسـلام، حتى فشا فيـهم. فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

حتى إذا كان العام المقبل، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا. فلقوه بالعقبة. وهى العقبة الأولى. فبايعوا رسول الله ﷺ...

فبـايعنا رسول الله ﷺ عـلى بيعة الـنساء (راجع القرآن سورة ٦٠آية ١٢) وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب، على:

"أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسـرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف".

"فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من الله شيئًا فأمركم إلى الله -عز وجل-، إن شاء غفر، وإن شاء عذب".

"فإن وفـيتم فلكم الجنة، وإن غـشيتـم من ذلك، فأوخذتم بحـده فى الدنيا، فـهو

(*) جميع الوثائق مقتبسة من كتاب "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة" للأستاذ محمد حميد الله.

كفارة له. وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة، فأمركم إلى الله -عز وجل-، إن شاء عذب، وإن شاء غفر".

وفى رواية :"الذين بايعوا فى العقبة الأولى(=الثانية) بايعوا: على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرت علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف فى الله لومة لائم.

وفى رواية موفق الدين ابن قدامة:

تبايعونى على السمع والطاعة، فى النشاط والكسل، وعلى النفقة فى العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى أن تقولوا فى الله لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة.

وعند موفق الدين أيضًا فى ترجمة أبى أمامة أسعد بن زرارة نقيب النقباء:

قال الشعبى: قال النبى ﷺ ليلة العقبة: يا معشر الأنصار، تكلموا وأوجزوا، فإن علينا عيونًا. قال الشعبى: فخطب أبو أمامة أسعد بن زرارة خطبة ما خطب المرد ولا الشيب مثلها قط. فقال: يا رسول الله، اشترط لربك، واشترط لنفسك، واشترط لأصحابك. قال(ﷺ): أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا؛ وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم؛ وأشترط لأصحابى المواساة فى ذات أيديكم. قالوا: هذا لك؛ فما لنا؟ قال: الجنة. قالوا. ابسط يدك.

ولم يكن هناك وثيقة مكتوبة.

بيعة العقبة الثالثة

خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة، ومن أوسط أيام التشريق. قال: فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله

ﷺ لها... فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا. حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا، مستخفين، حتى اجتمعنا عند الشعب فى العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نسائنا...

فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا الله، ورغب فى الإسلام. ثم قال: "أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم".

قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: "نعم، والذى بعثك بالحق! لنمنعك مما نمنع منه أزرذ. فبايعنا يا رسول الله، فنحن، والله، أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابراً".

... أبو الهيثم بن التيهان، فقال: "يا رسول الله! إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها _يعنى اليهود _فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال:

"بل الدم، الدم؛ والهدم، الهدم. أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم".

.. قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبًا، ليكونوا على قومهم بما فيهم. فأخرجوا منهم إثنى عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.. (وجعل أبا أمامة أسعد بن زرارة نقيب النقباء).

قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى _أخو بنى سالم بن عوف :_

"يا معشر الخزرج! هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟" قالوا: "نعم". قال: "إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس! فإنكم كنتم ترون أنكم إذا هلكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا، أسلمتموه، فمن الآن. فهو، والله! وإن فعلتم خزى الدنيا والآخرة. وإن كنتم أنكم وافون له بما دعوتموه إليه عن نهكة الأموال وقتل

الأشراف، خذوه. فهو، والله! خير الدنيا والآخرة". قالوا: "فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف. فما لنا يا رسول الله! إن نحن وفينا؟" قال: "الجنة". وفى رواية اليعقوبى: "أن يمنعوه وأهله مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم وأولادهم. وعليهم أن يحاربوا معه الأسود والأحمر، وأن ينصروه على القريب والبعيد. وشرط لهم الوفاء بذلك والجنة".

قالوا: "ابسط يدك" فبسط يده، فبايعوه...

فلما أصبحنا، غدت علينا جلّت قريش حتى جاءوا فى منازلنا، فقالوا: "يا معشر الخزرج! إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صباحنا هذا، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا وإنا، والله! ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم". قال: فانبعث من هناك من مشتركى قومنا، يحلفون بالله: ما كان من هذا شيء وما علمناه. قال: وقد صدقوا ما لم يعلموه.

قال: وبعضنا ينظر إلى بعض...

قال: ونفر الناس من منى. فتنطّس القوم الخبر_أى أكثروا البحث عنه _فوجدوه قد كان. وخرجوا فى طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخره، والمنذر بن عمرو، أخا بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج. وكلاهما كان نقيبًا. فأما المنذر، فأعجز القوم. وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله. ثم أقبلوا به، حتى أدخلوه مكة، يضربونه ويجذبونه بجمته. وكان ذا شعر كثير.

وفى رواية أخرى: وكان فى بيعة الحرب، حين أذن الله رسوله فى القتال، شروط سوى شروطه عليهم فى العقبة الأولى(= الثانية). كانت الأولى على بيعة النساء (راجع القرآن ٦٠/ ١٢)، وذلك أن الله لم يكن أذن لرسول الله ﷺ فى الحرب. فلما أذن له فيها، وبايعهم رسول الله ﷺ فى العقبة الآخرة على حرب الأحمر والأسود،

أخذ لنفســه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفـاء بذلك الجنة... عن عبادة بن الصامت، وكان أحد النقباء، قال: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب.

ولم يكن هناك وثيقة مكتوبة.

كتاب أمان لسراقة بن مالك المدلجى

لما خـرج رسول الله ﷺ من غـار جبل الثـور، وسار يريد المدينة... لما مـروا بحى مدلج، بصر بهم سـراقة بن مالك... فركب جـواده ليأخذهم... فساخت قـوائم فرسه فى الأرض... فقال: "يا مـحمد! قد علمت أن هذه من دعـائك على. فادع لى، ولك عـهد الله، أن أرد عنك الطـلب". فدعـا له، فخلـص. وقرب من النبى ﷺ وقـال: "يا رسول الله! خذ سهـمًا من كنانتى، فإنّ إبلى بمكان كذا، فخذ منها ما أحـببت". فقال: "لا حـاجـة لى فى إبلك". فلمـا أراد أن يعـود عنه، قـال: "كـيف بك، يا سـراقـة! إذا سورت بسـوارى كسرى!" قـال: "كسرى بن هرمـز؟". قال: "نعم". وسأل سـراقة أن يكتب له رسـول الله ﷺ كتابًا. فكتب له أبو بكر الصديق رضى الله عنـه. ويقال: بل كتب له عامر بن فهيرة، فى أديم.

ولم يرو نص الكتاب.

كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود

وهو دستور الدولة البلدية بالمدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) هذا كتاب مـحمد النبى (رسول الله) بين المؤمنين والمسلـمين من قريش و (أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

(٢) أنهم أمة واحدة من دون الناس.

(٣) المهاجرون من قريش على رَبعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٤) وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٥) وبنو الحارث (بن الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٦) وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٧) وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٨) وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٩) وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١٠) وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى؛ وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(١٢) وأن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل.

(١٢ب) وأن لا يحالف مؤمن مولى دونه.

(١٣) وأن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم،

أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بقين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

(١٤) ولا يقتل مؤمن مؤمنًا فى كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

(١٥) وأن ذمة الله واحدة يجبر عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

(١٦) وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

(١٧) وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

(١٨) وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا.

(١٩) وأن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله.

(٢٠) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

(٢٠ب) وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

(٢١) وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولى المقتول (بالعقل) وأن المؤمنين عليه كافةً ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

(٢٢) وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يؤويه، وأن من نصره، أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

(٢٣) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

(٢٤) وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

(٢٥) وأن يهود بنى عوف أمة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

(٢٦) وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف.

(٢٧) وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف.

(٢٨) وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف.

(٢٩) وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف.

(٣٠) وأن ليهود بنى الأوس ما ليهود بنى عوف.

(٣١) وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتِغ إلا نفسه وأهل بيته.

(٣٢) وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

(٣٣) وأن لنبى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف، وأن البر دون الإثم.

(٣٤) وأن موالى ثعلبة كأنفسهم.

(٣٥) وأن بطانة يهود كأنفسهم.

(٣٦) وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

(٣٦ب) وأنه لا ينحجز على ثأر جرح وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا.

(٣٧) وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

(٣٧ب) وأنه لا يأثم امرءٌ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

(٣٨) وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

(٣٩) وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

(٤٠) وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

(٤١) وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

(٤٢) وأنه ما كان بين أهل هـذه الصحيفة من حـدث، أو اشتجار يخاف فـساده، فإن مـرده إلى اللـه وإلى مـحـمـد رسـول الله ﷺ، وأن الله على أتقـى مـا فى هذه الصحيفة وأبره.

(٤٣) وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

(٤٤) وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

(٤٥) وإذا دعوا إلى صلح يصالحـونه ويلبسونه فإنهم يصالحـونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين.

(٤٥ب) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم.

(٤٦) وأن يهود الأوس مـواليهم وأنفسـهم على مثل ما لأهل هذه الصـحيفـة مع البر المحض من أهل هذه الصـحيـفة، وأن الـبر دون الإثم لا يكسب كـاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره.

(٤٧) وأنه لا يحول هذا الكتـاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن ومن قـعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله(ﷺ).

هدنة الحديبية

١) باسمك اللهم.

٢) هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن سهيل بن عمرو.

٣) واصطلحـا على وضع الحـرب عن الناس عـشـر سنين يأمن فـيـهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٤) على انه من قدم مكة من أصحاب مـحمد حاجًا أو معتمـرًا أو يبتغى من فضل الله

فهو آمن على دمه، ومن قدم المدينة من قريش مجتازًا إلى مصر أو إلى الشام يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

٥) على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

٦) وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال.

٧) وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

- فتواثبت خزاعة فقالوا: "نحن فى عقد محمد وعهده" وثواثبت بنو بكر فقالوا: "نحن فى عقد قريش وعهدهم".

٨) وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا، معك سلاح الراكب: السيوف فى القرب، ولا تدخلها بغيرها.

٩) وعلى أن هذا الهدى حيث ما جئناه ومحله فلا تقدمه علينا...

وأُشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين: وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبى وقاص، ومحمود بن مسلمة.

ومكرز بن حفص(و...؟ من المشركين).

وعلى بن أبى طالب وكتب.

كتاب قريش إلى رسول الله فى إلغاء شرط الاسترداد
كتاب عمر إلى المستضعفين فى مكة
كتاب رسول الله إلى أبى بصير بالمجىء إلى المدينة

لما رَد رسول الله أبا بُصير وأرسله مع سفيرى قريش، انطلق حتى إذا كان بذى الحليفة قتل أحدهما.. ثم خرج حتى نزل العيص من ناحية ذى المروة على ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون إلى الشام. وبلغ المسلمين الذين كانوا حبسوا بمكة قول رسول الله ﷺ لأبى بصير: "ويل أمة محَشٍ حرب لو كان معه رجال"، فخرجوا إلى أبى بُصير بالعيص فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً منهم. وكانوا قد ضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها، حتى كتبت قريش إلى رسول الله تسأل بأرحامها إلا آواهم"فلا حاجة لنا بهم".

فكتب رسول الله ﷺ إلى أبى بصير بالمجىء إلى المدينة، فقرأ الكتاب وهو على فراش موته فتوفى، ورجع سائر أصحابه إلى المدينة. ولم يرو لنا نص هذه الكتب.

خطبته ﷺ أيام فتح مكة

إن خزاعة قتلوا رجلاً من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه فأخبر بذلك النبى ﷺ فركب راحلته فخطب فقال:

إن الله حبس عن مكة القتل _أو: الفيل، شك أبو عبد الله (أى الإمام البخارى نفسه) _وسلط عليهم رسول الله (ﷺ) والمؤمنين. ألا وإنها لم تحل لأحد قبلى، ولم تحل لأحد بعدى. ألا وإنها حلت لى ساعة من نهار. ألا وإنها، ساعتى هذه، حرام لا يختلى شوكها. ولا يعضد شجرها. ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد. فمن قتل فهو بخير النظرين: إما أن يعقل، وإما أن يقال أهل القتيل. فجاء رجل من أهل اليمن، فقال: اكتب لى يا رسول الله. فقال: اكتبوه لأبى فلان. فقال رجل من قريش: إلا الأذخر، يا

رسول الله فإنا نجعله في بيوتنا، وقبورنا. فقال النبي ﷺ: إلا الأذخر، وفي رواية البخاري ٤٥/ ٧/ ١: "لا تلتقط لقطتها إلا لمعروف". وأيضًا فيه: "لا يعضد عضاهها، ولا ينفر صيدها، ولا تحل لقطتها، إلا لمنشد، ولا يختلى خلاها. فقال عباس: يا رسول الله: "إلا الإذخر" فقال: "إلا الإذخر".

وفيه في ٤٥/ ٧/ ٢: فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنون، فإنها لا تحل لأحد كان قبلي. وإنها احلت لي ساعة من نهار. وإنها لا تحل لأحد بعدي. فلا ينفر صيدها، ولا يختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد. ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يفدى وإما أن يقيد. فقال العباس: "إلا الإذخر". فقام أبو شاه، رجل من أهل اليمن فقال: اكتبوا لي يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: اكتبوا لأبي شاه. (قلت للأوزاعي: ما قوله "اكتبوا لي يا رسول الله"؟ قال: هذه الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ.

فقيل لأبي عبد الله: أي شيء كتب له؟ قال: كتب له هذه الخطبة.

معاهدة مع يهود المدينة

فجاءت يهود إلى النبي ﷺ يشكون ذلك -أي قتل كعب بن الأشراف- فقال: إنه لو فرَّ كما فر غيره ممن هو على مثل رأيه، ما اغتيل. ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر. ولم يفعل هذا أحد منكم إلا كان السيف. ودعاهم إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابًا ينتهون إلى ما فيه؛ فكتبوا بينهم وبينه كتابًا في دار رملة وبنت الحارث.

ولم يرو نص الكتاب.

إلى يهود خيبر

من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه المصدق لما جاء به. ألا أن الله قال لكم يا معشر أهل التوراة وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلاً من الله

ورضوانًا. سيماهم فى وجوههم من أثر السجود. ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأة فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار. وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا).

وإنى أنشدكم بالله وأنشدكم بما أنزل عليكم وأنشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذى أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاكم من فرعون وعمله، وإلا أخبرتمونى: هل تجدون فيما انزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم. "قد تبين الرشد من الغى" فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه.

إلى النجاشى ملك الحبشة

من محمد رسول الله، إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة.

سلم أنت، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه.

وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى، وتؤمن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله.

وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرًا، ونفرًا معه من المسلمين.

فإذا جاءك فاقرهم، ودع التجبر، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصحى.

والسلام على من اتبع الهدى.

إلى النجاشى أيضًا

هذا كتاب من محمد النبى إلى النجاشى الأصحم عظيم الحبشة.

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله.

وأدعوك بدعاية الله، فإنى أنا رسول فأسلم تسلم و"يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله ﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون﴾[آل عمران:] .فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك.

جواب النجاشى إلى النبى ﷺ

إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن أبجر.

سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام. أما بعد: فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى. فورب السماء والأرض أن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثُفروقًا، إنه كما قلت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدقًا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأصحابه، وأسلمت على يديه لله رب العالمين.

وقد بعثت إليك بابنى أرها بن الأصحم بن أبجر، فإنى لا أملك إلا نفسى، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإنى أشهد أن ما تقول حق.

والسلام عليك يا رسول الله.

ولم يروا نص الكتابين.

كتاب النجاشى إلى النبى ﷺ

إلى محمد ﷺ من النجاشى أصحمه.

سلام عليك يا رسول الله ورحـمة الله وبركاته. أما بعد: فإنى قـد زوجتك امرأة من قـومك، وعلى دينك، وهى السيدة أم حـبيـبـة بنت أبى سفـيـان، وأهديتك هدية جامعة، قميصًا وسراويل وعطافًا وخفين ساذجين.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

كتاب آخر للنجاشى إلى النبى ﷺ

إلى محمد ﷺ من النجاشى أصحمه.

سـلام عليك يا رسول اللـه من الله ورحمـة الله وبركـاته، لا إله إلا الذى هدانى للإسـلام. أما بعـد: فـقد أرسـلت إليك يا رسـول الله من كان عنـدى من أصحـابك المهـاجرين من مـكة إلى بلادى وها أنا أرسلت ابنى أُريحـا فى سـتين رجـلاً من أهل الحبشة؛ وإن شئت أن آتيك بنفسى فعلت يا رسول الله، فإنى أشهد أن ما تقوله حق.

والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.

كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم

من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم

سلام على من اتبع الهـدى. أما بعد: فإنى أدعوك بدعـاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مـرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيِّـين. و"يا أهل الكتاب تعـالوا إلى كلمة سـواء بيننا وبينكم، ألا نعـبد إلا الله ولا نشـرك به شيـئًا، ولا يتـخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون".

كتاب آخر إلى إمبراطور الروم

من محمد رسول الله إلى صاحب الروم

إنى أدعوك إلى الإسلام، فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. فإن لم تدخل فى الإسلام فأعط الجزية، فإن الله تبارك وتعالى يقول: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون). وإلا فلا تَحُلْ بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه، أو يعطوا الجزية.

جواب إمبراطور الروم إلى النبى ﷺ

إلى أحمد رسول الله الذى بشر به عيسى؛ ومن قيصر ملك الروم إنه جاءنى كتابك مع رسولك، وإنى أشهد انك رسول الله، نجدك عندنا فى الإنجيل، بشَّرنا بك عيسى بن مريم. وإنى دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعونى لكان خيراً لهم، ولوددت أنى عندك فأخدمك وأغسل قدميك.

كتاب آخر إلى هرقل وجوابه

عن سعيد بن أبى راشد، قال: لقيت التنوخى رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص، وكان جاراً لى قد بلغ الفند أو قرب. فقلت: "ألا تخبرنى عن رسالة هرقل إلى النبى ﷺ، ورسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل؟" فقال: بلى (وفى الرواية الثانية: عن سعيد بن أبى راشد، مولى لآل معاوية، قال قدمت الشأم فقيل لى: فى هذه الكنيسة رسول قيصر إلى رسول الله صلى الله علية وسلم. فدخلنا الكنيسة، فإذا أنا بشيخ كبير. فقلت له: أنت رسول قيصر إلى رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم. قلت: حدثنى عن ذلك. قال: إلخ) قدم رسول الله ﷺ تبوك. فبعث دحية الكلبى إلى هرقل. فلما أن جاءه كتاب رسول الله ﷺ، دعا قسيسى الروم وبطارقتها ثم أغلق عليه وعليهم باباً، فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إلىّ يدعونى إلى ثلاث خصال:

"يدعونى أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا، أو أن نُلقى إليه الحرب".

(وفى الرواية الثانية: إما أن تتبعوه على دينه، أو تقروا له بخراج يجرى له عليكم ويقركم على هيئتكم فى بلادكم، أو أن تلقوا إليه بالحرب) _والله لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب: ليأخذن ما تحت قدمى. فهلم نتبعه على دينه، أو نعطيه مالنا على أرضنا. فنخروا نخرة رجل واحد، حتى خرجوا من برانسهم وقالوا: "تدعونا إلى أن ندع النصرانية، أو نكون عبيداً لأعرابى جاء من الحجاز؟" فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده، أفسدوا عليه الروم، رفأهم ولم يكد، وقال: إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم.

ثم دعا رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب، فقال: ادع لى رجلاً حافظًا للحديث، عربى اللسان، أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه. فجاء بى. فدفع إلىَّ هرقل كتابًا، فقال: "اذهب بكتابى إلى هذا الرجل. فما ضيعت من حديثه، فاحفظ لى منه ثلاث خصال: انظر هل يذكر صحيفته التى كتب إلى بشىء؛ وانظر إذا قرأ كتابى فهل يذكر الليل (والنهار)؛ وانظر فى ظهره هل به شىء يريبك؟ ".

فانطلقت بكتابه حتى جئت بتبوك. فإذا هو جالس بين ظهرانى أصحابه، محتبيًا على الماء. فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: ها هو ذا. فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه، فناولته كتابى. فوضعه فى حجره، ثم قال: ممن أنت؟ فقلت: أنا أحد تنوخ. قال: هل لك فى الإسلام، الحنيفية ملة أبيك إبراهيم؟ قلت: إنى رسول قوم، وعلى دين قوم، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم. فضحك وقال: "إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين". يا أخا تنوخ، إنى كتبت بكتاب إلى كسرى، فمزقه؛ والله ممزقه وممزق ملكه. وكتبت إلى النجاشى بصحيفة، فخرقها؛ والله مخرقه ومخرق ملكه. وكتبت إلى صاحبك بصحيفة، فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأسًا ما دام فى العيش خير. قلت. هذه إحدى الثلاثة التى أوصانى بها صاحبى.

وأخذت سهمًا من جعبتى، فكتبت فى جلد سيفى.

ثم إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره. قلت: من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم؟ قالوا: معاوية. فإذا فى كتاب صاحبى: "تدعونى إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين؛ فأين النار ؟ ".

فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله؛ أين الليل إذا جاء النهار؟ فأخذت سهمًا من جعبتى، فكتبتها فى جلد سيفى.

فلما أن فرغ من قراءة كتابى، قال: "إن لك حقًا، وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزنا بها. إنا سفر، مرملون" قال: فناداه رجل من طائفة الناس، قال: أنا أجوزه. ففتح رحله، فإذا هو يأتى بحلة صفورية، فوضعها فى حجرى. قلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لى: عثمان. ثم قال رسول الله ﷺ: أيكم ينزل هذا الرجل؟ فقال فتى من الأنصار: أنا. فقام الأنصارى، وقمت معه. حتى إذا خرجت من طائفة المجلس، نادانى رسول الله ﷺ، وقال: تعال يا أخا تنوخ. فأقبلت أهوى إليه حتى كنت قائمًا فى مجلسى الذى كنت بين يديه. فحل حبوته عن ظهره، وقال: "ههنا، امض لما أمرت له" فجعلت فى ظهره، فإذا أنا بخاتم فى موضع غضون الكتف، مثل الحجمة الضخمة.

(وفى رواية أبى عبيد: عن بكر بن عبد الله المزنى، أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام. فلما أتاه رسول الله ﷺ، أمر مناديًا، فنادى: "ألا إن قيصر ترك النصرانية واتبع دين محمد ﷺ. فأقبل جنده قد تسلحوا، حتى أطافوا بقصره. فأمر مناديه فنادى: "ألا إن القيصر (كذا) إنما أراد أن يجربكم كيف صبركم على دينكم. فارجعوا، فقد رضى عنكم". ثم قال لرسول النبى ﷺ: "إنى أخاف على ملكى". وكتب إلى رسول الله ﷺ: "إنى مسلم".

وبعثت إليه بدنانير، فقال رسول الله ﷺ حين قرأ الكتاب: كذب عدو الله، ليس

بمسلم، ولكنه على النصرانية. قال: وقسم الدنانير... قـال أبو عبيد: فأرى الدنانير التى وصلت إليه من هرقل، إنما وصلت إليه بتبوك. أما فى رواية بكر بن عبد الله المزنى عند ابن حجر: قال قيصر للسفير: "لا أذهب إلى نبيكم، فأخبره أنى معه (وفى نسخه: اذهب به إلى نبيكم، فـأخبره أنى معـه) ولكن لا أريد أن أدع ملكى، وبعث معه دنانيـر هدية إلى رسول الله ﷺ. فرجع فأخبره. فقال رسول الله ﷺ: "كذب". وقسم الدنانير".

إلى أسقف الروم فى القسطنطينية

إلى ضغاطر الأسقف

سـلام على من آمن. أمـا على أثر ذلك، فإن عـيـسى بن مريم روح الـله وكلمتـه ألقاها على مريم الذكـية. وإنى أؤمن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعـيل وإسحاق ويعقوب والأسبـاط، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبـيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون.

والسلام على من اتبع الهدى.

إلى المقوقس عظيم القبط

من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط.

سلام على من اتبع الهـدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعـاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجـرك مرتين. فـإن توليت، فعليك إثم القـبط. "يا أهل الكتاب تعـالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيـئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون".

محمد رسول الله

رواية أخرى عن جواب المقوقس

باسمك اللهم.

من المقوقس إلى محمد.

أما بعد: فقد بلغنى كتابك، وقرأته وفهمت ما فيه. أنت تقول أن الله تعالى أرسلك رسولاً، وفضلك تفضيلاً، وأنزل عليك قرآنًا مبينًا، فكشفنا يا محمد فى علمنا عن خبرك، فوجدناك أقرب داع دعا إلى الله، وأصدق من تكلم بالصدق. ولولا أنى ملكت ملكًا عظيمًا، لكنت أول من سار إليك، لعلمى أنك خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وإمام المتقين.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته إلى يوم الدين.

كتابه ﷺ إلى كسرى أبرويز عظيم فارس

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس:

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

وأدعوك بدعاء الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافةً، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم؛ فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك.

إلى كسرى أيضًا

أبو معشر عن بعض المشيخة قال:

كتب رسول الله ﷺ مع عبد الله بن حذافة إلى كسرى:

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس؛ أن أسلم تسلم من شهد شهادتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فله ذمة الله وذمة رسوله.

وزاد الراوى: فدعا بالجلمين فقطعه. ثم دعا بالنار فأحرقه. ثم ندم فقال: لابد

أن أهدى له هدية... قال: فأدرج له شقًا من ديباج وحرير، فأهداها لرسول الله ﷺ

جواب كسرى إلى رسول الله

وكتب إليه كسرى كتابًا جعله بين سرقتى حرير، وجعل فيهما مسكًا. فلما
الرسول إلى النبى فتحه فأخذ قبضة من المسك فشمه وناوله أصحابه وقال: لا
لنا فى هذا الحرير؛ ليس من لباسنا. وقال: "لتدخلن فى أمرى أولآتينك بنفسى
معى. وأمر الله أسرع من ذلك. فأما كتابك فأنا أعلم به منك: فيه كذا وكذا".
يفتحه ولم يقرأه. ورجع الرسول إلى كسرى فأخبره.

وقد قيل إن كسرى لما وصل إليه الكتاب... قده شتورًا. فقال رسول الله:
الله ملكهم كل ممزق.

ولم يرو نص الكتاب.

إلى الهرمزان (عامل كسرى)

من محمد رسول الله إلى الهرمزان:

إنى أدعوك إلى الإسلام أسلم تسلم.

إلى نفاثة بن فروة الدئلى ملك السماوة (فى العراق)

وكتب رسول الله ﷺ: إلى نفاثة بن فروة الدئلى ملك السماوة.

ولم يرو نص الكتاب.

إلى المنذر بن ساوى العبيدى عامل كسرى على البحرين

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك إلى الإسلام، فأسلم
يجعل الله لك ما تحت يديك. واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخُفّ والحافر.

مكتوب آخر إلى المنذر بن ساوى

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى:

سلام عليك. فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا غيره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإنى أذكرك الله -عز وجل-، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى. وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً. وإنى قد شفعت فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه. وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم. وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك. ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.

مكتوب المنذر إلى النبى ﷺ

أما بعد يا رسول الله: فإنى قرأت كتابك على أهل بحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه. وبأرضى مجوس ويهود. فأحدث فى ذلك الأمر.

إلى أهل عمان والبحرين

من محمد النبى رسول الله، لعباد الله الأسبذيِّين، ملوك عُمان وأسبذ عُمان من كان منهم بالبحرين:

إنهم إن آمنوا، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله ورسوله، وأعطوا حق النبى، ونسكوا نسك المسلمين، فإنهم آمنوا؛ وإن لهم ما أسلموا عليه. غير أن مال بيت النار ثُنيا لله ورسوله؛ وإن عشور التمر صدقة، ونصف عشور الحب. إن للمسلمين نصرهم ونصحهم، وإن لهم على المسلمين مثل ذلك.

وإن لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاءوا.

❊ ❊ ❊

الفهـــرس